فاضل اسكندر

الأرانب والثعابين

ترجمة: خيري الضامن

دار التقدم - موسكو
2002

الأرانب والثعابين

(قصة فلسفية)

УДК 82
ББК 84(2Рос=Рус)6
И 86

Искандер Ф.А.
И 86 Кролики и удавы: Философская сказка; Сандро из Чегема: Пер. с рус. – М.: ОАО Издательская группа «Прогресс», 2002. – 256 с.

УДК 82
ББК 84(2Рос=Рус)6

© Абдулла Хаба, 2002
© ОАО Издательская группа «Прогресс», 2002

ISBN 5-01-004732-2

كان يا ما كان ، كان فى قديم الزمان وسالف الوقت والاوان ، فى بلد جنوبى بعيد جدا ، باختصار : فى افريقيا .

فى يوم صيفى قائظ تمدد على صخرة كبيرة تكسوها الطحالب ثعبان اعور عجوز اشتهر بين سائر الثعابين بكنية «الاحول» ، مع انه كان اعور وليس احول ، وثعبان آخر فى مقتبل العمر وليس لديه كنية . ورغم صغر سنه كان يجيد ابتلاع الارانب فعلق عليه الآخرون آمالا كبيرة . وعلى اية حال كان قبل قليل يقتات بالفئران وافراخ الدجاج الرومى البرى ، لكنه تحول مؤخرا الى الارانب فكان ذلك نجاحا مرموقا اذا اخذنا بعين الاعتبار صغر سنه .

الغابات الاستوائية الكثيفة تنبسط حول الثعبانين ، وقد تمددا فى اشعة الشمس يهضمان – باطمئنان – ارنبين ابتلعاهما قبل حين ، وهما يتمتعان الآن بقسط من الراحة وسط اشجار اليوبيا وجوز الهند والموز واللوز ، حيث ترفرف فراشات بحجم الاطيار الصغيرة واطيار بحجم الفراشات الكبيرة ، وتحلق الببغاوات من شجرة الى اخرى فيومض ريشها الزاهى كاللمع واللهيب وهى تواصل الثرثرة والتغريد حتى اثناء الطيران .

فى بعض الاحيان تطقطق الاغصان فى قنن الاشجار وتزعق القردة فيهدر زئير ناعس من اسد يغفو على مقربة من ذاك المكان . وما ان تسمع القردة زئير الاسد حتى تتحول الى لغة الهمس ، ثم تنشغل وتزعق ثانية فيحذرها الاسد بزئيره من جديد مؤكدا بانها تشوش عليه نومه فى حين يتعين عليه ان يتوجه الى الصيد مع بداية المساء .

تحولت القردة الى الهمس من جديد ، فهى لا تجيد الصمت بأية حال . انها تتجادل فى امر ما وتتخاصم طول الوقت ، ولا احد يعرف موضوع الجدال والخصام .

وبالمناسبة فالثعبانان اللذان يستجمان على الصخرة المكسوة بالطحالب لا يعبآن بزعيق القرود . فهما يعتقدان ، عندما يبلغ مسامعهما ، عرضا ، عراك القرود انها تتشاجر بسبب موزة عفنة او اية حماقة اخرى . . .

– لا افهم اطلاقا – قال الثعبان الفتى الذى تعلم مؤخرا ابتلاع الارانب – لمَ لا تهرب الارانب عندما ابصر فيها ، فهى عادة سريعة العدو اليس كذلك ؟

– كيف لا تفهم ؟ – قال «الاحول» مندهشا – اننا ننومها . . .

– ماذا تعنى ؟ ما هو التنويم ؟ – سأل الثعبان الفتى .

نقول للعلم والاطلاع ان الافاعى والثعابين فى تلك الازمان السحيقة التى اخذنا على عاتقنا مهمة الحديث عنها لم تكن تخنق ضحاياها ، بل تقابلها ، او على الاصح ، تتربص بها من مسافة قريبة وتسلط عليها نظرة تجعلها تتجمد بالصورة التى يسميها العامة بالتنويم المغناطيسى .

– ما هو «التنويم» ؟ – سأل الثعبان الفتى على اية حال .

– يصعب على ان اقدم جوابا شافيا – قال الثعبان «الاحول» مع انه كان اعور وليس احول – اذا نظرنا الى الارنب ، مثلا ، من مسافة قريبة فهو ، من كل بد ، يتجمد بلا حراك .

– لماذا يتوجب عليه ان يتجمد ؟ – سأل الثعبان الفتى مندهشا – فانا مثلا ، احس بانه يتحرك احيانا فى بطنى . . .

– فى البطن جائز – اوما «الاحول» موافقا – ولكن بالاتجاه اللازم .

فى تلك الاثناء انكمش «الاحول» فى موضعه بعض الشىء ليزيح الارنب الذى ابتلعه ، فقد توقف ذاك فجاة وكانه ينصت الى حديثهما .

والحقيقة فقد حدث لهذا الثعبان العجوز حادث مؤسف كاد يودى بحياته ، وفقد بسببه ، على اية حال ، احدى عينيه . وكلما يتذكر هذا الحادث اثناء هضم الطعام يتوقف الارنب فى بطنه ويتعين عليه ان ينكمش ويتلوى بعض الشىء ليزحزه من مكانه . اما اسئلة الثعبان الفتى فقد ذكرت «الاحول» من جديد بذلك الحادث الذى لا يريد ان يتذكره .

– ومع ذلك لا افهم لماذا يتعين على الارنب ان يتجمد بلا حراك عندما ننظر اليه ؟ – سأل الثعبان الفتى بعد حين من الوقت .

– كيف اوضح لك ؟ – قال «الاحول» متأملا – لعل الحياة منظمة على هذه الصورة . وربما كان ذلك تقليدا قديما مفرحا . . .

– مفرحا بالنسبة لنا طبعـــا – وافقه الثعبان الصغير بعد تأمـل قصير – لكنه مؤلم للارانب ، اليس كذلك ؟

– ربما . – اجاب «الاحول» بعد لحظات .

كان «الاحول» فى الواقع ، فى منتهى الطيبة – لا كسائر الثعابين ، لكنه ليس طيب القلب لدرجة تجعله يتخلى عن لحم الارانب اللذيذ . فهو يقدم للارانب الخدمة الوحيدة التى يقوى عليها ، حيث يحاول ان يبتلعها باقل قدر من الآلام ، وقد دفع ثمن طيبته هذه فى آخر المطاف .

وتابع الثعبان الصغير اسئلته :

– هل يعقل ان الارانب لم تحاول ابدا ان تعترض على هذا التقليد المؤذى ؟

– جرت محاولة واحدة – اجابه «الاحول» – لكن الافضل الا تسألنى عنها . فلست راغبا فى تذكرها . . .

– ارجوك – استعطفه الثعبان الصغير – فانا متشوق لسماع شىء ممتـع .

– القضية ان الارنب الوحيد الذى اعترض هو ارنبى بالذات – قال «الاحول» – وبالنتيجة صرت اعور .

– ماذا ؟ هل خدش عينك ؟ – سأل الثعبان الصغير مندهشا .

– ليس بالمعنى الحرفى للكلمة . ولكنى صرت اعور بسببه – قال «الاحول» منصتا الى تأثير كلماته على تحرك الارنب فى بطنه . لم يحدث شىء ، يبدو ان الارنب يتحرك . . .

– حدثنى ارجوك – توسل اليه الثعبان الصغير من جديد – اريد ان اعرف كيف حدث ذلك . . .

«الاحول» ثعبان طاعن فى السن يعانى من وحدة خانقة . والثعابين الكبيرة تعامله بسخرية او بعداء ولذلك يعتز جدا بعلاقته الودية مع هذا الثعبان الماهر رغم صغر سنه .

– طيب – وافق «الاحول» – ساحدثك ، ولكن خذ بالك ، فهذا سر يجب الا تفشيه لصغار الثعابين .

– اعاهدك – اقسم الثعبان الفتى ، وكسائر الذين يقسمون اليمين فى مثل هذه الاحوال ، تصور سخونة فضوله الشديد تمسكا ساخنـا بالقسم واليمين .

– حدث ذلك قبل سبعين عاما تقريبا – طفق «الاحول» يحكى قصته – كنت آنذاك اكبر منك الآن بقليل . فى ذلك اليوم تربصت بالارنب عند

«مشرب الحمير» وابتلعته بسهولـة كالعادة . فى البداية جرى كل شىء بشكل جيد تماما ، وبعد ذلك ، عندما بلغ الارنب منتصف بطنى نهض فجأة على قائمتيه الخلفيتين وغرز راسه فى ظهرى و . . .

توقف «الاحول» عن الكلام فجأة واخذ يتنصت .

– غرز راسه فى ظهرك ، ثـم ماذا ؟ – سأل الثعبـان الصغير بلجاجة .

– يخيل الي ان احدا يصيخ السمع الينـا – قال «الاحول» وادار صفحة وجهه المبصرة صوب شجيرات الدفلى التى يرقدان جنبها .

– كلا – اعترض عليـه الثعبان الصغير – خيل اليك ، فسمعك ضعيف . حدثنى بالبقية .

– انا احول ولست اطرش – برطـم الثعبان العجوز ، لكن الهدوء عاد اليه بالتدريج . فقد اعتبر هسيس الريح وحفيف اوراق الدفلى حركة من كائن حى .

وواصل الثعبان العجوز قصته المدهشة . ولمـا كان يتوقف عن الحديث كثيرا مشغول البال بعسر الهضم تارة ومتصورا تارة اخرى ان احدا ما يتنصت اليه ، والثعبان الصغير لا يوافقه فى ذلك مطلقا ، لان المخاوف على اسرار الغير تبدو مبالغا فيها دوما ، فقد اخذنا على عاتقنا مهمة سرد هذه القصة بايجاز .

سنحدثكم بكل ما جرى دون ان نخشى احدا يتنصت الينا ، ثم ، لعلكم توافقوننا ان الشجاعة على حساب اسرار الغير امر يبعث السرور .

وهكذا ابتلع الثعبـان «الاحول» الذى لم يكن آنذاك عجوزا ، ولا احول ، ارنبا عند «مشرب الحمير» . وبالفعل ، سارت الامور فى البداية على ما يرام ، الى ان نهض الارنب على قائمتيه الخلفيتين وغرز راسه ، من تحت ، فى ظهر الثعبان رافضا التحرك الى امام .

– ماذا دهاك ؟ – قال له «الاحول» – تريد ان تشاكس ؟ انهضم ولا تمانع فى السير الى الامام .

– سابقى واقفا بهذه الصورة رغم انفك – صاح الارنب من بطن الثعبان .

– هل يستحقون عمـل المعروف يا ترى ، بعـد تصرف من هذا القبيل ؟ – قال «الاحول» ثـم اضاف بعد تفكيـر : – فلننظر كيف ستتصرف ؟ . . .

وراح يصفعه بذنبه الفتى الذى كان لا يزال مرنا متينا . ومع كـل

صفعة يسددها اليه يشعر هو نفسه بالالم فى حين لم يتضرر الارنب ولم يتالم .

– لا يوجعنى الضرب ، لا يوجعنى – صاح الارنب من داخل الثعبان .

وفكر هذا الاخير : حقا ، جلدى سميك ، والالم الذى اريده لهذا السافل صار من نصيبى انا .

– طيب – قال «الاحول» بنفس لهجته الهادئة – سانتزعك من هناك . . .

تطلع حواليه فراى شجرة جوز هند ضخمة تكور احد جذورها فوق الارض بعد ان عرته الامطار والسيول . زحف بحذر الى تحت الجذر حتى بلغ الموضع المنتفخ فى بطنه ، موضع هذا الارنب الذى لا يريد ان يموت . وصاح به :

– انبطح ، ساطحنك الآن .

– اطحن – اجابه الارنب المسعور من داخل البطن – سأثبت قائمتى ورأسى بشدة .

غضب الثعبان بالفعل وراح ينقبض وينبسط بكل قواه مندسا تحت عرق الشجرة الى الامام والى الخلف ويكرر هذه الحركة .

اهتزت الشجرة وتساقط جوزها على الارض ، لكن الارنب لا يعبأ بشىء . وطفق يصيح :

– هيا ، شد حيلك ، هيا .

اهتاج «الاحول» وهز الشجرة حتى سقط على رأسه بغتة قرد كان يراقب تصرفه الغريب بفضول . كانت الضربة حساسة جدا ، فالقرد سقط من اعلى الشجرة . حاول الثعبان ان يلسع القرد ، لكن هذا الاخير نط جانبا حالما هوى على راس الثعبان . وكان بوسع «الاحول» ان يعاجل القرد لكن الارنب الذى يعترض بطنه حال دون ذلك .

اشتد هياج الثعبان المهان اصلا بتصرف الارنب ، فضلا عن الاهانة البشعة الاخرى التى خلفها سقوط القرد على راسه ، فانتفض بقوة جعلت عرق الشجرة ينقطع وارتطم رأسه بمنتهى الشدة بشجرة ابنوس قائمة جنبه ، واغمى عليه .

عاد الى رشده بعد زهاء ساعة . رفع راسه وجال ببصره فيما حواليه . ورغم الدوى فى اذنيه سمع فحيح الثعابين من ابناء جلدته . فقد عرفه احباؤه وزحفوا اليه وهم يخاطبون بعضهم بعضا . وفح احدهم قائلا :

– اذا كان الحظ منحوسا فالثعبان يختنق حتى بأرنب . . .

– كل ذلك والبعض يحسدوننا – قال ثعبان اشتهر بين رفاقه بتعوده على رؤية كل الامور بمنظار اسود .

– يا اخوتى – ندت عن «الاحول» – هل انهضم ومرق ام لا ؟

– مرق على وجه التقريب لمسافة شبر من يد قرد – قال الثعبان الراقد على مقربة منه .

– القضية تتوقف على نوعية القرد ، – قال فجأة سعدان من فوق جوزة الهند – اذا اخذنا الاورانجوتان معيارا للقياس فالارنب لم يتقدم حتى لربع شبر . . .

– هذا الارنب الملعون لم يمرق ولم ينهضم – علق الثعبان الذى تعود على رؤية كل الامور بمنظار اسود – بقى فى مكانه كالوتد .

– يا اخوتى ، ساعدونى – توسل اليهم «الاحول» . . .

– يا ويلنا – دوى فجأة صوت الافعوان الكبير ، ملك الثعابين – قدوة السوء معدية . . . حتى القرود صارت تعلمنا وتنصحنا . . .

– وهل القرود اسوأ من غيرها ؟ – قال السعدان من فوق الشجرة بانفعال – حالما تتدهور الامور يلقون باللوم على القرود . . .

ارتعب «الاحول» المسكين عندما سمع صوت الافعوان الكبير حتى نسى مصيبته .

فعندما ظهر هذا الافعوان القى نشيدا كفاحيا يتعين على جميع الثعابين ان تستمع اليه مرفوعة الرؤوس تعبيرا عن الولاء .

اليكم كلمات هذا النشيد المقتضب والكبير الدلالة :

يا احفاد التنين
يا ورثة الامجاد
يا ابناء الافعوان
يا ثعابين الفتوة
تحملوا العبء اللذيذ
عبء التهام الارانب
فتلك هى ارادة المستقبل
والمصير .

كل الثعابين فتية بالنسبة للافعوان الكبير ، حتى وان كانت اكبر منه

سنا . وعندما يستدع احدها الى ذلك النشيد دون ان يرفع رأسه فلا بد ان يتجرع الموت بتهمة الخيانة .

ولذا ارتعب «الاحول» الذى لم يكن قد غدا «احول» بعد ، عندما سمع صوت الافعوان الكبير ، فقد كان فى غيبوبة ولم يستطع ان يرفع رأسه اثناء تلاوة النشيد .

وفى الحقيقة ما كان هناك مبرر للخوف والهلع . فان عادة رفع الرأس عند سماع كلمات النشيد قوية لدرجة جعلته يرفع رأسه حتى فى حالة الغيبوبة ، ولذا فعل ذلك تلقائيا مع جميع الثعابين حالما سمع النشيد .

وبناء على اقتراح من الافعوان الكبير اخذت الثعابين تناقش موضوع انقاذ رفيقها المنحوس . اقترح عليه احدهم ان يزحف على قمة اعلى شجرة ويلقى بنفسه على الارض من هناك ليسحق الارنب الوقح .

– كيف تقترحون علىّ ذلك يا اخوتى – توسل اليهم «الاحول» – لن اتمكن من الزحف الآن . . . وحتى اذا زحفت الى القمة سأسقط ليس من جهة الموضع المطلوب فانا غير محظوظ . . .

– صحيح . لن يتمكن من الزحف الى هناك – قال الافعوان الكبير – هل من اقتراحات اخرى ؟ – اليس الافضل تفيز الارنب بالسلامة ؟ – قال احد الثعابين متهيبا . وغرق الافعوان الكبير فى التامل والتفكير ثم قال – هذا مخرج جيد من ناحية ، ولكن فم الثعبان ، من ناحية اخرى ، مدخل وليس مخرجا . . .

– لن نتركه ينجو بجلده – تجرأ ذاك الذى طرح هذا الاقتراح الغريب – حالما يخرج من هناك نجهز عليه .

– الافضل ان التهم قنفذا بدلا من هذا الارنب المسعور – قال الثعبان المتعود على رؤية كل الامور بمنظار اسود .

– هدوءا – حذرهم الافعوان الكبير – فليكن فحيحكم همسا ، ولا تنسوا ان العدو فى داخلنا . . . فى داخل احدنا على اية حال . . . لم ار طول حياتى ، وقد بلغت من العمر والحمد لله مائتى عام ، سوى حالة واحدة قفز فيها ارنب من فم ثعبان .

– حدثنا ، لم نسمع بذلك ابدا – توسلت اليه الثعابين .

– يا اخوتى – ارتفع انين «الاحول» – بتوا فى المسألة سريعا ، فلم اعد اطيق صبرا .

– تمهل – اجابه الافعوان الكبير – اعطنى فرصة التحدث الى

شعبى . . . حدث ذلك فى العصر الذهبى عندما انتشرت بين الثعابين لعبة تسمى «ارنب على ارنب حتى الارنب التالى» .

– ما تلك اللعبة ؟ – صاحب الثعابين – حدثنا عنها .

– يا اخوتى – توسل اليهم «الاحول» من جديد ، لكن احدا لم يعد يستمع اليه . فاذا اخذ الافعوان الكبير يتحدث عن ذكرياته عما حدث فى سالف الزمان لن يتمكن احد من ايقافه عادة .

والحال فقد كانت هذه اللعبة منتشرة فعلا بين الثعابين فى سالف الزمان . احد الثعابين يلتهم ارنبا ويبحث عن ثعبان آخر التهم ارنبا ايضا ويقترح عليه :

– هل تلعب : ارنبا على ارنب حتى الارنب التالى ؟

– طيب – يقول الثعبان الآخر اذا كان موافقا على اللعبة .

واللعبة كالآتى : يرقد اللاعبان جنبا الى جنب ، وباشارة من ثعبان ثالث ، هو الحكم ، يبدأ الارنبان فى التسابق ركضا داخل الثعبانين الراقدين من الذنب حتى الرأس وبالعكس . ومن يركض ارنبه اسرع هو الغالب . سباق الارنبين داخل الثعبانين واضح للعيان ، لان ظهر الثعبان يتلوى متموجا وفقا لسير الارنب . ومما يبعث على المرح والتسلية ان سباق الارنبين يبدأ لان الحكم نفسه يغير نامة صوته ويصيح بهما :

– اركضا يا ارنبان ، فالثعبان قادم .

وبعد هذه الصيحة يشرع الارنبان فى ركض مهووس داخل بطنى الثعبانين ، لانهما يستفيقان من التنويم ولا يتذكران ابدا ما حدث لهما قبل ذلك فهما يظنان انهما وقعا فى جحر غريب يجب العثور على مخرج منه .

ويفوز الثعبان الذى يغدو ارنبه اكثر مهارة وسرعة ، والجائزة هى ارنب ثالث يجب ان يعثر عليه الثعبان المغلوب وينومه ثم يتنحى جانبا بتواضع ويفسح المجال للغالب كى يبتلعه . وتلك لعبة هى عذاب الجحيم بعينه . فبعد الاخفاق مرتين او ثلاثا لا يتحمل الثعبان الارهاق فيصاب بمرض الاعصاب .

ويقول الافعوان الكبير ان لهذه اللعبة خاصية متميزة : فكلما ازداد فوز الثعبان تمددت عضلات بطنه وكلما ازداد تمدد تلك العضلات سهل على الارنب التالى الركض فيها ، وبذا تزداد فرص الفوز لدى الثعبان المذكور . وكان بين الثعابين بطل سجل رقما قياسيا . فقد قوى عضلات بطنه ومددها حتى ارغم عنزا على الركض فى داخله .

– يا صاحب الجلالة الملك – قال ثعبان ابتر قصير القامة وهو يقاطع الافعوان الكبير .

كان الثعبان «الابتر» مشهورا بين اقرانه بشدة فضوله وحبه للمعرفة حتى صار يلتهم الموز بدلا من الارانب ويدعى بوقاحة انه لذيذ ايضا . ومن حسن الحظ ان احدا من الثعابين لم يقتد بهذا الثعبان المتحرر . فالابتر على اية حال ممقوت لا يطيقه الافعوان الكبير بسبب تفسخه الخلقي .

– يا صاحب الجلالة الملك – سأل «الابتر» – ماذا لو لعبت انا القصير مع ثعبان طويل مثلا ؟ فالارنب في بطني يقطع المسافة من الرأس حتى الذنب باسرع من الارنب الآخر . اليس كذلك ؟

– لعنك الله يا «ابتر» – فح الافعوان الكبير – طول عمرك تبرز نفسك على الآخرين . . . هل تتصور ان الثعابين في قديم الزمان كانت اغبى منك ؟ اذا كان احد الثعابين اطول فانهم يقلبونه ويطوونه لنفس المسافة الزائدة .

وانفعلت الثعابين مبتهجة ، فقد اعجبها حديث الملك وشروط تلك اللعبة القديمة العادلة لحد مدهش .

– يعيش الملك ! تعيش ذاكرته العجيبة ! – هتفت الثعابين – نريد ان نلعب هذه اللعبة الرائعة .

– ليس ذلك بالامكان مع الاسف – قال الافعوان الكبير مكتئبا عندما حل الهدوء .

– لماذا ؟ ! – اخذت الثعابين تتوسل اليه مستكينة – انت تقيدنا طول الوقت . لكننا نريد نحن ايضا ان تتراكض الارانب في داخلنا .

– ذلك لان مصيبة عظمى حلت آنذاك – قال الملك – وبعدها دعت الحاجة الى تقييد حرية تنقل الارانب في بطون الافاعي .

– كالعادة – دمدم الثعبان الذي تعود على رؤية كل الامور بمنظار اسود – يقيدون حرية الارانب وتعاني من ذلك الثعابين .

– القضية . . . – واصل الافعوان الكبير كلامه – ان ارنبا قفز فجأة من فم ثعبان وفر الى الغابة اثناء اللعب ، ولا احد يدري هل فتح الثعبان فمه عريضا اكثر من اللازم ام ان ارنبه تنقع في رغو العرق .

– عجيب . – هتفت عدة ثعابين بصوت واحد .

– دنيء ، سافل . – فحت ثعابين اخرى وهزت رؤوسها .

– شيء عجيب ، لكنه واقع – واصل الافعوان الكبير حديثه – كانت

تلك احلك الايام في تاريخنا . فليس واضحا ما سيقوله الارنب الهارب عن بنيتنا الداخلية ، وكيف ستفهم اقواله سائر الارانب . بديهي ان اجراءات اتخذت للقبض عليه ، واعلن عن جائزة لمن يقبض عليه ، لكن الفساد تسرب الى صفوف الثعابين . فبعد حين من الزمن اخذت تتوارد انباء تقول ان هذا الثعبان او ذاك قبض على الارنب المجرم وهضمه . وطالما كان الارنب الهارب واحدا لا غير والانباء عن ابتلاعه متعددة فقد تعذر التصديق بامكان القبض عليه . لكن الهدوء عاد الينا بالتدريج فيما بعد . وعلى اية حال لم تلاحظ مقاومة منظمة من جانب الارانب . ولا يستبعد ان يكون الارنب الهارب قد وقع في يد ثعبان متواضع من ثعابين الاطراف ، فالتهمه دون ان يطالب بالجائزة ، بل ودون ان يعلم بقيمة ما التهم . وبعد حين من الوقت اعدمنا الثعبان المغفل ، فسارت الحياة في مجراها الطبيعي . صحيح ان هذه اللعبة الخطرة جدا قد منعت ، كما منعت اطالة عمر الارانب بشكل غير طبيعي داخل الثعابين . فطالما ابتلعت ارنبا تفضل واهضمه ولا موجب للمجاملات . . .

لاذ الافعوان الكبير بالصمت متذكرا الملابسات الرائعة لاعدام الثعبان المغفل . وكان يريد لاحد ما ان يسأله عن هذا الاعدام ، لكن احدا من الثعابين لم يسأل عنه ، وعند ذاك همس لمعاون من حاشيته بان يستحث ثعبانا من العامة كي يسأل عن الموضوع . وجاء السؤال اخيرا :

– تستفسر مجموعة من الثعابين عن الكيفية التي جرى فيها اعدام الثعبان المغفل . فكيف حدث ؟

– هذا سؤال معتبر – اومأ الافعوان الكبير براسه – كان ذلك مشهدا رائعا . . . لقد الغينا الاعدام الآن ، واقول صراحة اننا لم نفعل حسنا . على اية حال اعدم بشكل يجعله يعتاش على نفسه . حرم من الطعام في غضون شهرين ، وبعد ذلك دسوا ذنبه في فمه . يصعب على المرء ان يتصور شيئا اكثر موعظة من ذلك . فالثعبان ، من جهة ، يدرك ان هذا هو ذنبه وليس هينا عليه ان يبتلعه ، ومن جهة اخرى فهو ، كثعبان ، لا بد ان يبتلع ما يقع في فمه . من جهة يبيد نفسه بالتهام بدنه ، ومن جهة اخرى يطيل امد آلامه بالاعتياش على نفسه . وفي آخر المطاف لم يبق منه تقريبا سوى راسه الذي نقرته النسور والغربان .

– مشهد رهيب للغاية . – هتفت بعض الثعابين . وراح بعضها الآخر يلقي نظرة صامتة على الاذناب .

– جاءتنا شغلة جديدة وكان هومنا قليلة – قال الثعبان الذي

تعود على رؤية الامور بمنظار اسود – سالتوى الآن فى حلقات واشغل بالى بالتفكير فى احتمال وقوع ذنبى فى فمى صدفة .

– والمهم – قال الافعوان الكبير – من ذلك الحين لم يفلت اى ثعبان ارنبا من فمه .

– هذا تصرف همجى مع ذلك – هتف «الابتر» فجأة دون ان يبرز كثيرا من وراء الصفوف الابعد .

وما كادت الثعابين تتفوه بكلمة بخصوص هذا التهجم الفظ حتى سمعت شيئا لم تسمع بمثله اطلاقا .

– حقير . – دوى فجأة صوت واضح لا لبس فيه .

اخذت الثعابين تنظر الى بعضها البعض بارتياب فى محاولة لمعرفة هوية ذاك الذى اطلق هذه الكلمة البذيئة المهينة .

ذعر «الاحول» الذى نسيه الجميع ، فقد احس ان هذا الصوت صدر عن الارنب الذى ابتلعه بشكل غير موفق . وهو يعلم بانه يتحمل المسؤولية كاملة عن سلوك ارنبه ، ولذا ارتعب اشد الرعب .

ومع ذلك راح يجول ببصره بحثا عمن اهان الملك ، طالما لم تدرك الثعابين بعد مصدر الصيحة .

– من قال «حقراء» ؟ – فح الافعوان الكبير بصوت نظيع وهو يحدق فى صفوف ثعابينه التى خبأت رؤوسها فى العشب بارتباك . – انت ، يا «ابتر» ؟

– كلا . انا تكلمت عن التصرف الهمجى فقط – اكد «الابتر» بمكر ودهاء – لكننى لم انطق بكلمة «حقير» .

تعمد الافعوان الكبير فى استخدام هذه الكلمة المهينة بصيغة الجمع لتنسب الى كثير من الثعابين ولا تمسه الا من بعيد بشكل كسر او جزء من الاهانة بعد ان تتوزع على الحاضرين . فقد خيل اليه ان مثل هذا الكسر اقل اهانة . مع ان هناك شلة او جماعة تنطوى على كمية من الحقارة اكثر بكثير من الكمية اللازمة لاداء معدل الحقارة من قبل كل فرد من افراد تلك الجماعة ، اى ان كل حقير من هذه الجماعة يمكن ان يتلقى حصة ونصف حصة من الحقارة اذا اصر افراد الجماعة على التعبير الرياضى عن نصيبهم منها .

وبالمناسبة فان السكان الاصليين تبنوا فيما بعد عادة الثعابين هذه فى اضفاء مغزى موسع على الاهانة حتى يستروا حصتهم من الدناءة اذا

كانت القضية متعلقة بالدنىء او حصتهم من الحقارة اذا كانت القضية متعلقة بالحقير كما فى الحالة التى نحن بصددها .

وهكذا اعاد «الابتر» الى الاذهان ما قاله هو بالذات ، واشار الى صيغة المفرد التى وردت بها الاهانة على لسان المهين المجهول . كيلا يتركز الانتباه على هذه التفاصيل الممقوتة لم يتحرش الافعوان الكبير «بالابتر» واكتفى بان فح فى جهته قائلا :

– يا ويلك يا «ابتر» سامزقك شذر مذر .

– حقير . – قال الارنب ثانية من بطن «الاحول» .

– اسكت ، ارجوك – توسل اليه «الاحول» وار تعدت فرائصه .

– هل انا موجود هنا لاسكت ؟ – قال الارنب بصوت مرتفع .

سلطت الثعابين انظارها الحائرة على «الاحول» تتفحصه من كل الجهات دون ان تفهم اطلاقا كيف يتجرأ هذا الخائب على الكلام بمثل هذه الوقاحة قبيل الممات . كل الثعابين استمعت ببالغ الاهتمام الى حكاية الافعوان الكبير حتى نسيت الارنب النشيط الحى القابع فى بطن «الاحول» .

– يعنى انك انت الذى تجرات ؟ – فح الافعوان الكبير اخيرا وهو يخاطب «الاحول» الذى لم يكن قد صار «احول» بعد مع انه اقترب كثيرا من اللحظة التى كان سيفقد فيها احدى عينيه .

– كلا ، لست انا ، وانما ما فى داخلى – تفوه «الاحول» مرتعبا .

– ازدواج الشخصية ؟ ! – افترض الافعوان الكبير ممتعضا . فهذا المرض يعتبر بين الثعابين شائنا معيبا .

– يا صاحب الجلالة – توسل اليه «الاحول» – اولعت كالعادة بالماضى العظيم ونسيت الارنب الذى فى بطنى . . .

– ثم ماذا ؟ – قاطعه الافعوان الكبير – فى بطنى ايضا ارنب ، بل ارانب . . .

فى تلك الاثناء مال عليه احد اعوانه وهمس فى اذنه ليخبره بما حدث .

– آ ، نعم – تذكر الملك – يعنى انه هو الذى نعتنا جميعا بالحقراء ؟

– نعم ، انا – هتف الارنب الجرىء من داخل الثعبان الذى تجمد هلعا – انت احقر الحقراء من رعيتك ، بل انت بليد .

– انا حقير ؟ – كرر الافعوان الكبير وقد اسقط فى يده من شدة الغضب .

– نعم ، انت حقير . – صاح الارنب الجرىء فرحا .

– وانا بليد ؟ ! – كرر الافعوان الكبير دون ان يصدق ما سمع .

– نعم ، انت بليد . – صاح الارنب بزهو ، وكان صوته هذه المرة واضحا بخاصة ، لان الثعبان المسكين فغر فاه من الهلع وظل على تلك الوضعية .

خيم سكون مريب وظلت نظرة الافعوان الكبير مستقرة على «الاحول» . ثم قال بصوت رهيب :

– غدا بطنك منبـــرا للارانب ، لكنك ستتلقى جـزاءك على ذلك يا مشوه زرى .

– ارحمنى ، يا مليكى – توسل اليه «الاحول» المسكين .

– لست مليكك – اجاب الافعوان الكبير بقسوة – والثعبان الذى يتكلم ارنب فى داخله ليس من الثعابين التى نحن بحاجة اليها .

– كلا ، بالطبع – فحت الثعابين .

– ولذا – واصل الافعوان الكبير كلامه وضبط اعصابـه اخيرا – خذوه الى جادة الفيلة وشدوا وثاقـــه هناك حتى تمسح الفيلة الارض بالارنب الوقح اذا كان هذا المشوه عاجزا عن سحقه بنفسه .

القى حراس الافعوان الكبير القبض على «الاحول» وسحبوه نحو جادة الفيلة . وطول الطريق ظل الارنب يصيح من بطنه بلا كلل .

– يا ارانب – كان يصيح – سمعت بارنب فر من بطن الثعبان . الملك نفسه حكى حكايته . قاوموا الثعابين ، حتى فى بطونها مثلمـــا افعل .

– اسحبوه بسرعة . – امر الافعـــوان الكبير ، فقد استـــاء اشد الاستياء من فضح سر العشيرة . واجاب الحراس :

– نبذل جهدنا ، لكنه يمانع .

– يا اخوتى – همس لهم «الاحول» فى تلك الاثناء – اشفقوا على ، فالفيلة ستدوسنى انا والارنب .

– لسنا اخوتك ، الارانب اخوتك – اجاب الحراس وهم يسحبونـه الى اعماق الادغال .

– يا ارانب – ظل صوت الارنب الجرىء يتعالى – فر ارنب من فـم الثعبان . الملك نفسه تحدث عن ذلك .

– ها – ها – اطلق «الابتر» فجأة قهقهة ماكرة – يطالبنا بالفحيح همسا ، بينما افشى هو نفسه سر العشيرة .

– ما اقبحك – رد عليه الافعوان الكبير كيلا يدخل فى جدال معه – انت قرد تقتات على الموز .

– وهل القردة اسوأ منك ؟ – زعق السعدان مشرئبا من قنة شجرة الجوز الكثيفة . – حالما يحدث شىء يلومون القرود .

وما ان رفع الافعوان الكبير راسه حتى نط السعدان مختبئا فى القنة الخضراء وراح يكسر الجوز ويلقـــى الى تحت بقشور غاضبة بين حين وآخر .

العلاقات معقدة بين القردة والثعابين . فالاعراف تسمـح للثعابين باقتيات القردة ، ولكن ذلك غير مستساغ طالمـا القردة مكسوة بشعر كثيف ولحمها ليس لذيذا تماما .

اعرب الافعوان الكبير نفسه عن وجهـــة النظر هذه اكثر من مرة . وللقردة ، من جهة ، مصلحة فى الراى القائل بان لحمهـــا غير لذيذ ، ولكنها ، من جهة اخرى ، تمتعض بشدة من اى تلميح الى نواقصهـا . ولذا عاشت دون ان تنخرط فى السياسة بالكامل ، واكتفت بالتذمر من بعض اهانات الثعابين ، لكنها فى الوقت ذاته سعت الى الحفاظ على وجهة النظر السائدة بين الثعابين والقائلة بان لحوم القردة ليست لذيذة .

– احكى لكم احجية – قال الافعوان الكبير ، فقد عزم على تبديد الانطباع الذى خلفتـــه صيحات الارنب الوقح – وهى نكتة فى الوقت ذاته . . . اى ارنب يمكن ان يصبح ثعبانا ؟

راحت الثعابين تفكر . تصور بعضها ان الملك يبحث ، من خلال هذه الاحجية ، عن الخونة الذين يحتمل ان يتواجدوا بين الثعابين ، ولذا قرر هذا البعض ان يلـوذ بالصمت تحوطا للطوارىء . واعرب البعض الآخر عن افتراضات اقرب الى الحقيقـة ، لكن احدا منهـــم لم يحزر الجواب الصحيح .

– نريد الجواب ، اعطنا الجواب – هتفت الثعابين ، فقال الافعوان الكبير :

– طيب . اليكـــ[illegible] الجواب : الارنب الذى يبتلعه الثعبان يمكن ان يصبح ثعبانا .

– كيف ؟ – تساءلت الثعابين .

– الارنب الذى يهضمه الثعبان يتحول الى ثعبان . وهذا يعنى ان

الثعابين هى ارانب فى اعلى مرحلة من تطورها ، وبعبارة اخرى نحن هى سابقا ، وهى نحن لاحقا .

– ها – ها – ها – ضحكت الثعابين لنكتة الافعوان الكبير – نحن هى سابقا ، ما اروع هذا التعبير .

– وفقا للعلوم . – اضاف الافعوان الكبير بتواضع وكأنه يبعد عن نفسه نظرات الثعابين المعجبة به شخصيا اشد الاعجاب .

– الافعوان الكبير عظيم حقا – قالت الثعابين وهى تتفرق زاحفة وتتذكر بارتياح النكتة الحكيمة التى اطلقها الملك . ويسرها ان تشعر بانها عندما تبتلع الارانب لا تتمتع فقط بابدانها الرقيقة ولحمها اللذيذ ، بل وتحول الارانب وترفعها الى مستوى الثعابين .

ولكن ماذا حدث ، يا ترى ، فى جادة الفيلة ؟

«الاحول» نفسه لا يتذكر الا القليل فى الواقع . يتذكر ان الحراس ظلوا ممسكين به حتى اقتربت الفيلة . وكان الارنب فى داخله يصيح طول الوقت ويدعو الى مكافحة الثعابين حتى من داخل بطونها .

ولا يتذكر «الاحول» هل تمكن الارنب ان يفر من بطنه عندما اخذت الفيلة تدوسهما ، فقد اغمى عليه قبل ان يطأه اول فيل .

بعد اسبوعين ، فى موسم الامطار الغزيرة عاد الى رشده ووجد نفسه راقدا على مقربة من جادة الفيلة . ولعل خرطوما متقززا رماه الى هناك .

بدنه مسحوق فى عدة مواضع ، وعينه عوراء ، مع انه لا يستطيع ان يجزم هل فقأ عينه احد الفيلة صدفة ، ام ان طيرا نقر تلك العين فيما بعد عندما كان فى غيبوبة . وكانت هذه المسألة تشغل بال «الاحول» كثيرا وتحيره مع ان همومه الاخرى لم تكن قليلة . فقد كان يريد لعينه ان تفقأها الفيلة لا ان ينقرها طير خسيس تصوره جثة هامدة .

فقد «الاحول» هدوءه ولم يقر له قرار لفكرته بان الطير نقر عينه مثلما ينقر حبة قمح ، الى ان استولى عليه الجوع وانساه تلك الفكرة . مرت عدة ايام بهذه الصورة ، وفجأة حط عليه غراب اغوته وضعية الرقاد بلا حراك . تمكن ان يتلقف الغراب عندما حط على راسه وهم بان ينقر عينه الوحيدة . ومن ذلك الحين ظل بضعة شهور راقدا بلا حراك ، غارزا عينه الوحيدة فى السماء . وخلال هذه الفترة تمكن ان يصطاد عدة نسور وغربان اغواها بدنه المسجى كالجثة الهامدة .

بهذه الصورة ظل «الاحول» على قيد الحياة ، فادهش الثعابين

اللامبالية واثار سخط الافعوان الكبير . لم يمسه ابناء جلدته بسوء ، لكنهم استخفوا به واحتقروه ، لانهم ، كما قال الملك ، ليسوا بحاجة الى ثعبان يتكلم الارنب من بطنه .

اراد «الاحول» المسكين ان يتفرع بكون الارانب تتكلم احيانا فى بطون ثعابين اخرى ، ولكن ذلك لم يجده نفعا . فهم يردون عليه قائلين :

– الحال تختلف . ذلك هذيان التنويم ، اما ارنبك فقد تكلم بوعى وادراك .

وبالمناسبة فقد نسينا ان نشير الى القانون الذى استحدث منذ ان فر احد الارانب من فم الثعبان وهو ينص على لزوم هضم الارانب فور ابتلاعها . وهذا القانون فى الواقع يتوقف على ضمير الثعابين وحسن ادبهم ، فمن المتعذر التاكد من الشروع فورا فى هضم الارنب او اطالة امد التلذذ به باطالة عمره .

باختصار صارت الثعابين ، بعد كل ما حدث ، تتحاشى «الاحول» ، ولا تمسه بسوء ، ولا تتكلم معه تقريبا . وهو يتالم بسبب ذلك ، فلدى كل كائن حى رغبة شديدة فى التخاطب مع ابناء جلدته .

ولذا راح «الاحول» يحدث الثعبان الصغير الراقد جنبه الآن ويحكى له بصراحة قصة حياته الكئيبة بكاملها . ولعل الشىء الوحيد الذى اخفاه على الثعبان الفتى هو انه حتى الآن يتظاهر بالموت احيانا فيصطاد الغربان لان من الصعب عليه مطاردة الارانب بعين واحدة ، والتنويم يخفق فى بعض الاحيان .

– بالمناسبة – سأل الثعبان الصغير – كيف تتصيد بعين واحدة ؟

– ما العمل ؟ – تنهد «الاحول» – اضطر الى التنويم بصفحة الوجه ، فالعين تتعب .

– انا اسمع كل شىء – دوى صوت الارنب فجأة .

فارتعدت اوصال «الاحول» وتجمد من الهلع .

– ماذا ؟ – سأل بصوت متهدج مرتعش – الا تزال حيا كل هذه المدة ؟ هل ابتلعتك من جديد ؟

– كلا – صحح الثعبان الصغير قوله – هذا ارنب حى يتكلم من وراء الشجيرات .

– اوف . . . – تنهد «الاحول» – خيل الىّ انه ذاك .

– ولكن ماذا سمعت ؟ – سأل الثعبان الصغير وهو يبص فى الشجيرات محاولا ان يرى الارنب هناك .

– انا اراقب الثعابين من زمان – قال الارنب من وراء الشجيرات – لقد اكدتما ان اسطورة الارنب الجرىّ ليست اسطورة بل واقعا . وهذا يجعلنى مرة اخرى واثقا من صحة بعض تخميناتى . فانا اعلم الآن علم اليقين ان التنويم هو خوفنا منكم ، وان خوفنا هو الذى يهيئ لكم امكانية التنويم .

– انتهزت فرصة كوننا شبعانين الآن ، اليس كذلك ؟ – قال «الاحول» وهو ينصت الى ما فى بطنه .

– كلا – اجاب الارنب – تلك ثمرة التأملات الطويلة والدراسات العلمية الصارمة .

– فلماذا تتسمع اذا كنت ذكيا الى هذا الحد ؟ – سأله «الاحول» – ام انك لا تعرف بان الانصات سرا امر غير نزيه ؟

– فكرت طويلا فى ذلك ايضا – اجاب الارنب دون ان يخرج راسه من الشجيرات – الانصات فى كل الاحوال دناءة . اعرف ذلك ، حتى اذا اشتبهت بجريمة احد لا يجوز الانصات سرا الى كلامه مع الآخرين . لان الشبهات يمكن الا تثبت ، كما ان هذه الطريقة يمكن ان تترسخ . ثم ان كل من يتنصت قد يقول : «اشتبهت بارتكابه جريمة» . الا از الانصات جائز ، بل ولازم عندما تكون واثقا مائة فى المائة بان الذى امامك مجرم . لكنكم انتم الثعابين قتلة : اما انكم اقترفتم جريمة القتل واما تستعدون لاقترافها . وبالتالى فكلما ازدادت معارفنا عنكم كان ذلك خيرا للارانب الاحياء .

– اعتقد انى سمعت بك مرة – راح الثعبان الفتى يتذكر – الست «المتأمل» ؟

– نعم ، – اجاب الارنب .

– تعال اذا كنت المتأمل حقا – قال له الثعبان الصغير وشعر بانه ربما استطاع ان يلتهم ارنبا ثانيا .

– كلا – اجاب الارنب – لا يحق لى ان اجازف بحياتى الآن . – فرغم عدم وجود التنويم ، يمكنك ان تلدغنى .

– شكرا لك على معروفك – قال «الاحول» فى محاولة لاضفاء صبغة من المرح الخفيف على هذه القصة كلها . فقد تفوه الارنب مع ذلك بكثير مما لا يجوز لاذان الارانب ان تسمعه فى اعراف الثعابين . رائحة

المخاطر الجديدة تفوح من هذه الاقوال . زد على ذلك ان «المتأمل» لم يخرج من وراء الشجيرات التى تناهى حفيفها دليلا على ان هذا الاخير توجه الى اعماق الادغال .

– لمَ لا تخرج الينا ؟ – سأل «الاحول» بمزيد من الاكتئاب .

– اريد لكم ان تروا فى كل ارنب «متأملا» . – صاح الارنب وذاب صوته فى حفيف الادغال .

ضاقت الصخرة المكسوة بالطحالب ولم يعد الرقاد عليها مريحا . فكر كلا الثعبانين ان الافضل ان يتخلصا من بعضهما البعض لان الواحد منهما شاهد خطير على الآخر ، لكنهما لم يصمما على الهجوم . الثعبان الفتى يخشى من قلة خبرته ، والثعبان العجوز يخشى من قلة قوته .

– ما حصل لا تحمد عقباه – فح الثعبان الفتى – يجدر بى ، على ما اعتقد ، ان ابلغ الافعوان الكبير بما افشيته من اسرار .

– لا داعى لذلك ارجوك – توسل اليه «الاحول» – فانت تعرف انه حاقد على . . .

– واذا اكتشفوا امرنا ؟ – اعترض عليه الثعبان الصغير .

– نأمل الا يكتشفوا – اجاب «الاحول» .

– انت لا ضير عليك – قال الثعبان الصغير – فقد عشت حياتك ، اما انا فلا ازال فى مقتبل العمر . . . كلا ، ينبغى على ان ابلغ . . .

– سيلحقك ضرر انت ايضا .

– لماذا ؟

– طالما بدأت افشى الاسرار فعليك ان تردعنى – ذكره «الاحول» بالعادات القديمة المتعارف عليها بين الثعابين .

حقا ، فكر الثعبان الفتى ، هذا ما تقول به الاعراف المتبعة ، فتحير وارتبك دون ان يفهم ما الذى ينفعه اكثر : هل يشى بصاحبه ام لا ؟

– واذا اكتشفوا امرنا ؟ – قال متأملا – طيب ، سالتزم الصمت . . . وماذا ستعطينى مقابل صمتى ؟

– ما عساى ان اعطيك ؟ – تنهد «الاحول» – انا عجوز معوق . . . ولكن خذ بنصيحتى : اذا واجهت صعوبة فى اغواء الارانب تظاهر بانك ميت ولا بد ان يحط غراب على راسك عاجلا ام آجلا . . .

– وما حاجتى الى غرابك ؟ – قال الثعبان الصغير ممتعضا – انا ، والحمد لله ، احصل على الارانب بانتظام .

– لا تقل هذا الكلام – اجاب «الاحول» – فالحياة متقلبة . . .

– لحمه جاسيٌ ، اليس كذلك ؟ – سأل الثعبان الصغير على غير انتظار .

– جاسيٌ بعض الشيء – وافقه «الاحول» – ولكنه افضل من العدم في وقت الضيق .

– واذا اكتشفوا امرنا ؟ – ارتاب الثعبان الصغير من جديد ، ثم اضاف زاحفا من الصخرة التي كانا راقدين عليها : – طيب ، لن اشي بك . . . كان الافضل لو لم اصادفك . . . الافعوان الكبير محق الف مرة عندما قال اننا لسنا بحاجة الى ثعبان يتكلم الارنب من داخله .

ابتعد الثعبان الصغير عن «الاحول» زاحفا دون ان يعرف على وجه التحديد ما الانفع له : ان يشي برفيقه ام لا ، وبسبب صغر سنه لم يكن يفهم ان الذي يفكر ويتردد في الوشاية برفيقه لا بد وان يشي به في آخر المطاف ، لان كل فكرة تتوق الى تحقيق الامكانيات الكامنة فيها .

ما اتعس الحياة ، فكر «الاحول» مكتئبا ، لو داستني الفيلة آنذاك حتى الموت لكان ذلك افضل من العيش باحتقار وخوف من ابناء جلدتي .

فكر «الاحول» بهذه الصورة ، لكنه في قرارة نفسه (المتواجدة في اعماق بطنه) احس بانه ليس راغبا في مفارقة الحياة . فما اروع الرقاد على الصخرة الدافئة المكسوة بالطحالب وما الذ اشعة الشمس التي تداعب جلده القديم المصاب بالروماتزم ، ثم ان هضم الارانب – وما الداعي لاخفاء الحقيقة ؟ – لا يزال يبعث في نفسه الارتياح .

في ذلك اليوم ، عندما تعلقت الشمس فوق الادغال على ارتفاع شجرة باوباب فارعة او شجرة شربين قميئة ، عقد اجتماع طارئ للارانب في الساحة الملوكية امام مدخل البلاط .

جلس الملك نفسه على مرتفع جنب عقيلته الملكة ، ترفرف فوقهما راية الارانب وعليها شعار الدولة : القرنبيط .

قماش الراية عبارة عن ورقة موز كبيرة عليها راس قرنبيط معمول من الزهور الاستوائية الزاهية وملصوق على الراية بصمغ الصنوبر .

وفي الحقيقة فان احدا من الارانب البرية لم ير القرنبيط بام العين . صحيح ان اشاعة انتشرت دوما بين الارانب (والحاجة تستدعي تنشيطها احيانا) وهي تقول ان السكان الاصليين احرزوا نجاحات حاسمة بالاشتراك مع العاملين سرا من بين الارانب في مزرعة القرنبيط السرية

وحالما تسفر التجارب الدوشكة على الانتهاء عن امكانية غرس القرنبيط في البساتين تتحول حياة الارانب الى عيد دائم للخصوبة وشبع البطون .

ومن حين لآخر يجرى تعديل طفيف على الزهور في صورة القرنبيط التي على الراية ، وتعتبر الارانب ذلك عملا سحريا يؤديه التاريخ لصالحها بلا كلل ولا توقف . وعندما ترى الارانب تبدلا طفيفا في نقش الزهور تومئ برؤوسها ايماءات ذات دلالة كبيرة وتخرج باستنتاجات متفائلة بعيدة المدى . ولم يكن لافقا الكلام عن ذلك بصوت مسموع ، فالكلام بهذا الخصوص لا يدل على التواضع . وكان الاعتقاد السائد ان هذه السمات الظاهرية لفعل التاريخ الباطني قد تجلت بالصدفة نتيجة لاهمال طيب طفيف من جانب الجهاز الاداري الملكي .

كانت الارانب تعيش حياتها العادية في انتظار ذلك العهد السعيد . فهي ترتع في الادغال والاحراش المحيطة بها وتسرق من بساتين السكان الحمص والفاصوليا والكرنب العادي الذي يغذي مذاقه الطيب احلام الارانب في القرنبيط . وهي تزود بلاط الملك بنفس تلك المحاصيل .

وعندما تسدد عامة الارانب ضريبة البساتين فتدحرج رؤوس الكرنب وتكدسها في المستودع الملوكي يصادف ان يسأل الملك :

– ما مذاق الكرنب اليوم ؟

– طيب – تجيب الارانب دوما وهي تتمطق .

– اسمعوا – يرد عليها الملك – عندما يظهر القرنبيط الاصفر لن ترغبوا في رؤية هذا الكرنب الاخضر .

– يا الهي ، هل يطول بنا العمر حتى ذلك الحين ؟ – ترد الارانب متأوهة متحسرة .

– كونوا على ثقة – يومئ الملك براسه – فنحن نتابع تلك التجارب ونساعد على انجازها . . .

الحلم الكبير بالقرنبيط يساعد الملك على ابقاء عشيرة الارانب في طاعة مرنة لدرجة كافية .

فاذا ظهرت في حياة الارانب ميول لا ترضي الملك او اذا عجز عن قمع تلك الميول بالاساليب العادية فانه يلجأ الى آخر وسيلة محببة لديه ، وهذه الوسيلة ، بالطبع ، هي القرنبيط .

– اجل – كان يقول في مثل هذه الاحوال للارانب التي تبدي ميولا لا ترق له – مظامحكم صائبة ، لكنها سابقة للاوان ، لاننا الآن بالذات ، حيث تشرف تجارب زراعة القرنبيط على الانتهاء . . .

واذا عاند ارنب ما واصر على مطامحه فهو يختفى فجأة ، وعند ذاك تفهم الارانب الاخرى بانه جند للعمل السرى فى المزرعة السرية . وكان ذلك فى طبيعـــة الامور ، فالمطامـــح تبدر عن اذكى الارانب ، وهذه الارانب الاذكى ضرورية بالطبع ، وبالدرجة الاولى ، للعمل فى استنبات القرنبيط .

واذا شرعت عائلة الارنب الفقيد تستفسر عنه يلمحون لها ان ابنها موجود الآن «بعيدا ، فى الربوع التى يزدهر فيها القرنبيط» .

واذا اصرت عائلة الارنب الفقيد على الاستفسار فانهـــا هى ايضا تختفى ، وعند ذاك تقول الارانب :

– يبدو انه غدا هناك عالمـا كبيرا ، والا لما سمحوا لعائلتـــه بزيارته . . .

وتتناوه زوجات الارانب الاخريات :

– محظوظون .

لم تتبادر الى اذهان عامة الارانب تصورات مريبة ، فالقوانين النباتية فى المملكة تعاقب المذنبين بتعليقهم من آذانهم ولا تجيز الاعدام .

وهكذا ، ففى ذلك النهار الذى مال الى المغيب جلس الملك والملكة على مرتفع فى الساحة الملوكية ، وكانت راية القرنبيط ترفرف برفـق فوقهما .

وفى مرتبة اوطا جلست ارانب الحاشية والبلاط المقربة الى مائدة الملك وفى مرتبة اوطا منها الارانب الطموحة الى المائدة ، وبعدها تاتى عامة الارانب جلوسا او وقوفا فى الساحة .

كان واضحا ان اجتمـــاع الارانب الطارىء عقد بسبب النبأ الطارىء الذى جاء به «المتأمل» .

– خوفنا منهم هو التنويم . والتنويم عندهم هو خوفنا . – كررت عامة الارانب وهى تدارى هذه الفكرة المغرية .

– ما اكثر الجسارة فى طرح المسالة بهذه الصورة – هتف بعض الارانب .

– والافكار تتوالى الواحدة فى اثر الاخرى مثل حبات الفاصوليا فى اصابعها – هتف البعض الآخر .

– ماذا سيحدث يا ارانب . – قال البعض الثالث الذى ابتهـــج لاكتشاف «المتأمل» الى حد الرعب .

الا ان زوجة «المتأمل» الواقفة وسط الجمهور المبتهج كانت تكرر بين الفينة والفينة :

– لماذا يتوجب على زوجى ان يفضح التعابين ؟ اين الحكماء والعلماء المقربون الى الملك ؟ وما نفعنا من ذلك ؟ فالثعابين ستثـــأر منى ومن اطفالى بسبب ما افشاه زوجى من اسرار .

– المفروض ان تفتخرى به يا حمقاء – قالت لها الارانب الاخرى – فهو ارنب عظيم . – كفاكم هذرا – كانت زوجة الارنب تجيب – فانـــا اعرف «عظمتـــه» . شاب شعره ولا يفرق حتى الآن بين ورقة الحمص وورقة الفاصوليا .

الا ان ملك الارانب لم يعجب بالنبأ الذى جاء به «المتأمل» . فهو نبأ لا يبشره بأى خير . ولما كان الملك محنكا ضليعا فى معرفة ميول الجموع لم يقف فى وجه البهجة العارمة التى عمت الجميع فتركهم يتمتعون بها كاملة . وهو يعرف ان بهجة الجموع ، ايا كانت ، انما لهـــا ذروة حالما تبلغها تنحسر وتتضاءل ، وعند ذاك يمكنه ان يبدى شكوكه .

فعندما يبدا شخص ما ، وخصوصا الجمهور ، فى الابتهاج فهو لا يعرف بان البهجة ، ايا كانت ، لا بد وان تنحسر آجلا ام عاجلا . وعندما تبدا البهجة بالتقلص والانحســـار يشعر المبتهج بنضوب معين بهجته فيميل الى القاء اللوم على باعث الابتهاج لانه لم يحوله الى معين لا ينضب .

ولكن اذا اعترض احد على موضوع الابتهاج واتخذ منه موقفا انتقاديا يشوش البهجـة العامة فان غضبـــة المبتهجين تلاحقه بمنتهى الشدة . فالمبتهجون يتصورون ان بهجتهم ذات معين لا ينضب ، وهذا الحسود الدوتور شوش عليهم البهجة عمدا .

ملك الارانب يعرف ذلك جيدا ، فلاذ بالصمت امدا طويلا . وعندما نضب معين البهجة ولم يبق منه الا ومضات تشـــع على وجوه الجمهور الفرحة هنا وهناك ، لاحظت الارانب ان الملك صامت لسبب ما . ولـــم يكن صامتا فقط . فان محياه يعبر عن صبر حزين امام مشهد كئيب ينم عن ضلال الجميع .

وادركوا جميعا أن الملك يشـــك فى صحـــة رؤيـــة «المتأمل» . ولاحظ المقربون ريبة الملك فاطلقوا صيحات متقطعة ارادوا لها ان تصل بتلك الريبة الى مستوى الاستنكار السافر . وتلقف الطامحون ، بدورهم ، استنكار المقربين وبلغوا به حد الاحتجاج الغاضب على الاشاعات العلمية التى لم يتاكد منها الملك .

اجل ، كان الملك على حق عندما احس بالخطر العظيم فى ثنايا اقوال «المتأمل» . فان نشاط الملك كله يتلخص فى كونه يعمل شخصيا ، مع معاونيـــه من ارانب البلاط ، على تحديد كمية الخوف والحذر اللذين يتوجب على الارانب ان تتحسسها امام الثعابين وفقا لفصول السنة وحالة الطقس فى الادغال وملابسات كثيرة اخرى .

وعلى حين غرة يراد لهذا النظام الادارى المتفنن الذى بنى طـوال السنين ان يتقوض ويتهاوى لان الارانب ، كما يزعمون ، يجب الا تخشى التنويم .

الملك يعرف ان التحكم بحياة الارانب بحكمة وتعقل غير ممكن الا بواسطة الامل فى القرنبيط والخوف من الثعابين . الا ان القرنبيط وحده ليس وسيلة لحكم مديد . والملك يفهم ذلك جيدا ، ولذا استجمع كل ما لديه من حكمة ودهاء والقى كلمة فى الحاضرين :

– يا ارانب – بدا خطبته ببساطة – انا ملك طاعن فى السن ، اعتليت العرش والحمد لله من ثلاثين عاما ، ولم اقع مرة خلال كل هذه الفترة فى فم ثعبان ، فعلام يدل ذلك ؟ . . .

– يدل على ان الطعام ياتيك جاهزا الى القصر – صاح ارنب جرئ من الجمهور .

كان قد حل الظلام فتعذرت رؤيـــة من قال هذا الكلام . واشتاط المقربون غضبا ، واهتاج الطامحون بخاصة ، وانهالوا بتقريع شديد على ذاك الذى تجرأ وصاح من الجموع .

تطلع الملك الى ارانب البلاط وامرها ، بصوت صارم ، ان تسلط على الجمهور عددا كافيا من الفوانيس . وقبل ذلك كانت عدة فقاعـــات منفوخة من الصمغ الشفاف ومملوءة بالحباحب تنير مدخل البلاط والمرتفع الذى يجلس عليه الملك والملكة .

– يا مليكنا – قالت ارانب البلاط هامسة وهـى تنشر الحباحب المنيرة من حافظاتها المصنوعة من جوز الهند لتملأ بها الفوانيس – انت نفسك تعلمنا الاقتصاد والتقتير .

– ولكن ليس على حساب مصالح النظام – اجاب الملك بصوت خافت وراح يجول ببصره فى الجمهور بصمت خلال الفترة التى نصبت فيها ارانب البلاط الفوانيس فى مختلف اطراف الساحة الملوكية – يا ارانب – توجه الملك الى رعيته بخشوع – قبل ان اكشف عن غلطة «المتأمل» اريد ان اطرح عليكم بضعة اسئلة .

– تفضل . – صاحت الارانب .

– يا ارانب . – قال الملك بصوت متهدج – هل تحبون الفاصوليا ؟

– كيف لا ؟ – اجابت الارانب بصوت واحد .

– والحمص الاخضر ، الطازج فور قطافه ؟

– لا تتعرض لهذا الموضوع يا مليكنا – ند عن الارانب انين – لا توقظ الذكريات المعسولة .

– والكرنب الطازج ؟ – دوى صوت الملك دون رحمة – هل تحبون قضم الكرنب المضلع المخشخش ؟

– اوه ، اوه – زعقت الارانب وتنشقت الهواء بصفير – لا تثر شجوننا يا مليكنا ، لا تنثر الملح السكرى على الجراح .

– اذا كان الامر كذلك – واصل الملك خطبتـــه وهو يتطلع الى الارانب التى تجمدت فى وضعية عاطفية وكانها تقضم الفاصوليا الطازجة او اوراق الكرنب المخشخشة – سأتناول اذن اهم فكرة . من منكم يغرس الحمص والكرنب والفاصوليا ؟

خيم لبعض الوقت صمت مشوب بالدهشة .

– ولكن ، يا مليكنا ، السكان يمارسون هذا العمـــل . – صاحت الارانب .

– يعنى ان هذه الاطعمة التى هـــى الافضل حتى الآن (وهـــذا تلميح دقيق الى يوم غد المرتبط بالقرنبيط) انما تعود لهم ، اليس كذلك ؟

– بلى ، هذا منطقى – اجابت الارانب . – ولكن كيف تحصلون على هذه الاطعمة ؟ – واصل الملك كلامه .

– نسرقها – اجابت الارانب متاوهة – افلا تعرف بذلك ؟

– هذه لهجة حادة جدا – قال الملك – الاصح انكـــم تستاثرون بالفائض . . . فانتم تتركون للسكان شيئا من تلك الاطعمـــة ، اليس كذلك ؟

– مضطرين – اجابت الارانب .

– سأتناول الآن اهم فكرة – اعلن الملك .

– لقد تناولت اهم فكرة – صاح احد الارانب من الجمهور .

– كانت تلك الفكرة الاهم الاولى ، وها هى الفكرة الاهم الثانية – اجاب الملك دون ان يرتبك – ما افظع ان تبتلع الثعابين الارانب . هذا ظلم ما بعده ظلم . اليس كذلك ؟

– فعلا – صاحت الارانب – وهذا بالذات ما يقوله «المتأمل» .

– نعم – واصل الملك كلامه – ذلك ظلم بحق الارانب ما بعده ظلم ، ونحن نكافحه بالوسائل المتوفرة لدينا والتى يقوى عليها عقلنا . صحيح اننا ، فى مقابل هذا الظلم الفظيع ، نتمتع بامكانية ضئيلة فيها ظلم ايضا ، لكنها امكانية رائعة ، حيث نستأثر بأرق والذ الاطعمة والمغروسات التى يزرعها السكان . ولنفترض الآن ، للحظة ، ان «المتأمل» على حق ، مع ان الدليل القاطع على احقيته معدوم . فلنتصور بان التنويم غير موجود وبوسع الارانب ان تتراكض وتتجول حيثما تشاء . عفارم عليك يا «متأمل» . ولكن ماذا بعد ؟ «المتأمل» نفسه سيقول : اذا انتفى الظلم الفظيع بحق الارانب فعليها هى ايضا ان تكف عن الظلم الطيب ، بالنسبة لنا طبعا ، فيما يخص بساتين السكان .

– كلا ، لن يقول . – صاحت الارانب بصوت واحد .

– واين الضمانة ؟ – سأل الملك والتفت الى «المتأمل» الواقف على مقربة منه يستمع اليه بهدوء .

فبعد تقريره عن التنويم ظل على المرتفع لان الملك امره بالبقاء هناك كيلا يظن احد بان جلالته مستاء من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان التأمل الطويل قد يجعل وجه «المتأمل» معتادا اكثر حتى يقلل من تأثيره السحرى على الآخرين .

ظل «المتأمل» صامتا ، لكن مظهره لا يدل على ارتباكه من سؤال الملك .

– ما رايك ؟ – سأله الملك من جديد فى محاولة لجعله يفضح نفسه فى الحال امام سائر الارانب .

– سأجيب على كل الاسئلة دفعة واحدة فيما بعد – قال «المتأمل» بهدوء – فليواصل صاحب الجلالة خطبته .

– طيب – ابتسم الملك ساخرا مع انه غضب فى قرارة نفسه . لقد غضب على «المتأمل» لانه تفادى ضربته ليس بنتيجة خطوة دبلوماسية متفننة بل بنتيجة رغبة حمقاء فى عدم تضييع الوقت على اسئلة منفردة .

– فلنواصل – قال الملك – بالطبع عندما تلتهم الثعابين الارانب تتعرض هذه الاخيرة لاشد درجات الظلم والجور ، ونحن نبذل قصارى جهدنا لنقلل من عدد الضحايا . ولكن ما الموجب لابراز الجوانب القاتمة فقط ؟ فالحياة حياة على اية حال . وهى احيانا تمنحنا هبات رائعة .

فانتم ، مثلا ، تواجهون الثعبان وترتعد فرائصكم من الخوف . ثم ماذا ؟ لقد اتضح ان «الابتر» الذى شبع من الدوز توا لا يعبأ بنا ولا يلتفت الينا . ونواجه الثعبان من جديد . وترتعد فرائصنا ثانية . ثم ماذا ؟ لقد اتضح انه ثعبان اعور ، ولا خطر عليكم منه اطلاقا ، لانكم متواجدون فى المجال الضائع لصفحة وجهه العوراء . يا ارانب ، يا اخوتى واخواتى ، لا يجوز ان نستهين بهبات الحياة هذه . تذكروا ان كل شىء فى الطبيعة مترابط . فما العيب فى كون اللذة البالغة التى نحصل عليها من التالوث المقدس (الحمص والفاصوليا والكرنب) مرتبطة بشعور الخوف الذى ينتابنا امام الثعابين ؟ من يدرى ؟ قد تفقد محاصيل الطبيعة الفواحة عبقها ومذاقها وطراوتها اذا انتفى هذا الخوف ، فتغدو كالعلف الجاسى العديم المذاق .

– نظيع – هتفت الارانب – لا موجب للحياة اذن .

– طالما الامر كذلك – واصل الملك خطبته البليغة معجبا بفصاحته – فلن نحلم بالقرنبيط المنشود ولن نراقب التجارب ونساعد على انجازها ، اليس كذلك ؟

– يا للفظاعة . – بعثت الارانب انينا وهى بطبيعتها سريعة التأثر والاكتئاب ، وهذا ، بالمناسبة ، ما تستفيد منه بقدر واحد الثعابين وملك الارانب ، مع اننا لا نريد اطلاقا ان نقارن بين هذا وتلك . وواصل الملك كلامه وهو يلقى على الجموع نظرة ثاقبة تشع حكمة وفراسة :

– وهكذا يا ارانب ، فلنتكلم بصراحة ، نحن جميعا من اب واحد . . . اعترفوا صراحة ، عندما تعودون الى جحوركم فى المساء وتخبركم زوجاتكم بان ثعبانا التهم فلانا ممن تعرفونهم الا تشعرون بالراحة والامان فى جحوركم الى جانب الحزن على شقيقكم القتيل ؟ الا تشعرون بحلاوة لحس الابدان الرقيقة لاطفالكم الرائعين ؟ الا تشعرون بشبق الالتصاق (كل الارانب هنا بالغة رشيدة وبوسعى ان اتكلم بصراحة) ، نعم ، بشبق الالتصاق باجساد زوجاتكم الدافئة اللطيفة ؟

– نعم ، نعم – وافقته الارانب متنازلة – الاعتراف بذلك كله مخجل ، لكنه عين الحقيقة . . .

– لا موجب للخجل ، يا ارانب – هتف الملك – فانتم تشعرون بذلك الى جانب الحزن على شقيقكم القتيل وليس على انفراد ، اليس كذلك ؟

– فعلا – اجابت الارانب – فهذا يختلط بذاك . . .

– وهذا امرٌ وادهى – صاح باعلى صوته ارنب يكنى «بالفطين»

كان جالسا بين الطامحين ، فسمع الجميع صيحته الجريئة هذه المرة ، وخيم سكون لا يبعث على الارتياح . فهذا الارنب فى الواقع قد قاطع صاحب الجلالة تقريبا . قطب الملك حاجبيه . فصاح «الفطين» من جديد دون ان يرتبك قيد انملة لنظرات الآخرين : – وهذا امرٌ وادهى .

– ما هو «الامرٌ والادهى» ؟ – سأله الملك بلهجة صارمة فى الاخير .

– الامرٌ والادهى هو موقفنا من اجدادنا – هتف «الفطين» – اذا كان «المتأمل» على حق فذلك يعنى ان جميع اجدادنا الذين استشهدوا ببطولة فى افواه الثعابين كانوا بلداء وجبناء هلكوا بسبب حماقتهم .

– ملاحظة واردة – قال الملك واوما براسه والتفت صوب «المتأمل»

– ما جوابك على ذلك يا ترى ؟

– ساجيب على جميع الاسئلة دفعة واحدة – قال «المتأمل» بهدوء – بوسع صاحب الجلالة ان يواصل خطبته . . .

– ما اشد كبرياءه – نخرت الملكة بوجه «المتأمل» بعد ان نفد صبرها .

– انتهيت – قال الملك – واضيف نقطة واحدة : الحياة هى الحياة على اية حال . وطالما خلق الله الارنب فهو يقصد الارنب بالذات .

غرقت خاتمة خطبة الملك فى عاصفة من التصفيق تمجيدا للاطعمة الرائعة . وفى صخب هذا التصفيق تعالت بين حين وآخر هتافات بحياة الملك من جانب المقربين ، كما تعالى صفير الاعجاب تكريما له من جانب الطامحين .

وكما هى العادة هتفت الارانب بامجاد الثالوث العظيم مع بعض الاضافات الثانوية ، وفى مقدمتها :

– المجد للجزر المتواضع ايضا .

وتجدر الاشارة الى ان كل ارنب واثق بانه شخصيا يصفق لفكرة التحالف بين الاغذية الرائعة وبين الارانب ، لكنه يتصور ان الآخرين يصفقون ليس لهذا التحالف فقط ، بل ولخطبة الملك كلها . ولما كان الجميع يفكرون على هذا النحو ويعتقدون بان الاعتراف بضيق الافق الانانى فى تصفيقهم شذوذ بشع فى اقل تقدير ، فقد راحوا يصفقون باشد ما يستطيعون ليستروا ضيق الافق ذاك ويندمجوا مع تيار الاعجاب الشامل الذى احتواهم فى آخر المطاف

وراحوا يدفعون هذا التيار بانفسهم الى الامام بعد ان جرفهم وصاروا جزءا منه . بهذه الصورة اندمجت هبّات التصفيق الشخصى فى مسيل واحد غدا قوة جبارة لمحرك الرأى العام فى مجتمع الارانب .

– هل اعجبك خطاب العرش ؟ – سأل الملك من الملكة بعد ان جلس جنبها واوما الى صخب الاستحسان وعاصفة التصفيق .

– كل الاعجاب ، فانت يا عزيزى خطيب مصقع – اجابت الملكة ومسحت برقة العرق من وجه الملك بورقة كرنب . – «الفطين» يحقق نجاحات – قال الملك واوما الى ذلك الارنب .

ابتسمت الملكة «للفطين» واشارت اليه كى يقترب منها . فقفز بسرعة وجثم امامها دون حراك . اهدته الملكة ، باسمة ، ورقة الكرنب التى مسحت بها وجه الملك توا ، وقالت : – يمكنك ان تاكلها . – كانت تلك هبة كبرى ، اشارة الى الاقتراب من الحاشية فى الواقع .

– لن آكلها مطلقا – هتف «الفطين» بحماس وهو يتلقى الهدية – ساجففها لتبقى ذكرى لمرحمتكم الجليلة .

– كما تشاء – قالت الملكة والقت على «الفطين» نظرة انثوية فيها الكثير من الفضول . اعجبت بمظهره الوسيم وعينيه المتقدتين ونظراته السريعة . كان فيه شىء جعلها ترغب فى ميلاد ارنب صغير سريع النظرات .

عندما ساد الهدوء طفق «المتأمل» يتكلم اخيرا ، وكان طول تلك الفترة واقفا امام الجموع من ابناء جلدته :

– سأبدأ من النهاية . لست ، انا الارنب ، بحاجة الى الاهتمام بطبيعة الثعابين فلتهتم هى بطبيعتها . . .

– الثعابين مهتمة بطبيعتها اصلا ، وهذا ديدنها – علق «الفطين» بمكر وتطلع الى الملكة وقبل ورقة الكرنب . فاهدته هذه المرة ابتسامة رقيقة . وقالت :

– ما اروع «الفطين» .

– سيغدو من المقربين اليك من الآن فصاعدا – قال الملك وباله مشغول بكلام الخطيب ولذا نسى ان «الفطين» كان قد حظى بهذه المرحمة .

وفكرت الملكة : «انها اكثر ما يمكن القيام به دون ان يلاحظه الزوج عندما يكون مشغولا بهموم المجتمع» .

– طيب ، فليكن – واصل «المتأمل» كلامه – اذا كان يحق للثعبان ان يهتم بطبيعته ، فيجب ان يتمتع الارنب ايضا بمثل هذا الحق . فى

حين تتلخص طبيعة الارنب فى كونه يرفض ان يبتلعه الثعبان . هل نستطيع ، نحن الارانب ، ان نستغنى عن الثعابين ؟

– بالطبع – هتفت الارانب – وبكل ارتياح .

– قل لى اذن ، – قفز الملك – لماذا خلق الله الثعابين ؟

– لا ادرى – اجاب «المتأمل» – ربما كان فى مزاج معتكر ، او ربما خلق الثعابين ليجعلنا نفهم معنى الدناءة ، مثلما خلق الكرنب ليجعلنا نفهم معنى النعيم .

– عفارم – صاحت الارانب – صحيح ، الثعبان هو الدناءة بعينها ، والكرنب نعيم .

– الحمص والفاصوليا نعيـــم ايضا . – قال احد الارانب بصوت مذعور وكان هذه المأكولات اللذيذة ستتشطب من قائمة طعام الارانب لو لم يذكر الحاضرين بهذه الحقيقة فى وقته .

– اواصل كلمتى ... قال «المتأمل» – طالما خلق الله الثعبان كما هو عليه ، فقد خلقنى ... كما انا عليه . وطالما انا اتأمل فالشكوك ليست غريبة على طبيعتى كأرنب . وعندما اخذت اطور طبيعة الشكوك التى اتضح انها موجودة مع ذلك فى طبيعتى بوصفى ارنبا صرت اتمعن واتنصت وافكر . والحياة ، كما يقول مليكنا ، معلم عظيم . وهى بالذات التى اوصلتنى الى كل استنتاجاتى الحالية . ذات مرة التقيت ثعبانا وجها لوجه . شعرت بان التنويم ينخر عضلاتى ويقيدها ، واغمى علىّ بسبب الذعر والهلع . وبعد لحظات افقت وعدت الى رشدى ودهشت لاننى وجدت نفسى سليما ورايت ذنب هذا الثعبان يخشخش بجانبى وينزلق الى ابعد . التفتت اليه فعرفته ، انه «الاحول» . مرق جنبى ولم يلاحظنى بصفحـــة وجهه العوراء ، ومضى بعيدا . وفى تلك اللحظة خطرت ببالى فكرة عظيمة لم تكن صياغتها قد استقامت بعد . وعرفت ان التنويم عند الثعابين هو خوفنا منها وان خوفنا هو وسيلة التنويم عندها .

– ما اشد سذاجته – هتف الملك قافزا من موضعه موجها كلامه الى الجمهور – الم احدثكم عن المصادفات السعيدة للقـــاء «الاحـــول» او «الابتر» ؟

– نعم ، حدثتنا . – اجابت الارانب وهى ترى فى كلام «المتأمل» حقيقة مغرية ، لكنها تثير القلق ، بينما يتضمن كلام الملك حقيقة مملة ، لكنها تبعث الاطمئنان .

– القضية ، كل القضية يا ارانب – قال «المتأمل» منفعلا – اننى

شعرت بكل علائم التنويم ، فى حين لم يلحظ الثعبان وجودى . وذلك يعنى اننى نومت نفسى بايحاء الخوف .

– فكرة عبقرية . – هتف ارنب من الجمهور وضرب جبهته براحة قائمته فسقط صريعا . لم يتحمل دماغه المسكين هذه الفكرة العبقرية .

ساد الجمهور هرج ومرج لحين من الوقت ، لكن الاجتماع استمر . فان قوة الاقناع فى المثال الذى اورده «المتأمل» جعلت الارانب تبتهج كثيرا رغم الضحية .

– هذه هى الثمرة الاولى للتعاليم الجديدة . – صاح «الفطين» عندما حملوا الارنب الذى قضى نحبه لشدة مفعول يقظة عقله . لكن احدا لم يلتفت الى ما قاله «الفطين» .

– رائع ، عظيم . – هتفت الارانب – فليعش محررنا .

– ذلك امر يحتاج الى برهان – قفز الملك صائحا – ما الذى يجعله واثقا بانه نوم نفسه بنفسه ؟ الان «الاحول» مر به دون يراه بصفحـة وجهه العوراء ؟ فليتحدث عالمنا النحرير ويوضح «للمتأمل» ما حدث من وجهة النظر العلمية .

لاذت الارانب بالصمت وخيم الهدوء تدريجيا وتقدم من حشد المقربين «كبير العلماء» وانتظر حتى يحل الهدوء فقال :

– طبيعى ان مـــا قاله «المتأمل» يستحق الاهتمام من الناحيـــة العلمية . . .

ردت الارانب على هذا الكلام بضجيج الاعجاب .

– . . . ومع ان اجتماعنا طال امده حتى ساعة متأخرة – واصـــل «كبير العلماء» كلامه – لا يزال الخروج باستنتاجات معينة سابقا لاوانه . ولكن ما الذى حدث اثناء اللقاء المفترض بين «المتأمل» و«الاحول» ، او الثعبان الاعور اذا تكلمنا بلغة العلم ؟ يبدو ان زميلنا العزيز «المتأمل» مر لحسن الحظ امام جانب وجه الثعبان المعزول عن مشاهد الرؤية . ولهذا السبب وحده ظل على قيد الحياة ، فاشعة التنويم الفتاكة الصادرة عن العين المبصرة لم تمس زميلنا المحبوب ، وهذا ما دعاه الى الخروج بتلك الاستنتاجات الطائشة فيما يخص التنويم . . .

– بين الثعابين عجزة ومقعدون من كل شاكلة وطراز – تمتم الملك وهو ينصت الى «كبير العلماء» ويومئ براسه دلالة على الموافقة .

– كلا ، ثم كلا ، يا اعزائى الارانب – واصل العالم كلمته – لا يزال التنويم سلاحا رهيبا بايدى اعدائنا . ولن نتمكن من قهر الثعابين

الا بالاعتماد على جدول التكاثر الذى وضعه علماؤنا بمشاركة الملك شخصيا . احفظوا جدول التكاثر وادرسوه وسيكون مستقبل الارانب جديرا بالقرنبيط .

بدا خطاب «كبير العلماء» مقنعا ، هو الآخر ، فى راى الارانب ، ومع ذلك كانت اغلبيتها تميل الى تاييد «المتامل» .

وبالمناسبة فان مغزى جدول التكاثر يتلخص فى كون الارانب عندما تتكاثر باسرع من تكاثر الثعابين انما تقلل من الخطر على كل ارنب بنسبة تعادل زيادة عدد الارانب على عدد الثعابين . ويستفاد من هذا الجدول ان فرصة مجابهة كل ارنب للثعابين فى المستقبل تتقلص مائلة الى الصفر حتى تبلغه فى آخر المطاف بل وتتجاوزه . ولذا فالارانب تحب التكاثر والتناسل حبا جما .

الا ان الارانب تميل الآن الى تاييد وجهة نظر «المتامل» . وقد لاحظ الملك تلك الامزجة فقرر تاجيل الاجتماع الى موعد آخر اكثر ملاءمة . ولذا امر ، بصورة لم يلاحظها سائر الارانب ، مسؤول الانارة فى البلاط بان يتكلم . فقال ذاك :

– يا ارانب ، الوقت متاخر . والفوانيس خفتت . حان الوقت للحباحب كى تتناول الطعام .

– لا يهم – صاحت الارانب – فى الغابة كثير من المنخورات ، وسنجمعها اذا دعت الحاجة .

واضطروا الى مواصلة الاجتماع فتكلم «المتامل» قائلا :

– يا ارانب ، «كبير العلماء» يهذر ، كالعادة ، بسخافات ما انزل الله بها من سلطان . انا اؤكد بان التنويم غير موجود اطلاقا . تذكروا ، ما اكثر الضفادع فى الغدير . وفى كل يوم يعبره ثعبان او آخر ، ولو كان الثعبان يمتلك قدرة على التنويم لوقعت عشرات من الضفادع فى غيبوبة وطفت على طريقه ، شاء ام ابى . ولو طفت الضفادع على السطح لحلقت الطيور الدائبة خلف الثعبان العائم .

ولكنكم تعلمون ان احدا من الطيور لا يحلق وراء الثعبان العائم .

– فعلا . – صاحت الارانب – هناك مئات من الطيور لكن احدا منها لا يحلق وراء الثعبان .

– «المتامل» على حق . – صاحت الارانب – خوفنا من الثعابين هو قدرتها على التنويم ، والتنويم هو خوفنا .

عندما كانت الارانب تعبر عن اعجابها بصخب وضجيج استدعى

الملك ، من بين جمهور المقربين ، الارنب الذى يشغل منصب «الحكيم العجوز» .

ولعل كيفية ترقية هذا الارنب تثير الاهتمام . جنب قصر الملك تنمو شجرة بلوط ذات جوزات قمعية تشبه الجزر . جوزات البلوط الجزرى غير صالحة للاكل لكن الارانب تستخدمها للزينة عادة اثناء مواكب الاعياد ، فالارانب تعتز بشجرة البلوط الجزرى وتعتبرها شجرة مقدسة .

جوزات البلوط الجزرى تتساقط بين حين وآخر ، وهى بالمناسبة ، ثقيلة جدا . ولذا وقعت اصابات مؤلمة ، بل حتى حالات وفاة بين الارانب المتفيئة فى ظل الشجرة اثناء تساقط الجوزات . ذات مرة كان هذا الارنب بالذات تحت شجرة البلوط الجزرى فسقطت جوزة على هامته .

اصيب برجة فى الدماغ ، وكانت تلك اول حالة لهذا المرض فى عشيرة الارانب .

– رجة فى الدماغ ؟ – سال الملك مندهشا لهذا المرض الغريب .

– بلى – اكد الاطباء .

– يعنى انه كان هناك ما يرتج ، اليس كذلك ؟ – حزر الملك .

– بلى – اكد الاطباء .

– عندما يشفى من مرضه سنعينه بمنصب «الحكيم العجوز» – قرر الملك . وما ان شفى هذا الارنب العادى من مرضه حتى وجد نفسه بين المقربين الى مائدة البلاط .

والآن ، قال له الملك ، وهو يجول ببصره عابسا فى جمهور الارانب المبتهجة وبعضها رفعت قوائمها وكانما تهدد الثعابين بقبضاتها :

– تكلم .

– تلك هى النهاية كما يبدو – قال «الحكيم العجوز» .

– حاول ، ابذل جهدك – قال الملك واصدر امره فى الوقت ذاته الى مدير الحرس ليتاكد من الابواب الاحتياطية فى البلاط فيما لو حدث عصيان .

– انا حكيم عجوز – طفق «الحكيم» يتحدث ، وكان محقا من ناحية ، فقد شاخ منذ ان عين لهذا المنصب – اقسم بشجرة الجزر التى جعلتنى حكيما ان فى كلمات «المتامل» . . .

وهنا تفجر ابتهاج الارانب لدرجة تهدد بانتخابات فورية تسفر عن عزل الملك عن العرش وتنصيب «المتامل» بدلا عنه .

– . . . فى كلمات «المتأمل» – كرر الحكيم بعد انحسار موجة الابتهاج – كثير من الحقيقة . . .

– يعيش . – هتفت الارانب بصوت واحد غطى على زعيق المقربين الذين لا ينتظرون خيرا فيما لو حدث انقلاب .

اما الطامحون فقد انكمشوا وسكنوا محاولين ان يبدوا فى مظهر من ليست لديه اية مطامح ، حتى ان بعضهم تركوا مقاعدهم وكانهم مسرعون لقضاء حاجة . وفى طريق العودة تلكأوا وتجاذبـــوا اطراف الحديث مع معارف قدماء لهم صادفوهم بين الجمهور .

– . . . وفيما قاله الملك – واصل «الحكيم» كلامه – قليل . . .

هدأت جموع الارانب ، وتطلع «الحكيـــم العجوز» الى الملك وفكر مرتعبا : ماذا لو لم ينتخبوه مجددا ؟ عندما كانت الجموع مبتهجة خيل اليه انها اقوى من الملك ، وعندما صمتت بدا الملك من جديد اقوى منها . ولذا اختتم «الحكيم» كلامه بصيغة فاجأته هو نفسه :

– كثير من الحقيقة . . . ولكن خبرنى ، يا «متأمل» اذا كنت على حق وانتفى الجور الفظيع الذى نتعرض له فهل ستسمح لنـــا بالانتفاع من الثالوث المقدس : الفاصوليا والحمص والكرنب ؟

– نعم ، نعم ، بدّد الشكوك . – صاحت الارانب .

تطلع «المتأمل» الى الرعية دون ان ينبس ببنت شفة ، فيما تحلقت عامة الارانب متشابكة الايدى وراحت تكرر مطبطبة على الارض بقوائمها :

– بعد ان سمحت بالسرقة بدّد الشكوك ، بدّد الشكوك .

ظل «المتأمل» صامتا . وفجأة شعر الملك الذى اطرق عابسا ان بريق الامل داعب منخريه . وقال «المتأمل» فى الاخير :

– يا ارانب . اقترح عليكم حل مشكلتنا الرئيسية ، الا وهى عدم الخوف من الثعابين . اما بخصوص المستقبل فلا استطيع سوى الافتراض والتخمين . . .

– انظروا ، لا يستطيع سوى الافتراض والتخمين . – هتفت الملكة ومزقت بغضب ورقة كرنب ورمتها بعيدا .

دوت صيحات الاستحسان من الطامحين الذين اعمل كل منهم ذاكرته لتحتفظ بمكان وقوع نتف ورقة الكرنب .

– كل ذلك ويدعى بانه معلـــم الحيـــاة . – هتف الارنب المكنى «بالفطين» ، وكان قد انتظر حتى تهدأ الجموع ليدوى صوته بارزا .

لم يكن «الفطين» ينفعل من اى ارنب اكثر من انفعاله من «المتأمل» ،

لانهما كانا صديقين فى عهد الشباب وكثيرا ما وقعا فى غرام انثى بعينها . كان «الفطين» واثقا من قدرته على تحقيق اكتشافات رائعـــة لا اقل من «المتأمل» لو لم يكن يطمح الى مائدة البلاط . لقد استولت عليه فلسفة وجوده الشخصى لدرجة لم يبق له معها وقت للاهتمام بوجود الآخرين .

– وضعه اصون ، – كان «الفطين» يقول لمعارفه عندمـــا يتطرق الكلام الى «المتأمل» – فهو لا يطمح الى المائدة .

– وما الذى يمنعك من الاقتداء به ؟ – كان معارفه يسألونه فى تلك الاحوال .

– الافضل ان تسألوا ما الذى يدفعنى الى الاقتداء به – يرد عليهم «الفطين» وهو يفكر فى الطريقة التى يبدو فيها بمزيد من اللياقة فى انظار الملك .

وفى تلك الاثناء واصل «المتأمل» كلامه :

– يا ارانب ، اذا سعينا من البداية الى رؤية النهاية لن نتزحزح من مكاننا ابدا . المهم ان نخطو الخطوة الاولى ونكون على ثقة من صوابها .

– خبرنا ولو بكلمة – صاحت الارانب – ما رايك فـى الفاصوليا والحمص والكرنب ؟

– اعتقد – قال «المتأمل» – عندما ينتفى الظلـــم الفظيع الذى تمارسه الثعابين بحقنا يتعين علينا ان نفكر فى الظلم الذى نمارســـه بحق بساتين السكان .

– عجيـ . . يـ . . يب . – تعالى عواء الاستنكار .

وهز الملك رأسه ولسان حاله يقول : ستسمعون المزيد من الغرائب والعجائب ، وسيبنى لكم حياة النعيم . . . وقال «المتأمل» :

– ليس المطلوب الغاء هذه الاغذية اللذيذة ، المطلوب ان نتعلم زراعتها بانفسنا .

– عجيـ . . يـ . . يب . – صاحت الارانب بصوت واحد – شغلـــة مملة . . . ثم كيف نفلح الارض ؟

– لا ادرى – قال «المتأمل» – ربما نتفق مع المناجـــذ بهـــذا الخصوص ، او نجد وسيلة اخرى . . .

– عجيـ . . يـ . . يب . – ناحت الارانب بمزيد من الضجر – واذا لم توافق المناجذ هل نخسر الفاصوليا والحمص والكرنب ؟

وفى تلك اللحظة نهض ارنب من العامة يحترمه سائر الارانب وتكلم نيابة عن الجميع :

– اسمع يا «متأمل» ، نحن جميعا نحبك ، وانت واحد منا ، تفكر فيما يهمنا . وهذا جيد بالطبع . ولكنك لم تفكر فى احد الامور . انا ، مثلا ، اذهب الى الغابة والبرارى كل يوم ، واعرج على بساتين السكان . . . ويمكن ان اصادف الثعابين يوميا ، ويمكن الا اصادفها . امس الاول ، مثلا ، وامس واليوم لم اصادفها ، وانا ، كما ترى ، حى ارزق والحمد لله. فما الذى حصل ؟ يمكننى ان اعرج على بساتين السكان يوميا ، اما الثعبان فيحتمل ان يبتلعنى ليس يوميا . وهذا يعنى اننى انا الفائز . ويستنتج من ذلك انك لم تفكر فى احد الامور . فاذهب ، يا «متأمل» ، الى تلتك الخضراء وفكر فى امر يجعل الثعابين لا تتعرض لنا ويجعل الخالق ، ان صح القول ، لا يحرمنا من الثالوث . وعند ذاك نبايعك جميعا .

– صحيح . – كررت العامة لان الاقرار بعدم اتخاذ اى قرار هو فى اللحظات العصيبة افضل قرار بالنسبة للارانب .

– انا شخصيا اول من يتبعك – صاح ملك الارانب – حالما تتأكد استنتاجاتك .

– يحيا مليكنا النبيل . – صاحت الارانب مرتاحة لقرارها بعدم اتخاذ اى قرار .

– والاكثر من ذلك – واصل الملك – سنخصص من مائدتنا يوميا راسين كبيرين من الجزر لعائلة «المتأمل» لكى يعتكف وينكب على التفكير دون ان يشوش عليه احد .

– يحيا الملك السخى . – صاحت الارانب .

– التكاثر السبّاق هو سلاحنا . – صاح الملك واخذ يد الملكة دليلا على انتهاء الاجتماع ، ومضى معها الى القصر .

وتفرقت الارانب الى جحورها وهى تنادى على رفاق الطريق . احس بعضها بتأنيب الضمير فراح يمتدح بحماس فكرة «المتأمل» الرائعة دون ان يتغاضى عما فيها من فجاجة وقلة نضوج .

وسأل بعض الارانب من زوجة «المتأمل» عما اذا كانت مسرورة لمنحة الملك .

– ليست كبيرة لكنها ليست صغيرة – اجابت على سؤال الفضوليين وحاولت ان تستفسر ، بدورها ، عما اذا كان النهار الحالى بضمن المعاش وهل تستطيع ، بناء على ذلك ، ان تستلم غدا ارىعة رؤوس من الجزر من مدير الخزينة المعروف بالبخل والتقتير والاهتمام بصغائر الامور .

– النهار الحالى بضمن المعاش . – اجابتها الارانب بمنتهى الحزم اللبرالى ، وكان كل ارنب يجيبها بقدر متزايد من اللبرالية الحازمة يتناسب عكسيا مع ما كان يعوزه من حزم فى تأييد زوجها اثناء الاجتماع .

جلس «المتأمل» كئيبا فى الساحة الملوكية الخالية ، ولم يبق معه سوى ارنب شاب صدق ليس فقط بصحة تعاليمه (وهو من الكثيرين الذين صدقوا بها) بل وصمم ان يكون من اتباع «المتأمل» مجازفا بحياته الوادعة .

– ما العمل ؟ – سأل من «المتأمل» .

– لم يبق علينا سوى مواصلة التفكير – اجابه «المتأمل» .

– هل يمكننى ان افكر معك ؟ – سأل الارنب الشاب – منذ ان سمعت ما تكلمت عنه صرت اتعطش الى معرفة الحقيقة .

– سنفكر معا يا «متعطش» – قال «المتأمل» – انفقت كل طاقات دماغى على دراسة الثعابين ، لكننى لم اكن اعرف ان اشقائى الارانب غير مستعدين بعد لعيشة كريمة . . .

فى اليوم التالى استمرت حياة الارانب كما كانت عليه . توجه قسم منها ليرتع فى البرارى وفضل قسم آخر الادغال الظليلة ، ومضى قسم ثالث الى بساتين السكان .

اما «المتأمل» فقد جلس من الصباح على التلة الخضراء يمعن الفكر كالعادة فى مراقبته لحياة الثعابين . واضيفت الى تأملاته بخصوص الثعابين افكار قلقة بخصوص ابناء جلدته الارانب .

من هذه التلة يلوح منظر البرارى الرائع ، ومنعطف النهر الفائض ، العريض فى اسفله ، ولذا يسميه اهالى الادغال بغدير الضفادع .

كان «المتعطش» يرتع منذ الصباح على سفح التلة الخضراء ويتطلع الى «المتأمل» بين الفينة والفينة محاولا ان يستشف من بعيد ، استنادا الى وضعية جلوسه ، ما اذا كانت قد خطرت فى باله افكار جديدة ام لا . وبعد حين من الزمن سيطر الفضول الذهنى لديه على الشهية وغريزة الطعام فتسلق التلة الخضراء دون ان يستكمل فطوره .

فى تلك الاثناء اقيمت فى صالة الطعام الفسيحة فى البلاط مأدبة فطور فخمة بمناسبة النصر الذى تحقق امس . وكان كل المقربين ، طبعا ، جالسين الى المائدة . والملك فى مزاج رائع ، يطلق النكتة تلو

النكتة ، ويرفع بين حين وآخر كأسا خيزرانية عالية مليئة بشراب جوز الهند ، وبعد ذلك يملأ المقربون كؤوسهم على عجل ويحتسون مع مليكهم هذا الشراب المنعش المرح .

ولا بد ان نتطرق الى عدد من مخبرى الامن الجالسين بين المقربين . كانوا ، بهيئة المقربين ، ينصتون الى احاديثهم ليعثروا فى الوقت المناسب على ما يشير الى التآمر او حتى الى مجرد الانحراف عن نهج الملك ، مما يؤدى فيما بعد الى التآمر .

ولما كانوا ليسوا من المقربين ، رغم جلوسهم بهيئة المقربين ، فان التوجيهات تحظر عليهم الافراط فى التهام الاغذية الثمينة كالكرنب والحمص والفاصوليا . ولما كان المقربون يعرفون ان بينهم مخبرين جالسين بهيئة المقربين ، وان هؤلاء المخبرين لا يحق لهم تناول الطعام بنفس القدر المخصص للمقربين فقد اخذوا يراقبون الكيفية التى يأكل بها سائر المقربين ويحاولون فى الوقت ذاته ان يأكلوا المزيد كيلا يعتبرهم احد مخبرين ، او جواسيس ، كما يقال فى لهجة الارانب . ولما كان الذين ينعتون بالجواسيس فى لهجة الارانب يعرفون بانهم اذا تحلوا بالتواضع امام المائدة فان الآخرين يكتشفون سرهم ويعرفون حقيقة وظيفتهم فى الولائم والمآدب ، فقد حاولوا ، من اجل التمويه ان يأكلوا اكثر ما يستطيعون ، الامر الذى يستجيب لميولهم الشخصية فى الوقت ذاته .

وهكذا حصل ان الجميع فى وليمة الملك يأكلون بشهية وطنية طيبة .

لم يكن بين المقربين هذه المرة الارنب الذى شغل منصب «الحكيم العجوز» . فان موقفه المتردد امس لم يغب ، بالطبع ، عن بال الملك . والآن جلس فى مقعده الارنب «الفطين» الذى اقترح تبديل اسم «الحكيم العجوز» بمختصر «الحجوز» ، الامر الذى قوبل بالاستحسان والمرح . وبهذه المناسبة اطلق الملك عدة نوادر ذات علاقة بحياة «الحجوز» .

كانت وليمة الفطور فى اوجها عندما دخل صالة الطعام ذاك الذى ضحك منه الجميع توا وكان بالامس يعتبر المستشار الاول للملك . دخل «الحجوز» وهو ينظف اسنانه المتآكلة بفعل الزمن . واتضح انه صار يتناول طعام الفطور فى المطبخ . اقترح الملك مازحا ان يرسلوا حكيمه السابق ليجلس تحت شجرة البلوط الجزرى وينتظروا حتى تسقط على راسه جوزة ليروا هل سيصاب هذه المرة برجة فى الدماغ ام لا . واكد

جميع المقربين ، وهم يقهقهون لنكتة الملك بانه لم يعد فى راسه ما يمكن ان يرتج . وقال القادم :

– انا اعرف لماذا نقلوني الى المطبخ ، ولكنى لا اعرف لماذا قدموا لى خضروات غير طازجة تماما .

– ماذا تقول ؟ – سأله الملك وهو يغمز بعينه للجالسين الى المائدة – قدموا لك خضروات غير طازجة . . . طازجة تماما ؟

وغرق المقربون فى قهقهة صاخبة . وهوى بعضهم على المائدة باطمئنان رقيق كما يهوى المحبون على صدور محبوباتهم فى مثل هذه الاحوال ويقرنون هذه الحركة احيانا بملاطفات عابرة . هوى المقربون على المائدة والتهم كل منهم بغير قصد ورقة كرنب او اصبع حمص اخضر ، الامر الذى قد يضاهى من حيث المعنى ملاطفات المحبين العابرة . واجاب القادم :

– اقسم بالبلوط الجزرى الذى جعلنى حكيما ، لقد اخطات بلا قصد . . . ثم اننى صححت الخطأ فيما بعد ، أليس كذلك ؟

– طبعا – قال الملك باسما – والا لتناولت فطورك ليس فى المطبخ بل فى مكان ابعد . ولكن ، لا بأس ، اجلس ، فانا طيب القلب . فى المرة القادمة ستعرف من الذى يزود بالفيتامينات دماغك غير الحصيف . . . الحصيف جدا .

بهذه الصورة اعيد «الحكيم العجوز» الى المائدة عندما كان الملك فى مزاج طيب . صحيح ان صاحب الجلالة ابقى كنيته المازحة «الحجوز» ، مما اضفى على منصبه من جهة بعض الالتباس الهزلى فى المعنى ، وقرب «الفطين» الى العائلة المالكة بقدر اكبر من جهة اخرى .

ظل «الفطين» حوالى شهر بين المقربين الى مائدة الملك ، يرفل بالنعيم وينعم بتذوق خيرة الاطعمة والاشربة الملوكية ، ناهيك عن اكثر الخضروات طراوة مما يجلبونه من بساتين السكان .

كل شىء هنا يعجبه ، لكن ما اثار دهشته ان الملك والمقربين اليه لا يتحدثون عن القرنبيط اطلاقا عندما يجتمعون الى المائدة . وذلك مستغرب جدا لان الملك فى كل لقاء مع عامة الارانب يتطرق الى موضوع القرنبيط بشكل او بآخر . اما هنا فى الحاشية فلا احد يتكلم عنه .

ظل «الفطين» يفكر فى هذا الامر حتى استقر رايه على احتمال وجود طائفة اضيق بين المقربين الى المائدة الكبرى ، تضم المطلعين على الموضوع ، وهى طائفة المقربين الى المائدة الصغرى . ولا يكتفى

افرادها ، على ما يبدو ، بالكلام عن القرنبيط ، بل يذوقون طعمه مرة في الاسبوع على الاقل . هكذا يتصور «الفطين» ، لكنه لم يتجرأ على السؤال من احد ، لانه لا يعرف على وجه التحديد من هم المقربون الى المائدة الصغرى . واذا سأل فسيعنى ذلك ، باعتقاده ، اعترافا منه بانه شخصيا ليس من المقربين الى المائدة الصغرى . فظل يتحين الفرصة ليوجه السؤال الى الملك نفسه .

وحانت تلك الفرصة . فقد طلب منه الملك نفسه ذات مرة ان يبقى معه بعد الغداء لحديث شخصي .

– اريد ان اكلفك بمهمة ذات شان كبير للشعب بأسره – قال الملك ، واضاف عندما اغلقت الملكة الباب وجلست جنب «الفطين» – هل انت مستعد لتنفيذها ؟

– يا مليكي – قال «الفطين» وغض طرفه .

– شاعر البلاط نظم رباعية غنائية ، فعليك ان تذهب الى «درب الحياد» في الادغال وتنشد هذه الرباعية على طول الطريق ذهابا وايابا . . .

– اذناي في خدمتك – قال «الفطين» وشنف اذنيه .

تطلع الملك الى اذني الارنب باهتمام وكانما يريد ان يتاكد من مدى ولائهما .

– اسمع – قال الملك وتلا رباعية مسجلة على ورقة موز عريضة بعصير ثمرة البيلسان .

الارنب المتأمل
رابض على التلة
ينظر الى البراري وغدير الضفادع
لكن العاصفة قادمة لا محالة .

اقشعر بدن «الفطين» ، فقد ادرك مغزى المهمة . وتمتم بصوت متهدج :

– يا صاحب الجلالة ، الا يعني ذلك . . .

– كلا – قاطعه الملك عابسا .

ادرك «الفطين» في الحال انه اذا انشد هذه الرباعية سيفشي الى الثعابين سر تواجد ابن جلدته «المتأمل» . ولذا عزم رأسا على التخلي عن

مائدة الملك والتحول الى عامة الارانب . فهو بطبيعته ليس شريرا رغم اعتزازه البالغ بنفسه . ولكن هناك نقطة حساسة جدا . فان رسميات البلاط تلزم الارنب المغضوب عليه بان يعيد الى الملك كل الاوسمة التي تلقاها قبل التنحية عن المنصب .

وعلى «الفطين» بالتالي ، ان يعيد ورقة الكرنب التي اهدتها له الملكة في حينه وبدأت منها ترقيته في سلم المناصب . والمشكلة انه اكل في طريقه الى المنزل نصف تلك الورقة بسبب فرحته مع انه ما كان يجب عليه ان ياكله اطلاقا ، فقد وعد بتجفيف الورقة للذكرى .

والحقيقة فعندما تقبل ورقة الكرنب من الملكة كهدية كان له حق في ان ياكلها ، كما اقترحت عليه الملكة نفسها ، لكنه رفع قيمة الهدية الى مستوى الاوسمة باقتراحه حول التجفيف ، ولذا فلم يعد له حق في التهام الورقة .

ومضت هذه الفكرة الآن وميض البرق في ذهن «الفطين» وادرك حراجة موقفه ، فلن يستطيع باية حال ان يعيد الى الملكة ورقة الكرنب التي اهينت كرامتها لحد النصف . بديهي انه يفهم ايضا ان احدا لن يلاحقه او ينكل به لهذا السبب ، لكن الارانب طبعت على تهويل حراجة الموقف اليوم حتى تغدو انظع من الخيانة غدا . فالموقف حرج اليوم ، الآن ، ولكن من يدري ماذا سيحدث غدا ؟ ربما لن يحدث شيء على الاطلاق ، وربما ستنكسف الشمس ، وتلغى كل التدابير بتلك المناسبة .

– طيب – قال «الفطين» ثم تنهد والقى نظرة معذبة على الملكة – ولكن هل استطيع ان اجرى تعديلا على النص ؟

– اذا كان لا يغير جوهره – وافق الملك .

– بودي ان انشد بالصيغة التالية – قال «الفطين» وانشد :

احد المتأملين
رابض على التلة
ينظر الى البراري والغدير
لكن العاصفة قادمة لا محالة .

– موافق – قال الملك وطبطب على كتف «الفطين» مرحا . فقد فهم ان هذا الارنب اراد ان يتحايل عليه لكنه في الواقع بنجاح على ضميره

– . . . لاسيما ، وان البعض يعتقدون عدوما ان ذلـــك من الخرافات والاوهام . . .

– وهل استطيع ان اجرى تعديلا آخر ؟ – سأل «الفطين» وانشد بسرعة دون ان ينتظر موافقة الملك :

احد المتأملين
رابض على التلة
ينظر الى البر – بر – بر – برارى .
والغدير – دير – دير – دير .

– هذا مقام موسيقى بلا كلمات تقريبا – لوح الملك بيده يائسا – تلك هى نتيجة التساهل . . .

– لا بأس – قاطعته الملكـــة فجاة – هذا اكثر اغواء . ولكن لى رجاء . عندما تغنى ارفع صوتك على المقطع الاخير : دير . . دير . . . دير . مفهوم ؟

– نعم – قال «الفطين» – سافعل ما تامرين .

– طيب – قال الملك – موافق . ولكن اى غدير هو المقصود ؟ ففى ربوعنا ثلاثة غدران : غدير النمور وغدير القرود وغدير الضفادع . اليس فى ذلك تشويش ؟

– كلا ، ابدا – قالت الملكة – فهل تظن ان الثعابين اغبى منا ؟

– يا مليكى – قال «الفطين» – الشىء الوحيد الذى لا افهمه هو : ما الموجب لذكر العاصفة ؟

– الا تعرف شاعرنا ؟ – اجاب الملك – فهو لا يطيق العيش بدون عواصف . . .

– وهل يعرف الغرض من استخدام رباعيته ؟ – سأل «الفطين» . فالاهون عليه لو شاركه آخرون فى الخيانة .

– كلا بالطبع – انكمش وجه الملك – انه شاعر يحلق خياله فى السماوات . وما الموجب لاطلاعه على شؤوننا الارضية الدنيوية المحزنة ؟

– طبعا – وافقه «الفطين» حزينا .

– طيب – قال الملك – صياغة النص مقبولة ، وتدهشنى فطنتك وسرعتك فى حذف بعض التفاصيل المتعلقة بالتضاريس الطبيعية . . .

– يا مليكى – غض «الفطين» طرفه – فى مثل هذه الاحوال تاتى الفطنة تلقائيا . . .

– بالمناسبة – تذكر الملك بمكر – يمكنك ان تاكل ما تبقى من الورقة التى اعدتك اياها الملكة . . .

– يا مليكتى – التفت «الفطين» هامسا وارتبك اشد الارتباك وخبأ راسه بين قائمتيه – اعذرينى . . . فتلك الحلاوة . . .

– لا يهم – شجعه الملك بسماحة – كلنا ارانب . . . ولكن ما اروع الاستطلاعات ، ما رأيك يا صاحبة الجلالة ؟

– يا لك من ماجن – تفوهت الملكة وهددت «الفطين» بقائمتها فى ملامة كئيبة – ارأيت ، يا صاحب الجلالة ، كيف هتف آنذاك بحماس غير مفتعل : «لن آكلها مطلقا ، ساجففها للذكرى» .

وقدمت الملكة الى «الفطين» سجل البلاط ، وقد جاء فيه ان ارنب الحاشية «الفطين» سينشـد فى «درب الحياد» بتاريخ كذا «ترنيمة بلا كلمات فى موضوع العاصفة» ليفهم جميع اهالى الادغال ان الارانب تعيش وتتكاثر بهجة ونشاط .

ذيّل «الفطين» التسجيل بامضائه ، فطبطب الملك شخصيـــا على كتفه ، وقال :

– اطلب ما يعجبك لاتمكن من تلبية طلبك .

– لن اطلب سوى توضيح امر واحـــد . – اجاب «الفطين» – يدهشنى ان الحاضرين عند مائدة الملك لا يتكلمون اطلاقا عن القرنبيط ، فى حين انكم وغيركم كثيرا ما تتذكرونه اثناء احاديثكم مع العامة .

– وماذا يمكننا ان نقول ؟ – هز الملك كتفيه – التجارب جارية بنجاح ، ونحن نساعد على اتمامها بكل الوسائل . . . كل المقربين الحديثى العهد يتصورون ان هناك فئة اعلى هـى المقربون الى المائـدة الصغرى بالاضافة الى المقربين الى المائدة الكبرى . . .

– اوليس الامر كذلك ؟ – سأل «الفطين» مكتئبا .

– كلا ، يا عزيزى – عانقه الملك بود – لا مجال لتقريبك اكثر ، فلم يبق سوى مضجع الزوجية . . .

– تفو ، ما افحش ما قلت يا صاحب الجلالة – نطقت الملكـــة واشاحت بوجهها بعد ان رمقت «الفطين» بنظرة من عينيها .

الا ان «الفطين» لم يلاحظ تلك النظرة لشدة اكتئابه . وقال لـــه الملك :

– صرت تعرف الآن سبب كل متاعبى ، اليس كذلك ؟

– كلا . – اجاب «الفطين» تعتصره الدرارة لعدم وجود مقربين اعلى . فقال الملك :

– سببها ان لكل منكم سرا يتوق الى معرفته ، اما انا فلا سر اتوق اليه . واذا كنت لا افهم امرا فهو يظل مستعصيا على الفهم بالنسبة لى الى الابد . . . ولذا فانا اواجه الصعاب اكثر من الجميع فى مملكتى . . . ولكن لى سلوى وحيدة ، هى انه – واوما الملك براحته الى السماء – يواجه الصعاب اكثر منى . . .

– اذا لم يكن هناك مقربون اعلى الى المائدة الصغرى فليس هناك ما اطمح اليه . – هتف «الفطين» بعد ان فهم احزان الملك ، من خلال مرارة الخيبة – ما اشد حزنى .

– احزانك ستتبدد – قال الملك واثقا – فبمر الزمن يغدو الطموح الى الامساك بالمائدة هو الطموح الوحيد الذى لا يرتوى لدى المقربين الى تلك المائدة . اما الآن فاذهب ، وخذ قسطا من النوم ، وغدا امض الى «درب الحياد» نشيطا هماما . . .

انحنى «الفطين» مودعا وغادر البلاط . فقال الملك وهو يتمشى فى مكتبه :

– هل تعرفين ما يعجبنى فى «الفطين» ؟ ضميره حى .

– منذ متى ؟ – سألت الملكة ببعض الدهشة .

– انت لا تفهمين شيئا – قال الملك وتوقف وسط المكتب – عندما يكلّف الارنب بمهمة حرجة ينفعنا كثيرا وجود جرعة طفيفة من الضمير فى نفسه .

– لا افهمك تماما – اجابت الملكة سادرة ، فقد كانت لا تزال تشعر بالمرارة لان «الفطين» بعينيه الحيويتين لم يكن امينا كما ارادت .

– نعم – كرر الملك وظل يتمشى فى المكتب – عندما يشعر الارنب الذى يؤدى تكليفا حرجا بشىء من الخجل فهو يسعى الى اداء المهمة بانظف صورة كيلا يتلوى فيما بعد من شدة الخجل اذا ترك بينات مثيرة للشبهة . وهذا بالذات ما نريده . على حكمائنا ان يغرسوا فى نفوس الارانب جرعة طفيفة من الضمير .

– ما اتفه هؤلاء الذكور . – قالت الملكة متنهدة – تعهد بنفسه «الا يأكلها مطلقا» ، وأكلها مع ذلك .

– نأمل ان يأكلها – اجاب الملك لا على التعيين ، وهو يفكر بالكيفية الافضل لغرس جرعة طفيفة من الضمير فى نفوس الارانب كى تعمل لخير المملكة دون ان تترك اية بينات مثيرة للشبهة .

والآن نترك لامد قصير الموضوع الذى نحن بصدده ونتناول قصة العلاقات بين ملك الارانب وشاعره .

فى طباع الشاعر تتشابك على نحو غريب المشاطرة الصادقة ومؤاساة الآخرين فى الآلام التى يتعرضون لها والاعجاب الرومانسى بمختلف الهزات الحياتية والعواصف الطبيعية .

وبالمناسبة فقد اعتلى الملك العرش بفضل احدى تلك العواصف التى يتغنى بها الشاعر دون كلل . كان يقول متذمرا من حكم الملك فى المرحلة الاولى :

– ليست تلك تماما هى العاصفة التى دعوت اليها .

لكنهما وجدا فيما بعد سبيلا الى المصالحة والتفاهم . فقد اغواه الملك واعدا اياه بجعل التغنى بالعواصف المحتوى الكامل الوحيد بلا منازع لحياة الارانب الفكرية . ولم يصمد الشاعر امام هذه الغواية .

باختصار كان الشاعر مغرما بمدح البشائر وقدح النذائر . فهو يحب طائر النوء او بشير العاصفة ويكره نذير النوائب . حالما يرى الاول يترنم وحالما يرى الثانى يتألم . وهو يترنم ويتألم بمنتهى الصدق والاخلاص دون ان يفهم اطلاقا ان الترحيب بالبشير لا بد وان يؤدى الى مجىء النذير .

ويصادف ان ينتحب على متن النذير وقبل ان يكفكف دموعه يرى من خلف الكتف الذاوى بشيرا ، او طائر نوء يحلق طالعا الى اعالى السماء فيرحب بهذا الطير الباسل بصيحة ملؤها الفرح والابتهاج .

كان واثقا من ان صوته الشاعرى يحفز الطير من كل بد ويذكر الارانب بان لديها ، بالاضافة الى حبها للخضروات الطازجة ، رسالة اسمى هى حب العاصفة . والارانب تنصت احيانا الى صوته وتقارن بين حبها للخضروات وحبها للرسالة السامية وتدهش كل مرة لانها تتحسس حب الخضروات واضحا جليا فى نفوسها ولا تتحسس حب الرسالة السامية الا بغموض بالغ ، وربما لا تتحسسه اطلاقا .

وعندما بلغ الشاعر من العمر عتيا ظل معجبا كل الاعجاب بطائر النوء او بشير العاصفة ، ولكن بصره ضعف فصار لا يفرق احيانا بينه

وبين الغراب العادى . وكيلا يرتبك الشاعر امام العامة من الارانب امر الملك بتعيين ارنب فتى جاحظ العينين لخدمة الشاعر حتى يدله ويوقفه عند الاقتضاء . وبالمناسبة كان الدليل الصغير يحمى الشاعر من الوقوع فى مختلف الحفر والوهاد عندما يتنزهان فى البرارى ، فالشاعر يتطلع الى السماء طول الوقت بحثا عن البشير ولا يلاحظ شيئا مما حواليه على الارض .

– اعصفى بالعالم . . . – يبدأ الشاعر احيانا فيقاطعه الارنب الجاحظ :

– يا عم ، هذا غراب وليس بشير العاصفة .

– آ . . . غراب ؟ – يقول الشاعر بشىء من خيبة الامل – لا بأس ، فان مناجاة العاصفة ليست من نوافل الامور .

ها نحن نبتعد عن الموضوع من جديد ، فى حين يتعين علينا ان نتحدث عن حياة الشاعر والملك بالترتيب . زد على ذلك ان هذه القصة اكثر حلوكة وكآبة فى الواقع ، ولا بد من تخفيف لهجة الحديث .

باختصار ، عندما تصالح الملك والشاعر وعد الاول بتطبيق نظام التعليم العام فى اقرب فرصة . وقال الملك قبل ان يغدو ملكا آنذاك :

– بهذه الصورة فقط تغدو ارادتى الحكيمة وقصائدك الالهية فى متناول جميع الارانب .

ولكن اتضح ان حياة الملك اليومية غاصة بصغائر الامور الحكومية فلم تترك له مجالا على الاطلاق لتحقيق المشاريع الكبرى .

– انقلب على العرش كالسنجاب فى قفصه الدوار – كان الملك يجيب عندما يذكره شاعره ، صديق الطفولة والشباب ، بمشاريعه الجريئة – لكنى امرت باعداد عشرة براميل اخرى من الحبر . . . وهذا يعنى اننا صائرون الى تحقيق تلك المشاريع .

كان الملك يختزن الحبر المصنوع من عصير البيلسان حتى اذا حان الموعد تتوفر للمملكة كلها مستلزمات محو الامية . لكن الوقت يمضى ، والملك فى شغل شاغل عن التعليم العام . الشىء الوحيد الذى تسنى له القيام به هو اصدار ارادة ملكية بين حين وآخر لاعداد بضعة براميل اخرى من حبر البيلسان لاستخدامه عندما يحين الموعد .

لكن الموعد لا يريد ان يحين ، وعصير البيلسان يتخمر فى البراميل ويتحول الى نبيذ رائع شديد التركيز ، وهذا بالمناسبة ، شىء لم يكتشفه سره احد . ذات مرة ، بعد سنين ، كان الشاعر يقضم ريشته فى مخاض

الابداع فمص من خلالها بالصدفة عصير الحبر المنعش . وانتشر نبأ خاصية هذا الحبر على جناح السرعة بين الارانب . فابدت ميلا شديدا الى التعليم او التثقيف الذاتى . لكننا سنتناول تفاصيل هذا الموضوع على صفحات اخرى .

عندما امسك ملك الارانب بمقاليد السلطة فى المملكة تأكد له بمرارة ان قواه كلها تستهلك للامساك بتلك المقاليد . وكان الملك يفكر : ما الغرض من السلطة اذا كانت كل القوى والطاقات تنفق على الامساك بها ؟ وفى آخر المطاف استقر رأيه على زيادة عدد افراد الامن فى المملكة ليتفرغ ويكرس طاقاته للمشاريع التى تاق الى السلطة من اجلها .

فزاد من عدد افراد الامن وشعر بان الامور هانت عليه ، فقد حرر بعض الطاقات التى كانت تهدر على الاحتفاظ بمقاليد الحكم . ولكن فى احد الايام الصافية خطرت على باله فكرة سليمة تماما ، مفادها ان دوائر الامن القوية هذه يمكن ان تحاول بنفسها انتزاع السلطة منه . فما العمل ؟

اذا قلل الآن من عدد افراد الامن على غير المتوقع قد يظن الاشرار والمتآمرون ان الفرصة حانت للاستيلاء على السلطة . ولذا زاد كثيرا من عدد افراد الامن وكلف المستجدين منهم بمهمة سرية هى حمايته من افراد الامن القدامى .

الا ان ذلك عقد الاوضاع امام الملك لدرجة اكبر . فقد اتضح ان افراد الامن الجدد الذين يتمتعون بمثل هذه الصلاحيات الواسعة بين افراده القدامى صاروا فوق الرقابة ، ولذا فهم يشكلون خطرا على الملك . وعند ذاك كلف الافراد القدامى بمهمة سرية هى مراقبة الافراد الجدد تحوطا لما اذا كان هؤلاء الاخيرون يسعون الى خيانته .

الا ان ذلك شوش الامور على الملك وعقد حياته لدرجة اكبر . فعندما صار لديه هذا العدد الضخم من افراد الامن بصلاحياتهم المعقدة تعين عليه ان يكلف كلا منهم بعمل يومى ما ، والا فالواحد منهم يمكن ان تفسده السلطة الخالية من المحاسبة فيغدو من الاشرار والمتآمرين .

ولكى يتوفر العمل لكل فرد من افراد الامن بحيث يحاسب عليه دعت الحاجة الى مراقبة جميع ابناء العشيرة وخصوصا الارانب التى تؤدى الخدمة فى البلاط . ولكن بين الارانب التى تؤدى الخدمة فى البلاط كثيرين من الذين يثق بهم الملك ثقة مطلقة . فهم رفاق شبابه ممن ساعدوه على استلام مقاليد الحكم .

ودعت الحاجة الى مراقبة هذه الارانب ايضا رغم ثقة الملك بهـا . واساس تعقد موقفه الحالى هو عجزه عن اعفاء ارانب بعينها من المراقبة بسبب ثقته بها ومواصلة الرقابة على ارانب اخرى . فاذا اصـدر ارادة ملكية من هذا النوع سيكون بعيدا عن القانون الذى ينبغى ان يكـون شاملا للجميع دون استثناء .

– وانا لا استثنى حتى نفسى – قال الملك لمدير الامن – اذا رأيتم اننى اتآمر على سلطتى الشرعية عاقبونى مثل الجميع .

– الويل لك اذا حاولت التآمر – هدده مدير الامن وهدأ من روعه فى الوقت ذاته .

وفكر الملك : طالما استحدثت قانون الرقابة السرية فيجب ان يطبق على الجميع بنفس القدر . واذا قسمت جميع الارانب التى تؤدى الخدمة فى البلاط الى فئتين تراقب احداها وتعفى الاخرى من المراقبة فهذا يولد فى اذهان افراد الامن تصورات مبتذلة وخاطئة بخصوص وجـود ارانب تحظى بالثقة فى كل شىء واخرى لا تحظى باية ثقة . لكن الامور فـى الواقع اعقد من ذلك بكثير ، والحقيقة متلونة متباينة لحد خطير .

فالذين يتعرضون للمراقبة اذا سمعوا بوجود الذين لا يتعرضون لها يمكن ان يزعلوا كثيرا ويضمروا شرا ويدبروا مؤامرة ضد الملك .

ولكن يمكن ان يقوم بالشىء ذاته اولئك الذين لا يتعرضون للمراقبة . فبسبب انتشار الرقابة فى كل مكان ومراقبة الجميع ما عداهم هم ، يمكن وفقا لقانون الغواية ان يسعوا الى الاستفادة من الفرص التى يوفرها هذا الوضع .

والحال كان الملك يشعر بتأنيب الضمير لمراقبة اصدقاء طفولتـه الذين يثق بهم . ولاحظ اولئك الاصدقاء انهم عرضة للرقابة ، وادركوا ان الملك لا يثق بهم ، فصاروا يعاملونه بتحفظ ، اى انهم اصبحـوا منطوين على انفسهم فى رأيه .

ومع ذلك فكلما فكر فى اصدقاء طفولته الذين امر بمراقبتهم شعر بوخز الضمير واحس بعدم الارتياح . وكان الوقت يمضى ونسى الملـك بالتدريج سبب عدم الارتياح الذى يشعر به عندما يتذكر اصدقاء طفولته . كل ما يحس به الآن هو عدم الارتياح منهم ، ولذا استقر رأيه على ان هذا الشعور ناجم عن تحفظهم المثير للشبهة .

وقد حاول ، دون قصد ، ان يبـرر نفوره من اصدقاء طفولتـه باخباريات اولئك الذين يراقبونهم . فعندما يستمع الى التقارير الخاصة

بحياتهم يبدى كل مرة اهتماما كبيرا وتعطشا الى معرفة كل ما قد يثير الشبهة فى حياتهم ، حتى لاحظ ذلك افراد الامن الذين يراقبونهم . وعندما رأى هؤلاء اهتمام الملك بكل ما يثير الشبهة راحوا ، بصورة غير متعمدة فى بادئ الامر ، ثم بصورة متعمدة يؤكدون فى تقاريرهم على كل ما يثير اهتماما كبيرا لدى الملك .

ومهما بدا ذلك غريبا ، فقد ساعدهم فى مهمتهم كون اصدقاء الطفولة فى منتهى الصفاء والطهارة . وفى هذه الاحوال تتعرض الارانب الطاهـرة بالذات لاخطر الافتراءات .

الكائن الذى يمتهن حرفة الكشف عن احتمال وجود افكار وافعـال عدائية لدى كائن آخر لا بد وان يحاول آجلا ام عاجلا ان يعثر على تلـك الافكار والافعال . فاذا طال الامد دون ان يكتشف ذلك الكائـن شيئا من هذا القبيل فانه يكشف بمنتهى الوضوح عن عدم لزوم حرفته .

ولكن لماذا يتضرر الارنب الاكثر طهارة فى مثل هذه الحالة باشـد مما يتضرر الآخرون ؟

فهو لا يبدى اية امارات فعلية تدل على عدائيته ، لكنه يجعل الارنب الذى يتعقبه ويراقبه ينسب اليه احدى الدناءات آجلا ام عاجلا . علمـا بانه ينسب اليه دناءة تعتبر من الكبائر . ولكن لماذا تعتبر مـن الكبائر ؟ تلك هى نفسية الارانب . فهل ينسب المخبر الى الارنب الذى ينبغـى ارسال اخبارية عنه انه اخفى رأس جزر عن المسؤولين فى مستـودع الملك ؟ تلك قضية تافهة . ولكى يبرر المخبر دناءة الارنب ويقنع نفسه بمخاطرها يضفى على الفعلة الشريرة التى ابتدعها شانا اكبر ، وهـذا يساعده شخصيا فى الحفاظ على كرامته الشخصية . وهناك فارق كبير بين ان ينسب ارنب الى ارنب آخر مؤامرة ضد الملك وبين ان ينسب اليـه الاستئثار برأس جزر لم يسلمه الى مستودع الملك .

نفسية الارانب مبنية بشكل عجيب . فالاسهل على المخبـر ان يثبت بان الارنب البرئ دبر مؤامرة ضد الملك ، اجل ذلك اسهل عليه مـن اثبات سرقة الارنب البرئ للجزر من مستودع الحكومة .

ففى الحالة الاخيرة يمكن للرئيس الذى يحاول المخبـر ان يثبت الجريمة امامه ان يسأل ببساطة :

– من الذى رأى الارنب المذكور يسرق الجزر ؟

وعند ذاك يتعين على المخبر ان يأتى بالحجج الدامغة .

اما اذا قدم المخبر الى رئيسه تقريرا عن مؤامرة تحاك ضد الملك ويشارك فيها الارنب الفلانى فان الرئيس لا يستطيع ان يسأله :

– اين الادلة على وجود المؤامرة ؟

فلماذا ؟ ذلك لان نفسية الارانب مبنية على هذه الصورة . عندما يتهم ارنب ما بالخيانة العظمى فان المطالبة باثبات هذه الخيانة تعتبر عند الارانب من ابشع انواع انعدام اللياقة والادب . اذ ان مسألة الولاء او عدم الولاء للملك عاطفية رقيقة حساسة لا مجال فيها للادلة الثبوتية المرئية الغليظة المبتذلة . فهذا شيء مذموم يثير السخط والاستياء لدى الارانب .

فهل من موجب للدهشة والاستغراب اذا هتف المخبر فى سورة من الغضب الوطنى ردا على مطلب الرئيس باثبات الخيانة :

– آ . . . انت لا تصدق بوجود مؤامرة ؟ ! لا بل انك نفسك تشارك فيها .

افظع شيء فى مملكة الارانب ان يتعرض المرء لنيران الغضب الوطنى . فمن عادات الارانب ان تشجع الغضب الوطنى دوما وفى كل الاحوال . كل ارنب فى المملكة ، عندما يشتاط غضبا ، يغدو فورا فى مرتبة اعلى من الارنب الذى يسلط عليه غضبه الوطنى .

وليس هناك سلاح يواجه الغضب الوطنى سوى افراط الغاضب فى وطنيته وافراط الوطنى فى غضبه . لكن ذلك ليس بالامر اليسير عادة ، فهو يتطلب مسافة للتحرك والوثوب ، والمسافة لا تتوفر تقريبا فى مواجهة ارنب بالغ الوطنية ينتفض امامك ليصب عليك جام غضبه الوطنى .

وبحكم الاسباب المذكورة اعلاه لا يتجرأ رؤساء المخبرين على طلب اثباتات من هؤلاء الاخيرين اذا كانت القضية تتعلق بخيانة يقدم عليها ارنب ما بحق الملك .

كان الملك ، بعد ان جار على اصدقائه القدامى ، يتوقع فى قرارة نفسه ان يثاروا منه بسبب هذا الجور . وعندما اخذت تتوارد معلومات بشأن خيانتهم تقبلها بارتياح بالغ . وبعد حين من الزمن لم يبق فى حاشية الملك احد من اصدقائه القدامى ما عدا الشاعر . فما قصته ؟

فى البداية كان يذكر الملك بمشاريعه ونواياه العظمى ، وكان الملك يجيب دوما انه يتذكر كل شيء جيدا ، لكنه مع الاسف مضطر الآن الى التقلب على العرش كالسنجاب فى الدولاب . زد على ذلك انه امر باعداد

بضعة براميل اخرى من الحبر حتى تكون المملكة على استعداد حينما يحل زمن التعليم العام ومحو الامية .

فى البداية كان الشاعر يتعذب لتأنيب الضمير ، فقرر ، على الاقل ، الا ينظم شعرا فى مدح الملك وتمجيده مباشرة . لكن شيئا ما منعه من ترك حياة البلاط والابهة التى تعود عليها هو شخصيا ، وكذلك عائلته التى تزايد افرادها بالتدريج ، وهذا هو الاهم . وكانت زوجته تقول :

– الملك ، على اية حال ، يقدم خدمة للمستقبل . انظر الى براميل الحبر الجديدة فى مستودع المملكة .

– ينبغى ان ننتظر ونرى – كان الشاعر يهدئ نفسه ويبذل جهده على قدر المستطاع ، اى انه يمتنع عن نظم القصائد فى مدح الملك مباشرة .

وعندما شرع الملك بابادة اصدقائه استولى على الشاعر عذاب الخوف فضلا عن عذاب الضمير .

كان يرى ان الملك يبالغ فى الخطر ، ولكن ، على ما يبدو ، لا دخان بدون جمر ، ولا دغل بدون ابن آوى . فهو ، اى الشاعر نفسه ، لم يعتقل ولم يشنق من اذنيه كما فعلوا مع غيره من الارانب .

ذات مرة دعاه الملك لحفلة ساهرة احتسوا فيها العصير المخمر جيدا وغرقوا فى اللهو والمرح مع شلة الانس من غوانى البلاط . واضطر الشاعر الى اللهو مع الجميع كيلا يغيظ الملك . وبالمناسبة فقد خلصه الملك نفسه فجأة من تأنيب الضمير الذى كان يلاحقه بغير شدة . فقال مازحا فى معمعان اللهو والطرب :

– يا ويلنا ، سنلقى جزاءنا من شاعرنا فى يوم ما .

وغرس الملك دون علم منه بذرة حلم عظيم فى صدر الشاعر . فقد استقر رأيه على ان يكرس حياته كلها من الآن فصاعدا لفضح الملك من خلال ملحمة غاضمة بعنوان «عاصفة الخيبة» . فهانت الامور عليه راسا .

ومن ذلك الحين لم يفوت اية فرصة لملاهى الملك وخطاياه المجونية مبررا حضوره بضرورة رؤية الامور على عواهنها حتى تتم له كل مستلزمات الفضح النهائى الكامل .

– انا شخصيا لا اتقبل ذلك ، انه مجرد مادة لنظم القصيد – كان يقول وهو يحتسى العصير المخمر او يعانق احدى غوانى البلاط .

تعود الشاعر بسرعة على المادة التى كان ينوى فضحها فيما بعد بريشته الغاضبة الساخرة . وفى بعض الاحيان كان يستغرب من رغبته فى تكرار تذوق الطيبات الخسيسة التى جربها وذاق طعمها . فقد خيل اليه طول الوقت انه لم يتحسس بالكامل بعض التفاصيل الدقيقة لانهيار الملك وتفسخه الاخلاقى .

ومع ذلك كان يستعد بصدق لنظم ملحمته «عاصفة الخيبة» . كان ينوى البدء بها حالما يعتزل حياة البلاط . وكان ينوى الاعتزال حالما يدرس كل تفاصيل تفسخ الملك اخلاقيا . ويعتبر البدء بنظم الملحمة امرا منافيا للاخلاق طالما لا يزال يتمتع بكل امتيازات حياة البلاط .

ولذا قرر ان يعالج الانغام والاوزان الشعرية لملحمته الفاضحة المرتقبة دون ان يضيع الوقت جزافا . وقد اعجبته معالجة الاوزان النغمية بدون كلمات . فمن جهة لم تكن غضبته تتبدد دون جدوى ، ومن جهة اخرى ظل مغزاها غامضا بالنسبة لجواسيس البلاط . كان يضع وزنا ما ويسجله على ورقة مانوليا ويخبئه فى صندوق بعد ان يسجل على الوزن باختصار المعنى الذى يريد ان يضمنه اياه لاحقا كيلا ينساه فيما بعد . فى بعض الاحيان كان يترنم بتلك الاوزان النغمية امام الملك ، والملك يعرب دوما عن استحسانه لطراوة كل نغم جديد وروح الحماسة الهجومية فيه .

ذات مرة ترنم بنغم يعبر عن الهياج الغاضب والغضب الهائج بخصوص تباطؤ الملك فى محو الامية . فاستحسن الملك النغم وقال :

– الامر اهون عليك ، فانت تخاطب الاله مباشرة ، اما انا فاتعامل مع الارانب . ارجوك ان تملأ هذا النغم بكلمات غاضبة تفضح الارانب التى تتباطأ فى تسديد ضريبة البساتين .

تحير الشاعر وارتبك لسماع هذا الطلب الذى يتعارض تماما مع المضمون الذى اراده لنغمه ، ومع ذلك وافق على تلبية رجاء الملك . وخيل اليه ان الملك اشتبه به وشك فى امره فقرر ان يبدد شكوكه بهذه الصورة . عاد الى المنزل ونظم الابيات المطلوبة .

والحال فان الاستعمال الكاذب لانغام الغضب الصادق ملأ صدر الشاعر بموجة جديدة من انغام اشد غضبا ، فعاد اليه الهدوء بالكامل بعد ان سجل تلك الانغام . وكما هى العادة كتب عنوان هذه الانغام للتمويه كالآتى : «غضبة اخرى بخصوص . . .» . وقال فى نفسه ، وهو

يتصور الصفعة التى سيتلقاها الملك عندما تمتلئ انغام «الغضبة الاخرى» بالكلمات والمضمون :

– سيدفع الملك غاليا ثمن اهانتى .

والآن ، كلما تقدم الملك بطلبات عديمة الادب من هذا النوع ليهين الانغام الالهية ، او البارة التقية على اية حال ، ان لم تكن الهية فعلا ، ينشأ فى صدر الشاعر نغم احتجاجى جديد يسجله لكى يفضح الملك ، فيما بعد ، بابيات اكثر ايلاما فى ملحمة «عاصفة الخيبة» . ولذا فعندما يترنم الشاعر بانغامه الجديدة امام الملك صار ينتظر بارتياح وتشف كبيرين طلبات مهينة جديدة .

وبالمناسبة فاثناء الترنم باحد الانغام نزولا عند طلب مهين من تلك الطلبات قضم الشاعر ، كما اسلفنا ، الطرف العلوى لريشته الاوزية فامتص بالصدفة حبرا من عصير البيلسان المخمر واحس بموجة جديدة من الالهام . وفيما بعد غدا اكتشافه هذا ، كما سبق وذكرنا ، فى متناول جميع ابناء عشيرة الارانب .

واخيرا عزم الشاعر على ترك البلاط كى يبدأ نظم ملحمته . لكن زوجته اعترضت طريقه ، وقالت انه هو شخصيا لن يخسر شيئا اذا ترك البلاط الآن ، فقد عاش افضل سنى العمر هانئا منعما ، ولكن ماذا سيحدث لابنه الناشىء اذا ترك البلاط فى وقت تتهيأ فيه فرصة للترقية والنجاح . وفرضت عليه الشرط التالى :

– دبر امور ابننا وعند ذاك نتراك البلاط . اما الآن فاستمر فى جمع الاوزان والانغام . . .

وتمكن الشاعر من تعيين ابنه فى مديرية امن البلاط ، وتحمل لهذا الغرض حوارا مهينا مع مدير الامن الذى لا يحبه الشاعر بسبب قساوته ولا يحب الشاعر بسبب قصائده .

ولكنه لم يتمكن من ترك البلاط حتى بعد تعيين ابنه . فان زوجته العنيدة اخذت تعول وتولول لان البقعة الشاعرية النائية القفراء التى يحلم بها لا تناسب بناته اللواتى يرغبن فى الزواج من ارانب الحاشية وانتحبت الام قائلة :

– ندبر امور البنات اولا ثم نترك البلاط . اما الآن فاستمر فى جمع الاوزان والانغام .

– اعتقد انى جمعت منها الكفاية – حاول الشاعر ان يعيد زوجته الى رشدها .

ولكن ما من شاعر تمكن ان يعيد زوجته الى رشدها ، فاضطر صاحبنا الى الانتظار حتى تتزوج بناته . وطوال تلك الفترة كان يساهم فى مختلف سهرات الانس التى يقيمها الملك مع انه لم يساهم بعد فى افعاله الماكرة الغادرة .

وفى تلك الفترة بالذات ابتكر الملك اسلوبا داهيا ، كما خيل اليه ، للتخلص من الارانب المشتبه بها . ففى مملكة الارانب التى تقتات على الاطعمة النباتية لا يطبق حكم الاعدام ، والتخلص من جميع الارانب المشتبه بها عن طريق الثعابين مشكلة عويصة . فاليكم ما ابتكره الملك .

صار يعلن عن مباراة سنوية لتسنم منصب «الحكيم العجوز» . والمعروف ان «الحكيم العجوز» تسنم هذا المنصب بعد ان اصيب برجة فى الدماغ من جوزة البلوط الجزرى التى سقطت على رأسه . وعندما اصيب هذا الارنب برجة فى الدماغ اثبت بالدليل القاطع ان فى رأسه ما يمكن ان يرتج ، ولذا عين لهذا المنصب .

ومن ذلك الحين صار الملك يرغم الارانب المشتبه بها ، والارانب المشتبه بها هى بالذات التى تنادى بتحسين نظام الحكم ، على المشاركة فى المباراة لتسنم منصب «الحكيم العجوز» . وكان يقول للواحد منهم :

– سننظر اذا كنت «حكيما بالفعل» وعند ذاك نناقش مقترحاتك بجد .

كانوا يجلسون الارانب المتهمة بالطموح الى تسنم منصب «الحكيم العجوز» تحت شجرة البلوط ، وبعد ذلك يهزون الشجرة لتتساقط جوزاتها على رؤوس المتبارين وتتسبب فى رجة فى الدماغ .

وتنفق عدة ارانب وتقضى نحبها ، عادة ، باصابات مباشرة من جوزات البلوط . اما الارانب المتبقية فتواصل مباراة الفائزين ، وفى الاخير لا يبقى سوى فائز واحد يتنازل عن منصب «الحكيم العجوز» او يعلن طبيب البلاط ، فى حالة عدم تنازله ، عن عدم اصابته برجة فى الدماغ لسبب بسيط هو ان دماغه ليس فيه ما يمكن ان يرتج .

لم يستحسن الشاعر اطلاقا هذه الاهانة التى تتعرض لها الارانب الطموحة الساذجة ، بل كان يتفرج على المشهد الرهيب وهو ينتحب بأحر الدموع . ونظرا لرقة مشاعره تحاول ارانب البلاط احيانا ابعاده عن شجرة البلوط لكنه يعاند ويتشبث بمكانه منتحبا ، ويقول :

– كلا ، يجب ان اتجرع هذه الكأس حتى الثمالة .

ثم يكفكف دموعه ويلقى نظرة خاطفة على السماء ، ولعله ينتظر ظهور الطائر الاشم ليؤاسيه ويعزيه فى مصابه الاليم .

وتجدر الاشارة الى ان بعض الارانب غير المشتبه بها اطلاقا تهرع فى معمعان هز الشجرة الى مكان المباراة السنوية لتتساقط جوزات البلوط على رؤوسها آملة بان يكتشف فيها قدر من الحكمة يخولها لتسنم منصب «الحكيم العجوز» .

وعندما راقب الشاعر لوحة هذا الكشف المرير عن الحكمة ابتدع نغما يعبر عن عاصفة الاحتجاج والاستنكار ، بل وملأ بداية النغم بكلمات ومضمون مجازفا بمنزلته الرفيعة فى البلاط . وكان يتلوها احيانا بين شلة ضيقة ممن يثق بهم من الاصدقاء :

اعصفى بالعالم ، يا زوبعة ،
واقتلعى جذور البلوط .

وبعد تلاوة هذين البيتين يدس ورقة المانوليا فى جرار المكتب صامتا ، بينما يتبادل اصدقاؤه المصعوقون النظرات ويهزون رؤوسهم معبرين بذلك عن تخمينهم للجراة الهوجاء فى القسم المتبقى من القصيدة .

– لكن شجرة البلوط تنمو جنب البلاط – قال احدهم اخيرا .

– هذا هو بيت القصيد – اضاف آخر .

وبالمناسبة فان تلك الجراة الهوجاء تنتهى عند هذا الحد . فالشاعر يعتقد ، ولاعتقاده هذا مبررات كافية ، بانه ليس لديه اى حق فى معارضة الملك طالما يرافقه فى البلاط ويتمتع بوافر الطعام ويتلذذ بحلاوة التهتك والمجون فى السهرات .

تزوجت بنات الشاعر ، لكنه واجه ملابسات جديدة بهذا الخصوص . فان موظف الامن الملكى ، اى ابنه الذى اطلع على اسرار الامن ، لا يحق له الدخول فى صلة قربى مع الذين ابعدوا الى خارج البلاط ، ناهيك عن الذين ابتعدوا عنه طواعا .

وتعين على الشاعر ان يساعد ابنه فى ترك مديرية الامن والانتقال للعمل فى مديرية الخزينة . واستغرق ذلك عاما آخر .

وفى تلك الاثناء اتضح بانه ستحل فى السنة التالية الذكرى العشرون لخدمته للملك بصورة لا تشوبها شائبة ، ويحق له وفقا للقوانين المرعية ان يحمل لقب امير شعراء المملكة . وليس لهذا اللقب اية مزايا اضافية اذا حمله ارنب على قيد الحياة ، فهو يتمتع بكل ما يريد ، ولكنه بعد الممات يتمتع بحق الدفن فى مقبرة الملوك بين اشهر ارانب المملكة الذين يحظون باكبر قدر من الاحترام والتكريم .

ويعتبر ترك البلاط قبيل استلام هذا اللقب الفخرى وقاحة ما بعدها وقاحة ، اما الانسحاب بعد الاستلام فهو عقوق لا يقدم عليه الا جلف زرى . ولذا بقى الشاعر فى البلاط عدة سنوات اخرى .

وهو الآن طاعن فى السن ، ومع ذلك يتصور الحياة امرا لا يطاق لو انه تخلى عما نوى القيام به . ذات مرة كان يقلب اوراق المانوليا اليابسة وعليها تسجيلات انغام ملحمته المرتقبة «عاصفة الخيبة» فاطلق ضحكة خافتة . فسالته زوجته ، وكانت قد وصلت توا من المستودع الملوكى حيث استلمت اطعمة وارزاقا :

– ماذا بك ؟

– لا شىء يستحق الاهتمام – قال وهو يقلب اوراق المانوليا الصفراء بحذر شديد خوفا من تفتتها – احتياطى انغامى يذكرنى باحتياطى حبر الملك .

– ثم ماذا ؟ ما اكثر اوجه الشبه فى الدنيا – اجابت الزوجة وهى تضع على المائدة ما جلبته من المستودع الملوكى من فاخر الطعام .

اجل ، صار الشاعر يفهم ان الاسرة ليست الآن العائق الاكثر خطورة . الزوجة طبعا ستتململ وتولول قليلا عندما تحرم الاسرة من ارزاق البلاط ، لكنها لن تحول دونه ودون ما عزم عليه . فالعائق موجود فى دخيلته . لقد بلغ من العمر عتيا حتى لم يعد الموت يشغل باله . فاذا قضى نحبه وهو فى البلاط سيدفن فى ارفع منزلة فى مقبرة الملوك . ومن الناحية الرسمية يبقى حقه هذا محفوظا بالطبع حتى لو ترك البلاط ، ولكن لا احد يعرف الموقف الذى سيتخذه الملك فى تلك الحال .

كان يفكر احيانا فى التناقض الفاجع الذى يواجهه فلا احد سواه يستطيع ان يساعد جثمانه حتى يحظى بتشييع كريم . وقال لزوجته :

– ليتنى ادفن نفسى فى تشييع لائق كريم واترك البلاط فيما بعد لانظم ملحمتى بهدوء .

– لا تشغل بالك – اجابته زوجته – ستدفن فى تشييع كريم . . .

– اذا بقيت فى البلاط سيدفنوننى على هذه الصورة بالطبع – رد الشاعر على زوجته – لكننا ننوى مغادرة البلاط . . . الافضل ، طبعا ، ان ادفن بتشييع كريم ثم انظم «عاصفة الخيبة» واموت بهدوء . . .

– انت تريد الكثير – اجابته زوجته – سواك يكفيه مدى العمر انه اكتشف للارانب ذاك الشراب المسلى الرائع . لقد فعلت الكثير لعشيرتك ، وليحاول الآخرون ان يفعلوا شيئا . . .

– آمل بانى فعلت شيئا – اجاب الشاعر وهو يفكر بالكيفية التى يرتب فيها امور جثته بافضل شكل فى المستقبل ويحاول فى الوقت ذاته ان يستخلص نغما شعريا جديدا من تأملاته الحزينة .

كان المأزق شديدا لدرجة جعلت الشاعر ينساق احيانا وراء خيالات قاتمة للغاية . فقد خطر على باله ان يتظاهر بالموت حتى يدفنوه فى مقبرة الملوك ثم يترك سرا ضريحه الفخم ويمضى الى الادغال وينظم ملحمته هناك بهدوء واطمئنان .

لكنه يتحلى بما يكفى من العقل السليم ليفهم مدى المجازفة فى هذا المشروع . وحتى لو نجح فهو مهموم بخصوص عائدية ذاك الضريح . الآخرون بالطبع يظنونه مسجى فى ضريحه الرائع ، لكنه شخصيا يعرف ان الامر ليس كذلك ، فهو غير مسجى فى الضريح ، وبالتالى فالضريح ليس ملكا له .

مرض الشاعر وعاجلته المنية دون ان يجد مخرجا من هذا التناقض الفاجع . وقبيل الوفاة زاره الملك مع اشياعه وتمنى له الصحة والعافية ملمحا الى ان جثمانه ، فى حالة وفاته ، سيحظى بافضل معاملة .

ووفى الملك بما وعد .

نكست على جثمان امير الشعراء رايات القرنبيط . ووقف الملك نفسه وسائر المقربين جنب التابوت حدادا ، وراحت الارانب الفتية تتلو قصائده .

دفنوه فى مقبرة الملوك ، ونقلت اوراق المانوليا اليابسة وعليها تسجيلات انغام الملحمة المنتظرة الى ارشيف الملك . وانكب كبير علماء المملكة على فك رموز جميع انغام الملحمة وعثر فى كتاب شعر الملوك على قصيدة تناسب كلا منها .

فمن اجل النغم المعنون اختصارا «غضبة بخصوص التباطؤ . . .» عثر على قصيدة تسخر من المتعمدين فى عدم تسديد ضريبة البساتين ، ومن اجل النغم المعنون «غضبة اخرى بخصوص . . .» عثر على قصيدة تسخر من نفس اولئك المتعمدين فى عدم تسديد الضريبة ، وربما تسخر من غيرهم ايضا .

وهكذا فكت رموز كل انغام شاعرنا المنحوس بصورة بدائية ساذجة جعلت الاجيال القادمة من الارانب تزعم بان امير الشعراء كان على اية حال ناظما فجا تعوزه الموهبة .

ولكن كان هناك بعض من متذوقى الشعر الاكثر ثقافة ممن قالوا ان الشاعر نظم قصائده الهية فى الفترة المبكرة من نتاجه ، وفيما بعد اخذ ينظم هذرا وسخفا بتأثير الملك .

الا ان متذوقين اكثر رهافة (وربما هم من النقاد الاعمق احساسا ؟) اكدوا بان فى قصائده المبكرة ايضا ما يدل على عدم الثقة بقوة الحقيقة ، وهم يقصدون عدم الثقة بالقيمة النهائية والمستقلة للحقيقة ، الامر الذى يعتبر ، فى رايهم ، الدلالة الوحيدة على متانة وصمود الابداع ايا كان . وفيما بعد ادى انعدام هذه الثقة فى نفس الشاعر ، باعتقادهم ، الى تردى موهبته وانحطاطها الاليم .

ومما يؤسف له اننا لم نقع على هذه النتاجات المثيرة للجدال او التى لا جدال فيها من ابداع شاعرنا فى مرحلته المبكرة جدا ، ولذا فليس عندنا راى شخصى بهذا الخصوص . وكل ما نقوى عليه هو ان نعرض آراء متذوقى الشعر المحدثين ليأخذ القراء المهتمون بهذه المسالة علما بواقع وجود هذه الآراء .

فذلك كله يخص فترة متاخرة نسبيا من تاريخ مملكة الارانب . ثم ان موضوعنا ، فى الواقع ، هو ازدهار المملكة المذكورة فى انتظار القرنبيط .

. . . لنعد الآن الى الاحداث التى قطعنا حبل قصتنا عندها . فى اليوم التالى تناهت من اعماق الادغال اغنية مرحة .

احد المتاملين رابض على التلة
ينظر الى البر – بر – بر – برارى
والغدير . . دير . . دير . . دير
لكن العاصفة قادمة لا محالة .

كان ذلك بالطبع صوت الارنب «الفطين» . انشد رباعيته البسيطة تلك عدة مرات ، لكن احدا لم يلتفت اليه . ففكر فرحا : وهذا افضل . فقد شوشت عليهم الاغنية فلا يدرك احد مغزاها ، لا سيما وانى حذفت من الرباعية ، على مسؤوليتى ، ما اريد فمن يحزر يا ترى من الذى يتامل وبماذا يتامل ولمنفعة من ؟

انشد رباعيته مرة اخرى ولم يسمع لا بين الاعشاب ولا بين الشجيرات ذاك الفحيح المقرف المعهود ، فعاد اليه هدؤه وغذ السير بمزيد من السرعة . وفكر : اذا سرت بخطى سريعة ساجتاز درب الحياد بسرعة ولن يفهم احد من الثعابين عم اغنى . فكر «الفطين» على هذا النحو ودهش لفطنته . فاخذ ينط بقفزات متلاحقة وينشد اغنيته راكضا ، وفى بعض الاحيان يتوقف ليلتقط انفاسه ويتاكد مرة اخرى من عقم انشاده ويشعر بالارتياح .

وفى هذه المرة توقف «الفطين» فى ظل شجرة كمثرى برية تنتصب على حافة درب الحياد . اراد ان يلتقط انفاسه ويقتات فى الوقت ذاته على الكمثرى الساقطة من الشجرة اذا كانت الخنازير البرية لم تجهز عليها بعد .

فى تلك الاثناء كان قردان من السعادين ، ام وابنتها ، قد تشبثا باحد الاغصان العليا وراحا يتارجحان على الشجرة معلقين من ذنبيهما . وعندما سمعت الام «الفطين» يقترب منشدا اغنيته كفت عن التارجح واصاخت السمع قلقة مذعورة . وانصتت البنت هى الاخرى . فقالت الام :

– ملك الارانب يشى من جديد بواحد من رعيته . ما ابشع صوت هذا المنادى .

– ما المقصود «بالغدير . . دير . . دير . . دير» ؟ – سالت البنت .

– غدير الضفادع – قالت الام وشرعت تتارجح على ذنبها من جديد .

– العزاء الوحيد ان هؤلاء المنادين الذين رايت منهم كثيرين لا يعمرون اكثر من ضحاياهم – اضافت الام ولوحت بقائمتيها الاماميتين لتشدد من التارجح والاهتزاز .

– الوشاية هنا تعنى الخيانة ، اى القتل – حزرت البنت واضافت :

– ولكن بايدى الغير ، اليس كذلك ؟

– بلى – وافقتها امها وقد بلغت الدرجة التى تبتغيها من التارجح – الخيانة هى دوما قتل الشخص القريب بايدى الغير ، على حد تعبير السكان . . . اما الآن فتابعى حركاتى . الا ترين كيف اتحكم ببدنى

بطلاقة ؟ عندما تبلغين اعلى درجة افلتى ذنبك واسقطى ولا تفكرى بشىء ، وحالما تصلين الى الغصن الاسفل تشبثى به باخف حركة من ذنبك ، وواصلى التحليق فيلتف الذنب من تلقاء نفسه وتتعلقين على الغصن ولن تسقطى .

– ذنبى لا يقوى على حملى ، فاسقط على الارض – اجابت البنت .

– لانك بسبب خوفك تتعلقين ، فى مسار السقوط ، بالنباتات المتسلقة ولا تتوفر عندك السرعة اللازمة للتشبث بالاغصان المتينة . – اوضحت لها الام – تذكرى ، اهم شىء اثناء السقوط العمودى هو سرعة التشبث باستخدام الذنب . السقوط لا يعنى شيئا ، اما سرعة التشبث فهى كل شىء . واحد ، اثنان ، ثلاثة – قالت الام وشددت تلويحة قائمتيها الاماميتين وارخت بدنها فى الوقت ذاته مشيرة الى انها لا تخشى عليه اطلاقا .

هوت الام الى اسفل ، وكان وجهها يعبر عن اللاابالية التى تلازم النساء عندما يحوكن الثياب من صوف الحيوانات . لكن ذنبها التف بارتخاء على الغصن المطلوب ، وفى لمح البصر تشبث بالغصن على اشد ما يكون بفعل ثقل البدن الساقط .

– مفهوم ؟ – سألت الام من تحت وهى تتطلع الى ابنتها .

– نعم – اجابت البنت مترددة وهى تنظر الى تحت ، حيث تتارجح امها ، واسفلها ، فى ظل الشجرة ، يتراكض «الفطين» مشغولا بجمع الكمثرى المتساقطة من الغصن الذى تعلقت عليه الام .

اكل «الفطين» الكمثرى وراح يتطلع الى الام وابنتها باعجاب ، وفكر مكتئبا انهما تقفزان على الاغصان فى بحبوحة من العيش ولا تنشدان اية اغان ولا تؤديان اى تكليف من الملك .

– وانت ، ما الذى يمنعك ؟ – سمع الارنب فجاة صوتا منبعثا من داخله .

– كيف ؟ – اجاب بصوت عال من هول المفاجاة – لا بد من الطموح الى الافضل طالما جعلتنى الطبيعة فطينا .

انصت متوقعا ان يرد عليه الصوت الذى فى داخله ، لكن الصوت لم يرد .

– تلك هى القضية – قال «الفطين» بصرامة مخاطبا ذاك الصوت ومضى فى سبيله .

بلغ آخر الدرب وعاد ادراجه يفكر فى البدعة التى نشات فى داخله .

كان مهموما على اية حال ، فهذا الصوت انطلق فجاة وصمت فجاة . وفكر «الفطين» : اذا كنت تريد ان تجادلنى فجادلنى ، والا فما معنى هذا التصرف ؟ ظهرت فجاة واختفيت فجاة ، فعكرت مزاجى . كلا ، سانشد مرة اخرى نكاية بك .

وانشد رباعيته المعهودة وراح يتنصت الى الادغال ، فلم يسمع اى صوت يثير القلق حواليه . وقال مخاطبا نفسه والصوت الذى فى داخله : سانشد مرة اخرى ، وخلاص ، انا حر طليق .

وفجاة سمع الفحيح الممقوت بين نبتات السرخس ، وانساب صوب النهر ثعبان محجوب عن الانظار يتلوى فتهتز له اعالى السرخس . وفكر «الفطين» مرتعبا فى محاولة لتهدئة النفس : ما شانى انا ؟ ربما كان هناك احد يزحف لقضاء حاجة . كلا ، لا اصدق بانه يزحف الى تلك الجهة بالذات . ولكى يثبت لنفسه انه لا يصدق بذلك اخذ ينشد اغنيته هذه المرة بصوت مرتفع وبلا انقطاع .

فى تلك الاثناء مرقت الافكار فى ذهنه بشكل محموم . وراح يفكر : لمَ لمْ انتقل الى العامة ؟ وبرر تصرفه فى الحال : لم يكن بوسعى ان انتقل الى العامة . آه ، لو لم اقضم هدية الملكة لكان بوسعى ان انتقل الى العامة . آه ، لو كنت اعرف انهم يعلمون بانى قضمت ورقة الكرنب لالتحقت بالعامة آنذاك . – فكر «الفطين» وظل ينشد حتى فى طريق العودة على درب الحياد .

ربما كان هذا الثعبان يزحف صوب النهر دون قصد ، وربما استدار الى جهة اخرى من زمان – فكر «الفطين» وهو يحاول ان ينفض الكآبة التى اثقلت عليه . ها هى شجرة الكمثرى . اذا كان السعدانان لا يزالان عليها سأستفسر منهما هل زحف الثعبان من هنا ؟ فلربما استدار من زمان الى جهة اخرى .

والحال لا تزال الام والبنت تتمرنان على القفزة العمودية . فى تلك اللحظة سقطت البنت من الشجرة لانها اخفقت ثانية فى التشبث بالغصن . راحت تمسد جنبها المرضوض وتستمع باكتئاب الى امها التى تشرح لها ادق تفاصيل الوثبات . وقالت لتبرر فعلتها :

– لم احاول ان اتشبث بالغصن ، فاخفقت .

– هذا بالذات هو سبب اخفاقك – اوضحت الام لابنتها وهى تنظر اليها من تحت وتتارجح معلقة من ذنبها . – لم تتشبثى بالغصن وارتعبت اكثر فتصلب ذنبك من شدة الخوف ، فى حين يجب ان يكون الذنب

مرتخيا تماما ليتشبث بالغصن ويلتف عليه لفات كافية تؤمن السلامة بالكامل . جربى مرة اخرى . . .

تشبثت البنت بالغصن لافة ذنبها عليه ، وما ان لوحت بقائمتيها الاماميتين استعدادا للتأرجح حتى لمحت الثعبان ينساب تحت الشجرة جنب درب الحياد .

– ثعبان ، انا خائفة . – صاحت البنت .

– يزحف صوب النهر – اكدت الام .

– جاء على صوت المنادى ، اليس كذلك ؟ – هتفت البنت .

– طبعا – تنهدت الام – هيا ، جربى ، لقد ابتعد الثعبان كفاية .

– تمهلى يا ماما – قالت البنت – بدنى كله يرتعش . يصيبنى الدوار حالما اتصور الارنب «المتأمل» رابضا على التلة والثعبان يزحف نحوه بعد ان ارسلته الى هناك الارانب نفسها . . .

– استعيدى هدوءك وجربى مرة اخرى – قالت الام – اهم شىء الآن هو ارتخاء الذنب . . .

لم يهدأ روع البنت باية حال . لا سيما وانها سمعت انغام اغنية الخيانة نشيطة مرتفعة . فان منادى الملك عاد ادراجه على درب الحياد .

– لماذا يغنى ؟ – سألت البنت مندهشة – الا يعلم بان الثعبان قد زحف ؟

– يعلم علم اليقين . – اجابتها الام – انه يغنى عمدا كيلا يظن احد بوجود صلة بين الخيانة والاغنية . . . فهو كانما يغنى من تلقاء ذاته ، والثعبان يهاجم «المتأمل» من تلقاء ذاته . . .

– ما اشد دهاءه . – هتفت البنت – اليست الارانب هى اصل البشر ؟

– لا ادرى – قالت الام وهى تتأرجح على ذنبها وتنصت الى درب الحياد – يزعم البشر اننا نحن القردة اصلهم . . .

فى تلك الاثناء بلغ «الفطين» شجرة الكمثرى البرية فرأى نفس السعدانين على نفس الغصن من تلك الشجرة .

وكانا اول كائنين حيين يراهما بعد الخيانة ، فشعر بالارتياح لرؤيتهما . خيل اليه ان شيئا فى العالم لم يتغير ، وان العالم كله ظل كما كان عليه . ها هى شجرة الكمثرى البرية تنمو كالعادة ، والسعدانان

فوقها يتدربان على الوثبة العمودية كالعادة . كل شىء بقى على حاله . . . وشعر برغبة شديدة للتكلم مع احد ، حتى مع هذين السعدانين .

– هيه ، يا من على الشجرة – صاح من تحت – هزا الغصن ، فانا راغب فى الكمثرى . . .

لم يأته جواب . لا شىء سوى صرير رتيب يتناهى من الغصن الذى تتأرجح عليه الام . وشعر «الفطين» بعدم الارتياح من جديد .

– هل تعز عليكما الكمثرى ؟ – صاح من تحت .

ولم يأته جواب . هل يعقل ان الثعبان بلغ النهر الذى يربض «المتأمل» جنبه ؟

– اسمعا – صاح الارنب يخاطب السعدانين ثانية – الم يمر احد من هنا . . . صوب النهر ؟ !

خيم صمت ثقيل . لكن القرود لا تقوى على الصمت طويلا .

– تريد ان تقول الم يزحف احد ؟ – اجابت الام اخيرا بتلميح قاتل .

وفكر «الفطين» مرتعبا : هذا القرد الثرثار يعرف الحقيقة . وشعر فى الوقت ذاته بحقد شديد عليه .

– اردت ان اقول ما قلت بالذات – اجاب الارنب بكبرياء ولاذ بالصمت .

– ما اشد وقاحته – همست البنت .

– ساقفز عموديا وابصق فى وجهه – همست الام بحزم – اما انت فتطلعى الى ذنبى عندما يتشبث بالغصن . . .

– ابصقى فى وجهه ، يا ماما ، ابصقى – همست البنت فرحة وانكمشت على الغصن من شدة الانفعال .

تأرجحت الام على ذنبها وهوت الى تحت . تشبثت باوطأ غصن فوق رأس «الفطين» مباشرة . قرقع الغصن فتساقط وابل من الكمثرى على الارض . ذعر «الفطين» من هول المفاجأة ، ولاول مرة فى حياته ، رغم فطنته ، لم يفهم رأسا ما حدث . فهو لا يعرف بعد ان النفس التى اقدمت على الخيانة تعتبر كل مفاجأة بداية للثأر والانتقام .

– اوه – استعاد «الفطين» انفاسه اخيرا – هذا انت يا سعدان ؟

– كلا ، عزرائيل هبط من السموات – نغزته الام وهى تتأرجح على ذنبها .

– ما شأن عزرائيل ؟ – اجابها «الفطين» ببرود بعد ان استعاد انفاسه واتخذ الهيئة اللائقة بمنادى الملك .

– هبط ليلقمك حجرا – اجابت الام – حتى تكف عن انشاد اغنيتك ، فان احدا زحف الى ذاك المكان من زمان . . .

– وما شأن الثعبان الزاحف ؟ – صاح «الفطين» دون ان يضبط نفسه – لن اسمح بمثل هذا الكلام . انا منادى الملك ، وساشكوك . انا . انا . . .

– بالمناسبة ، انا لم اقل ان الزاحف ثعبان – اجابت الام وهي تتارجح على ذنبها .

– كلا ، قلت – زعق «الفطين» – وهذا القول شنيع ، واهانة لمنادى الملك . انت تتمرنين على درب الحياد . ولن اسكت عن هذه الفعلة .

وفكرت الام : حقا ، لا يجوز التمرن على درب الحياد . الافضل عموما الا اتحرش بهذا الارنب . وصرفت النظر عن البصقة وتسلقت اعالى الشجرة صامتة . اما «الفطين» فقد مضى يتمتم ويحرك اذنيه باستياء .

– ماذا ؟ هل بصقت فى وجهه ؟ – سالت البنت عندما بلغت الام الغصن العلوى وقبعت جنبها .

– بالطبع . – اجابت الام .

– وماذا فعل ؟ – سالت البنت .

– وماذا بوسعه ان يفعل ؟ مسح بوزه ومضى .

– ماما – قالت البنت – ما رايك : هل اذهب واحذر «المتأمل» ؟ . . .

– لا موجب للتدخل – اجابت الام واضافت : – ثم ان الوقت قد فات ، كما اعتقد .

– ربما اتمكن – هتفت البنت – فانا اجيد الوثب الافقى بسرعة . . .

– كلا ، ثم كلا . – قالت الام بصوت اكثر صرامة . – لا تزالين صغيرة ولا يجوز لك ان تتدخلى فى مثل هذه الامور .

– ماما ، يا عزيزتى ، ارجوك ، ساذهب بسرعة ، بمنتهى السرعة . ساتمكن من تحذيره . – قالت البنت متوسلة .

– كلا . – اجابت الام بمزيد من الحدة والصرامة – انت صغيرة لا تفهمين امورا كثيرة . . . انا ايضا اشفق على «المتأمل» . . . فان تعاليمه نافعة لنا ايضا ...لكنه تجاوز كل الحدود . . .

– انا متالمة عليه كثيرا – انتحبت البنت ، فقد تاكدت ان امها لن تسمح لها بالذهاب – انه رابض هناك يفكر ويتأمل ، بينما خانه ابناء جلدته .

– ما العمل ؟ – تنهدت الام ، واجلست ابنتها على ركبتيها وراحت تمسد راسها – يقول السكان ان العلم صنم يتطلب قرابين . . . واذا امتنعت الارانب عن دخول بساتين السكان فقد يتعين علينا نحن ايضا ان نترك عرانيس الذرة التى يغرسونها . . . لقد تجاوز «المتأمل» كل الحدود . . .

– ولكنك يا ماما قلت بنفسك اننا نحن اصل البشر – ذكرتها البنت وقد استعادت هدوءها بالتدريج وغرزت راسها فى ذقن امها . بهذه الصورة تذكر امها عادة بضرورة البحث عن البراغيث فى شعر الراس .

– اولا ، انا لم اقل ذلك ، هم الذين يقولونه – اجابت الام وراحت تبحث عن البراغيث وتدعسها بين اظافرها – ثانيا ، عندما يتطرق الكلام الى عرانيس الذرة ينسون صلة القربى بيننا ويالبون الكلاب علينا وينصبون الفخاخ الفظيعة كاشداق التماسيح . . . ماذا ؟ هل نجرب الوثبة العمودية مرة اخرى ؟

– ليس اليوم – اجابت البنت باكتئاب – انا منفعلة جدا . . .

– فلنذهب الى البيت اذن – قالت الام – سنخبر اهالينا بكل ما راوناه وسمعناه . . . كيف ستكون النهاية يا ترى ؟ . . .

– فلنذهب – وافقت البنت بأسى ، وقفزت مع امها الى شجرة قريبة وضاع اثرهما بين اوراق المانوليا الصقيلة .

فى تلك الاثناء كان «الفطين» قد اجتاز درب الحياد عن آخره تقريبا وبلغ مرجا صغيرا على مقربة من اولى جحور الارانب . كان طول الطريق يفكر فيما حدث ، وقد عاد اليه هدوؤه الآن تقريبا ونسى السعدانين . وفكر فى نفسه :

اولا ، ربما زحف الثعبان الى النهر لحاجة شخصية . ثانيا – ربما «المتأمل» على حق ولن يتمكن الثعبان من ابتلاعه . ثالثا – السحب القاتمة قادمة من الجنوب ، وستثور الزوبعة بعد لحظة واخرى ولن يبقى «المتأمل» رابضا على التلة المكشوفة اثناء الزوبعة . كان «الفطين» يبحث عن المزيد

من احتمالات النجاة «للمتأمل» . وكان مزاجه يتحسن كلما عثر على احتمال جديد .

فى ذلك المرج ، امام الجحور الاولى ، صادف فجاة زوجة «المتأمل» ، فحياها وسألها :

– ماذا تفعلين هنا ؟

– اجمع البرسيم للشتاء – اجابته متنهدة – زوجى منشغل فى التفكير طول الوقت . . .

– الا تستلمين معونة من الملك ؟ – قال «الفطين» مندهشا .

– نستلم راسين من الجزر لستة افواه – قالت الزوجة ورفعت راسها – انا ممتنة للملك طبعا ، ولكنى مضطرة الى تدبير حالى . . .

– يبدو ان الزوبعة قادمة – قال «الفطين» مهموما وتطلع الى السماء. بالفعل ، كانت سحب سوداء حالكة وواعدة بمطر غزير تزحف من جهة الجنوب .

– انا اقيم هنا ، جنب المرج – قالت الزوجة والقت نظرة سريعة الى السماء .

– وزوجك ، هل يعود الى البيت اذا هطلت الامطار ؟ – سألها «الفطين» على غير المتوقع .

تصورت زوجة «المتأمل» ان «الفطين» يلمح الى غرض فى نفسه . ففى عهد الفتوة كان كلاهما متيمين بها ، لكنها لقلة خبرتها آنذاك فضلت «المتأمل» على «الفطين» ، وهى آسفة جدا الآن .

– ماذا تقول ؟ – اجابته ولوحت بقائمتها الامامية اليمنى – انه يربض هناك من الصباح حتى الليل ، يفكر طول الوقت ، ولا يأتى الى البيت فى النهار حتى بضرب العصا . . .

– كيف ؟ – سأل «الفطين» – التلة مكشوفة . . . فهل يبقى يتبلل طول النهار ؟

– انا اعرف به . – اجابت الزوجة وهى تحدق فى عينى «الفطين» – ولذا تفضل ، ادخل ، وساطعمك بما تيسر . . .

– كلا ، شكرا . – قال «الفطين» بعد ان ادرك مقصدها ، وتصور ان دخوله جحرها سيزيد فى الطين بلة – على ان اقدم تقريرى الى الملك . . .

– نعم – تنهدت الزوجة – صرت فى منصب كبير . . . فكيف تتنازل لنا ؟ . . .

– آ – لوح «الفطين» بقائمته اليمنى – ليس كبيرا جدا . صرت من المقربين ويمكننى ان آكل واشرب حتى الشبع . . . لكن السعادة ليست فى الطعام والشراب كما هو معلوم . . .

– كلكم تتكلمون على هذه الصورة – تنهدت زوجة «المتأمل» من جديد – اما انا فقد ضرست اسنانى من البرسيم . . . كان بوسع زوجى الاحمق ان يغدو من المقربين لكنه رفض .

– طيب ، الى اللقاء – قال «الفطين» ومضى معتكر المزاج .

– مع السلامة – اجابته الزوجة وراحت تحش البرسيم بانيابها من جديد – اذا اردت ان تأتى تعال . . . وساطعمك بما تيسر ، وان كان لا يليق بمقامك . . .

اوما «الفطين» برأسه لا على التعيين ومضى عبر المرج سالكا اقصر طريق يوصله الى ساحة البلاط .

كان «المتأمل» رابضا على تلته الخضراء جنب النهر . الى يساره تنبسط البرارى والى يمينه يلوح غدير الضفادع العريض . وهو يتابع الحياة هناك بعينين كئيبتين وثاقبتين فى الوقت ذاته ، والاصح بعينين ثاقبتين ولذا فهما كئيبتان .

ها هى بعوضة ساهية سادرة تحلق على ارتفاع واطئ فوق الغدير ، حتى التهمتها احدى الضفادع ، وتلك ضفدعة ساهية سادرة غرز مالك الحزين نصل منقاره فى بدنها ، وهناك مالك الحزين الثانى ينظر ساهيا سادرا الى الاول ويحسده على الضفدعة التى ابتلعها ، حتى وقع فى فم تمساح رهيب . واصطاد السكان التمساح بشباكهم بعد ان سها شارد الذهن ، ثم قطعوه اربا اربا (باحجام تثير الشهية فى رأيهم) وشحنوه فى قارب وعبروا النهر الى الضفة الاخرى . وقبل ان يبلغوا قريتهم التى على الضفة التهم تمساح آخر واحدا منهم انحنى على الماء اكثر من اللازم .

– كل ذلك ويسمون هذا بالحياة – قال «المتأمل» مخاطبا «المتعطش» الجالس جنبه .

– يا معلم – قال «المتعطش» – اعتقد لو انك وعدت الارانب فى تلك المرة ببقاء السرقة لكسبنا المعركة . فقد كنت قاب قوسين من النصر او ادنى . هل يعقل انك لا يمكن ان تكذب مرة فى سبيل هدفنا الرائع ؟

– كلا – اجاب «المتأمل» – لقد فكرت فى ذلك مرارا وتكرارا . الحياة الحية تتحرك وتتبدل طول الوقت ولذا نحن بحاجة الى بوصلة متينة

متانة الماس ، وتلك البوصلة هى الحقيقة . وهى يمكن ان تكون غير كاملة ولكن لا يجوز تشويهها عمدا ولو من اجل اسمى هدف . والا يتقوض كل بنيان . . . البحّار لا يهتدى بالنجوم الهاوية . . .

– لكن النصر ، يا معلم ، كان قاب قوسين او ادنى – ذكره «المتعطش» بذلك اليوم المشهود الذى كادت الارانب فيه ان تطيح بالملك .

– ومع ذلك ، كلا – كرر «المتأمل» – اذا انتصرنا على الجور الكبير بحق الارانب تتهيأ لنا الفرصة كى نتخلص من الجور الصغير بحق بساتين الغير . وبالاضافة الى ذلك يرفع النقاب عن حالات اخرى من الجور الصغير فى حياة الارانب ، ومنها حالات جديدة . فالارانب مثلا يمكن ان تتباهى بانها خلصت الادغال من الذعر والخوف من الثعابين وانها غدت الآن كائنات عليا . . . كل شىء ممكن . . . ثم عليك ان تتذكر باننا حالما نتخلص من هذا الجور الكبير تنصاه عامة الارانب بلمح البصر . ويستولى اى من المتاعب الصغيرة الجديدة فى الحال على القوى الروحية التى كان يستهلكها الرعب المميت امام الثعابين . تلك هى الحياة او ذلك هو قانون تجدد الخوف والقلق ، قانون البقاء .

– لكن الامور اسوأ الآن – اعترض «المتعطش» متصورا ان «المتأمل» ابتعد كثيرا عن الموضوع – فالارانب ظلت موالية للملك .

– نعم ، حتى الآن . دناءة الثعابين البشعة شوهت وعى الارانب ، حتى صارت تكيف دناءتها الصغيرة ، بما فيها سرقة الثمار من بساتين السكان لتلك الدناءة الكبيرة . ان زعزعة هذا الوعى المشوه هى مهمتنا العسيرة .

– ولكن اين الضمانة ، يا معلم ؟ – سأل «المتعطش» – ماذا لو بقى كل شىء على حاله ؟

– هناك شىء اسمى من الضمانة ، انه الامل – اجاب «المتأمل» – كنت بالامس رابضا هنا لوحدى ، اما اليوم فقد جئت انت الىّ ، مع ان مجيئك ينطوى على مخاطر ولا يعود عليك بالنفع .

– طيب ، ما كان هناك موجب للكذب ، ولكن – اعترض «المتعطش» من جديد – الم يكن بوسعك ان تلزم الصمت بخصوص تلك البساتين اللعينة ؟ فكنا سنستطيع الاطاحة بالملك اولا ، ومن ثم تتهيأ لنا افضل الامكانيات لزعزعة الوعى المشوه .

– كلا ، ثم كلا – قال «المتأمل» من جديد – لقد فكرت فى ذلك مرارا وتكرارا . اخفقت جهود كل المحررين بسبب ذلك . فكل منهم

ينساق وراء مهمته النبيلة ويعتبرها عن غير قصد نصرا نهائيا على الشر العالمى . ولكن حالما يختفى ما يعتبر شرا اليوم يظهر ، كما اسلفت ، ما يعتبر شرا غدا . لم يفهم ذلك كل المحررين غير الحكماء ، ولذا فعندما احرزوا النصر وقعوا فى الخرف وعجزوا عن فهم الحياة المحيطة بهم .

– وماذا بشأن المحررين الحكماء ؟ – سأل «المتعطش» .

– المحررون الحكماء . . . – قال «المتأمل» ساخرا – لا يطول بهم العمر حتى النصر . فلماذا يقع غير الحكماء فى الخرف بعدما ينتصرون ؟ – واصل «المتأمل» – انهم لا يفهمون قانون تجدد الذعر والقلق ، ولذا يعتبرون نسيان المتحررين من الشر الذى تخلصوا منه بواسطة هذا القانون تكرانا فظيعا للجميل . ولذا عملوا بصورة مفتعلة على ارغام المتحررين الميالين الى نسيان تحررهم على اقامة اعياد ومهرجانات التحرير . وفى آخر الامر صار المتحررون والمحررون يكرهون بعضهم بعضا فى السر . فالمحررون يعتقدون انهم جلبوا السعادة لابناء جلدتهم لكن هؤلاء ، لغبائهم ، لا يستطيعون ادراك هذه الحقيقة ، ولذا حاول اولئك ان يغرسوا ذلك الادراك فى اذهان هؤلاء ليل نهار . اما المتحررون فهم يعرفون ان التحرير لم يجلب لهم السعادة ولذا يحقدون على المحررين لانهم وعدوهم بالسعادة ولم يفوا بوعدهم ، بل راحوا يرغمونهم على الاعتراف بما لا وجود له ، اى بسعادة التحرير . والذين فقدوا المثال الاعلى يشرعون باضفاء طابع مثالى على النصر . ويحولون النصر من وسيلة لبلوغ الحقيقة الى الحقيقة ذاتها . ينبغى الا يغيب عن بالك ان الذين يتحدثون كثيرا عن الانتصارات اما نسوا الحقيقة واما يتهربون منها . تذكر كيف تحب الثعابين الكلام عن انتصاراتها اليومية على الارانب ، وتذكر كيف يعتبر ملكنا المرائى ان كل انخفاض يأتى بالصدفة فى عدد الارانب التى ابتلعتها الثعابين نصرا جديدا للارانب وكل زيادة فى عدد الضحايا نجاحا وقتيا للثعابين .

– كان يجب ان نطيح به آنذاك – ظل «المتعطش» يعزف بنفس النوطة – لو كنت لزمت الصمت لكان النصر قريبا .

– كلا ، ثم كلا – قال «المتأمل» بنفس العناد – لقد فكرت فى ذلك مرارا وتكرارا . اخفقت كل جهود المصلحين بسبب ذلك . . .

– سبق وذكرت ذلك يا معلم – قاطعه «المتعطش» – انا استوعب افكارك بشكل افضل عندما تدلل عليها بامثلة من حياتنا . . .

– طيب – قال «المتأمل» واضاف بعد تفكير قصير : – اليك

المثال . تصور ان ثعبانا واحدا يمثل جميع الثعابين ويطارد كل الارانب دفعة واحدة . الارانب تركض متعبة منهكة القوى وتقترب من نهر النجاة . النهر يخلصها من الهلاك اذا عبرته خوضا ، فالثعبان يخشى الماء . اذا بلغت الارانب النهر ستنجو حتما ، ولكن الكثير منهـــا يجرجر قوائمه مرهقا ، والنهر على مسافة مائة قفزة تقريبا . فهل يحق للارنب الطليعي الذى يريد حفز الارانب المنهكة ان يهتف بها صائحا : «يا ارانب ، ابذلى آخر جهد ، لم يبق سوى عشرين قفزة» ؟

– اعتقد : يحق لـــه – قال «المتعطش» وهو يحاول ان يتصور اللوحة بكاملها – وفيما بعد ، عندما ينجون ، يوضح لهم حقيقة الامر .

– كلا – قال «المتأمل» – على هذا النحو اخطأ جميع المصلحين . فان مهمة نجاة الارانب لانهائية زمانيا . عندما تعبر الارانب النهر تحصل على مجرد فرصة لالتقاط الانفاس . فالثعبان المذكور سيجد فى موضع ما ، فى اعلى المجرى او اسفله ، جذع شجرة ملقيا عبر النهر ويواصل ملاحقة الارانب . فالثعبان يمثل جميـع الثعابين ، وهواة لحوم الارانب موجودون بكثرة على الدوام .

– فى رايى ، يجب الاحتفاظ بحق الكذب لافضل فرصة سانحة ، اليس كذلك ؟

– كلا – قال «المتأمل» – ليس هناك حق من هذا النوع . فمهما كانت الارانب شاكرة لزعيمها على تشجيعه لها بالكذب يبقى عالقا فى ذاكرتها دوما انه يمكن ان يكذب . ولذا تعتبر اشارة الخطر فى المرة التالية مبالغة مقصودة . ثـــم ان الزعيم نفسه عندمـــا يكذب من اجل الحقيقة يكون قد خان الحقيقة واهان كرامتها . وطالما اهان كرامتهـــا فليس بوسعه ان يحترمها . . . فهو يتنرفز منها . . .

– يا الهى ، مـــا اعقد الامور ! – هتف «المتعطش» – مـــا العمل يا ترى ؟

– لا بد من زعزعة ايمان الارانب بان الثعابين تنومها مغناطيسيا . الارنب عندما يطور طبيعته يمكن ان يتعثر عفويا ، لضعف فى النفس ، بل ويمكن ان ينساق وراء هوس البساتين ، لكن المثال الاعلى يجب ان يبقى صلبا صافيـــا كالماس . لقد قلت ان البحّار لا يهتدى بالنجوم الهاوية . والقضية ليست فى عدد الاخطاء والضلالات ، بل فى امر آخر . طالمـــا يستفيق الارنب من هوس البساتين ويدرك بان السرقة خسة وسقوط فان المستقبل لم يضيع بعد . وتبدأ الهزيمة عندما يبرر سقوطه

ويعزوه الى طباعه او الى قوانين الغـــاب . عند ذاك تبدأ خيانة المثال الاعلى ، ويبدأ طريق الكذب المسدود .

– يا معلـــم . – صاح «المتعطش» بغتة – هناك ثعبـــان يزحف نحونا . لاول مرة ارى ثعبانا يتصيد فى مكان مكشوف .

– ثم ماذا ؟ – قال «المتأمل» – انت تعرف ان التنويم عند الثعابين هو خوفنا منها .

– هذا صحيح ، على العموم – اجاب «المتعطش» مترددا – ولكن قد يحدث ما لا تحمد عقباه .

– ابتعد اذن وسترى ان كل ما قلته لك حقيقة .

– انا خجل يا معلم ، لكن الخوف اقوى منى . . .

– لا تثريب عليك . . . فانت لم تفكر الفترة المطلوبة . . . عندما تتكشف امامك ذرة من الحقيقة بعد تأملات ممعنة ستدافع عنها دون ان تهاب الموت . . .

– ومع ذلك ، يا معلم . . . كان ذاك الثعبـان اعور . . . اليس الافضل ان نفر بجلدنا قبل فوات الاوان ؟

– لن اوفر للملك هذه الفرصة للتشفى – اجاب «المتأمل» وهـو يرى الثعبان يزحف الى التلة الخضراء التي قضى فيها اياما كثيرة يفكر فى مصير ابناء جلدته من الارانب .

والحال فقد بلغ الثعبان التلة . كان هو نفس الثعبان الصغير الذى قص عليه «الاحول» مغامراته فى حينه ، وقد غدا الآن ثعبانا شابا من عامة الثعابين .

كان اول من سمح انشاد المنادى ، ووفقا للاعراف المرعية منحته الثعابين «حق الابتلاع» . وكان الملك بين فترة واخرى يفشى تواجد هذا الارنب او ذاك من خلال احد المنادين ، وقد تعودت الثعابين على ذلك من زمان .

ويعتبر حق الابتلاع هبة مضمونة من السماء . فرح الثعبان الفتى اشد الفرح عندما منحوه هذا الحق ، لكنه الآن غير مرتاح تماما .

ففى الطريق الى هنا صادف خلدا وساله عن افضل مسلك يوصله الى التلة الخضراء قبالة غدير الضفادع . فماذا حصل ؟ خدعه الخلد ودله على مسلك ملتو ضيع بسببه عدة ساعات فى الادغال ، ولم يعثر على تلك التلة اللعينة الا بشق الانفس .

وعندما ادرك ان الخلد خدعه تاثر كثيرا لهذا التصرف الذى لا معنى

له . فلماذا ؟ لماذا خدعنى ؟ – فكر الثعبان دون ان يفهم شيئـــا . فالثعابين لا تمس المناجذ بسوء اطلاقا ، ثـــم ان هذا الخلد لا يعرف الوجهة التى يقصدها الثعبان ولا الغرض من زحفه . ولو خدعته معزى برية او ديك رومى لكان الامر مفهومـــا ، فالثعبان لا تبتلـــع الارانب وحدها . ولكن ما الذى جعل الخلد يضللـــه ؟ من المنتفع من ذلك ؟ واضح ان الخلد لا يحصل على اية منفعة من هذا التضليل . فلماذا خدعه يا ترى ؟ لماذا ؟ !

وعندما بلغ التلة الخضراء صعق وانزعج اشد الانزعاج لهذا المكان المكشوف الذى لا تنمو فيه شجرة او شجيرة يمكنه ان يختبئ تحتها فى انتظار الغنيمة . فما اشد عقم هذه البقعة الموات ، العيـــاذ بالله من العيش فيها .

وعندما بلغ قمة التلة الخضراء اتضح له فجاة ان عليها ارنبين وليس ارنب واحـد . وهو يعـــرف ان الارانب تتكاثر بسرعة بالغة ، لكنه لا يعرف بان تكاثرها يجرى بسرعة خيالية كهذه . ثم اى من الارنبين هو «المتامل» ، ومن منهما ولد الآخر ؟

انسل ببطء وراح يتفحصهما من بعيد محـاولا ، على اية حال ، ان يوحى لكل منهما انه ينوى التهامه هو بالذات . والآن ، عندما اقترب من الارنبين ، حاول ان يتنفس بلا لهاث ولا يكشف ما يدل على الاعياء . ووفقا لعادات الثعابين يتعين على الذى ينوى التهام ارنب ان يبدو بمظهر الثعبان النشيط النظيف المفعم بالطاقات والمرح .

– اسمعنى جيدا – قال «المتامل» لتلميذه – سأقوم بتجربة على هذا الثعبان . قف بعيدا وانظر . ماذا تقول نشرة الانواء ؟ لاية مسافة يسرى مفعول التنويم هذا اليوم ؟

– ثلاث قفزات يا معلم . – اجاب «المتعطش» دون ان يحيد ببصره عن الثعبان الزاحف .

– احفر اخدودا على مسافة قفزتين عنى – قال «المتامل» بهدوء .

– تلك مسافة خطرة يا معلم . – حاول «المتعطش» ان يعترض .

– لا تجادل ، ليس لدينا وقت – استحثه «المتامل» .

كان الثعبان يزحف على قمة التلة الخضراء على مسافة عشر قفزات من الارنبين . لم يمانـــع «المتعطش» طويلا فوثب مسافة قفزتين عن المعلم صوب الثعبان القادم ، ولم تكن قفزتاه اكثر توفيقا مع انه مـــا كان راغبا فى المجازفة بحياة معلمه .

ومع ذلك حفر الاخدود كما اشار عليه المعلم ثم وثب زهـــاء عشر قفزات بعيدا عن الثعبان ، وكانت كل قفزة ، هذه المرة ، اكثر توفيقا من الاخرى رغم محاولته لضبط النفس . وها هو رابض على مسافة امينة نسبيا يتابع ما يجرى بقلب يكاد يكف عن الوجيب من شدة الانفعال .

كان الثعبان يزحف اقرب فاقرب ، دون ان يعرف بعد اى الارنبين خاضع لحق الابتلاع . واذا كان احدهما قد ولد الآخر أفلا يحق له ان يبتلع الاثنين متحججا بتاخره او بالولادة المبكرة اثناء الابتلاع ، ام ان ذلك شيء لا موجب له ؟

واثارت شكوكا وريبة تصرفات الارنب الغريبة عندما قفز صوبه ، اولا ، ورسم اشارة سحرية غامضة ، ثم تنحى مبتعدا . وفكر الثعبان : ليست الامور طبيعية . وحاول ان يلتزم باكبر قدر من الحذر .

ولوحظ تناقض فى تحركات بدنه الهائل . فالقسم القريب من الراس تباطا فى السير بينما ظل الطرف الخلفى يتلوى بعصبية وكانه منفعل لتباطؤ القسم الامامى . وراحت نهاية الذنب تلطم العشب بلجاجة فتثير موجات واطئة من الغبار .

تباطا الثعبان الشاب الى اقصى حد وقرب راسه بحذر من الاخدود الغادر وتشممه بلسانه وجـال ببصره فيما حواليه بكل انتباه بغيـــة ادراك الغرض منه .

– انظر – قال «المتامل» – حتى الثعبان يتحير ويرتبك حالمـــا يواجه ملابسات غير التى تعود عليها .

– نعم . – صاح «المتعطش» بمنتهى الانفعال – لكن الطرف الخلفى يطبطب بشدة .

– هذا هو المطلوب – اوضح «المتامل» بهدوء – فالاوامر تصدر عن بطن الثعبان اما راسه فهو مجرد وسيلة للابتلاع . . .

لكن الثعبان توقف فى تلك اللحظة مترددا متهيبا ، حتى انه نظر شزرا الى الارنب الثانى وفكر : اليس الاجدر ان التهمه اولا . فالاخدود غير المتوقع ، والاكثر منه ، صوت هذا الارنب الهادئ حيراه فاسقط فى يده .

لكن «المتامل» تجمد فى تلك اللحظة وتهدلت اذناه ، وتغطت عيناه بغشاوة رقيقة ، وعادت الى الثعبان همته فمد راسه عبر الاخدود دون ان يغض بصره عن الارنب . كان هذا الاخير نحيفا هزيلا فخطر ببال الثعبان عرضا ان ملك الارانب يخون رعاياه المدينين بالذات ليقتات بنفسه على

السمينين . الثعبان يعرف طبعا ان الارانب لا تاكل بعضها بعضا ، لكنه الآن نسى هذه الحقيقة لسبب ما .

– يا معلم . – صاح «المتعطش» – يخيل الى انك بدات تنام ، استيقظ .

– لا تهتم ، كل شيء يسير على ما يرام – اجاب «المتأمل» وهو يحاول الا يخيف الثعبان بصوته .

– لماذا تخاطر بهذه الصورة ، يا معلم . – صاح «المتعطش» من جديد .

– الثعبان الذى اجرى عليه تجاربى فاتر جدا – اجاب «المتأمل» – اريد ان احفزه . . .

سلط الثعبان على «المتأمل» عينيه المقيتتين ، واستمر فى عبور الاخدود ببطء .

– ما الذى يجعل نظرة الثعبان مرعبة ؟ – واصل «المتأمل» مراقباته – انعدام الفكر نهائيا . . . فما هو الثعبان فى الواقع ؟ انه مجرد بطن زاحف .

– اقترب منك كثيرا ، يا معلم . – صاح «المتعطش» مرتعبا – اقفز وابتعد عنه .

– لا تهتم ، عندى وقت – اجاب «المتأمل» وظل يراقب الثعبان .

اقترب الثعبان مركزا كل قواه على مراسيم التنويم المقدسة ، اى انه لا يغض بصره عن الارنب . الا ان الامور هذه المرة تجرى بشكل غريب غير معتاد . اعصاب الثعبان الشاب متوترة للغاية .

والارنب الذى ينبغى ان يبتلعه يتصرف بشكل مهين . والمهم ان المعلومات تتسرب منه ، ولكن الى اية جهة ؟ الى جهة الارنب غير المتواجد فى مجال الابتلاع . الافعوان الكبير لا يسامح احدا على مثل هذه الهفوات .

اسف الثعبان الشاب اشد الاسف لاقدامه على هذه المغامرة (فما اصعب هذا الصيد المضمون !) وشعر بحقد شديد على المنادى . ولكن ما العمل ؟ فات اوان التراجع . . .

– اسمع . – واصل «المتأمل» كلامه بهدوء – انا الآن متواجد بالكامل فى مجال التنويم المزعوم ، ولا اشعر بشيء سوى انفاسه ، صحيح ان روائحها كريهة جدا . . . وانا اسيطر بالكامل على مشاعرى واطرافى . ونطقى ، من الناحية العلمية ، دليل على احتفاظى الكامل

بعقلى . . . تذكر ذلك عندما يعلن الملك ان كل ما اقوله هذيان تنويمى . سأقوم الآن بعدة افعال تأتى بالتعاقب الذى اعددته مسبقا .

– اسرع ، يا معلم ، اسرع . – صاح «المتعطش» وهو يقفز فى مكانه لنفاد صبره .

صار الثعبان على مسافة قفزة واحدة وراح ينصت قلقا الى كلام «المتأمل» . وهم عدة مرات ان يرد على اهاناته ، لكن اعراف الثعابين الصارمة تمنع الكلام او الدخول فى جدال مع الارنب الجاهز للابتلاع .

– ساحرك اذنى اليمنى – قال «المتأمل» – ثم اليسرى ، ثم كليهما . . . – وبعد ذلك سانخر ثلاث مرات على فترات . . .

وفجأة لاحظ الثعبان الذى تصبب منه عرق بارد ان اذن الارنب اليمنى ارتفعت وتحركت . ذعر الثعبان لهذا المنظر فحول بصره الى الاذن اليسرى مخالفا المراسيم المقدسة ، وكانت قد ارتفعت هى الاخرى مشنفة متأملة وتحركت بملامة وتهديد مع انه امر الارنب بكل ما يمتلك من طاقات تنويمية بل وتوسل اليه مهانا بألا يحرك اذنيه .

وبعد ذلك ذعر الثعبان باشد من السابق عندما تحركت الاذنان معا ، واخذ الارنب ينخر كما وعد . وهنا انهارت اعصاب الثعبان الشاب ، فصاح :

– لا استطيع ان اعمل فى هذه الظروف . لماذا تنخر فى وجهى ؟ لماذا تحرك اذنيك ؟ لماذا تتكلم ؟

– التجربة صحيحة . هذا هو النصر ، عظيم . – صاح «المتعطش» وهو يرقص ويطبطب بقائمتيه – قمت بكل الحركات بدقة ، لكنك نخرت اربع مرات .

– فى المرة الاخيرة عطست – صححه «المتأمل» . وكان واضحا من صوته انه راض عن التجربة التى اجراها . – عطست لان روائحه كريهة جدا . . . وبالمناسبة ، فربما كانت خرافة التنويم مبنية على هذا الاساس . فلعل احد اسلافنا لم يتحمل انفاسه وسقط مغميا عليه . فقد كان هواء الادغال آنذاك انقى ، لان البشر كانوا اقل بكثير مما هم الآن . واتخذ ذلك ذريعة لبث الاشاعات المخيفة . . .

– انتصرنا ، انتصرنا . – صاح «المتعطش» وهو يرقص فى مكانه – انتصر العقل .

– لا موجب لاساءة استخدام كلمة «النصر» – صححه «المتأمل» – حتى اذا كان ذلك انتصارا للعقل . . . ولو كان الامر بيدى لحذفت هذه

الكلمة عموما . . . واستبدلتها بكلمة «تذليل» . ففى كلمة «النصر» اسمع طبطبة اقدام الحمقى المبتهجين . . . ها انـا الوذ بالصمت . يبدو ان ثعبانى فتر نهائيا . . .

صمت «المتأمل» بعد هذه الكلمات ، ودلى اذنيه واخذ يغمض عينيه . وحاول الثعبان ان يبدأ عمله من جديد ، لكنـه احس بتعب فظيع ، فتراخى وهمد على الارض .

– ينبغى ان آخذ قسطا من الراحة – قال الثعبان وهو يحاول ان يخفى ارتباكه . وكان ذلك اعترافا مهينـا لدرجة ما ، لانه سبق وان تكلم ، وكانت هناك على اية حال ضرورة لتوضيح الموقف .

– خذ قسطا من الراحة – وافق «المتأمل» – ولكن حذار ان تغفو . تنفس فى جهة اخرى . . .

– لم يحالفنى الحظ منذ البداية – قال الثعبان ليبرر جزئيا فتوره وخوره – اذا كنت ذكيا لهذا الحد فاخبرنى لماذا خدعنى الخلد وما منفعته من هذا الخداع ؟

وحكى الثعبان كيف خدعه الخلد عندمـا اتجه الى هذا المكان ليبتلع «المتأمل» ، لكنه لزم الصمت بتعقل فيما يخص الذى ارسله الى هنا .

– لو كان معزى او ديكا روميا بريا – كرر الثعبان الحجة التى بدت له دامغة – لفهمت ما دفعه لتضليلى . ولكن لماذا خدعنى وما منفعته من هذا الخداع ؟

– ذلك لان الخلد حيوان حكيم – قال «المتأمل» – وانا اعرف هذه الحقيقة من زمان .

– جواب غير مقنع – اعترض الثعبان وفكر : – فمـا كان يعرف وجهتى والغرض منها .

– يا «متعطش» – قال «المتأمـل» لتلميذه – انتبه لهذه الحادثة العرضية والمهمة فى وقت معا . الخلد حكيم . ولكن اذا كانت الحكمـة عاجزة عن عمل الخير فهى تقوم بالشىء الوحيد الذى تقوى عليه ، انها تطيل الطريق الى الشر .

– ماذا لو كنت مسرعا لنجدة رفيق ؟ – اعترض الثعبان من جديد .

– ها ، ها – قهقه «المتأمل» ساخرا – لم يسمع احد على الاطلاق ان الثعبان ينجد رفيقه .

– لماذا ؟ – قال الثعبان وحاول ان يتذكر حادثة مناسبة من حياة الثعابين – من الذى انجد «الاحول» عندما غص بالارنب المشاكس ؟

– اولا هذا فى طى التاريخ – ضحك «المتأمل» ساخرا من جديد ، وهذا مـا اثار حفيظة الثعبـان بخاصة – وثانيـا – نحن نعرف كيف انجدوه . . .

– ثم ماذا ؟ – قال الثعبان متأثرا جدا بفطنة «المتأمل» القارصة – الثعابين ، على اية حال ، لا تخون بعضها البعض مثلما تفعل الارانب .

– من ادراك ؟ – سأل «المتأمل» .

– ماذا تظن ؟ لماذا جئت انا الى هنا ؟ – سأل الثعبان بمكر ، فقد احس ان «المتأمل» غير مطلع اطلاقا على تعدد اشكال الخيانة .

– لا ادرى – اجاب «المتأمل» – الثعابين تتسكع فى كل الانحاء .

– لعلمك – اجاب الثعبان مدركا ان التفوق فى المعرفة يبعث على الارتياح ايضا – الملك فضح موقعك عن طريق المنادى . والمنادى هذه المرة هو الارنب الملقب «بالفطين» .

لقد اقدم الثعبان الشاب دون تردد على خيانة المنادى الخائن . فقد كان غاضبا عليه بسبب كل الآلام التى واجههـا . وكيلا تبقى فى نفس «المتأمل» اية شكوك تلا عليه انشودة المنادى .

– هل افك لك رموزهـا كيلا تعذب نفسك ؟ – سأل الثعبان من «المتأمل» .

– انها واضحة اصلا – اجاب «المتأمل» وقد حزت هذه الخيانة فى نفسه . – لـم اتوقـع مثل ذلك حتى من ملكنـا . هل سمعت ، يا «متعطش» ؟

– لقد صعقت . – هتف «المتعطش» – ولكن ربما كان ذلك افتراء استفزازيا .

– كلا – اجاب «المتأمل» حزينـا – فقد عرفت الاسلوب الافلج لشاعر بلاطنا . . . طيب ، سانفذ خطة الملك الغادرة لكى تفضحها انت فيما بعد . . .

– ماذا تقصد ، يا معلم ؟ – هتف «المتعطش» مذعورا .

– انا مضطر للتضحية بالنفس – قال «المتأمل» ببساطة واكتئاب .

– لا داعى لذلك يـا معلـم . – هتف «المتعطش» – ستصعب الامور على بدونك . . . ثم ان الملك سيعلن بانه على حق ، وان مقتلك هو نتيجة الاستنتاجات العلمية الخاطئة .

– وانت ؟ ما نفعك اذن ؟ – اجاب «المتأمل» – الم تر كل شىء ؟

ان وفاتى تفتح فى آخر المطاف عيون ارانبنا على مليكها . اما التنويم فانت تعرف الآن اسراره ويمكنك ان تكرر التجربة . . .

– مع ذلك ، يا معلم – توسل اليه «المتعطش» – ارجوك ، لا تفعل .

– كلا – قال «المتأمل» – لم اكن اعرف ان الملك غرق فى الدناءة الى هذا الحد ، طالما هو قادر على خيانة الارانب وافشاء امرهم الى الثعابين . . . والآن يمكن ان نتوقع منه كل شىء . يمكنه ان يعلن بانى اجريت التجربة على ثعبان مصاب بفقر الدم . كلا ، فهذا الثعبان صحيح الجسم وسوى تماما ، وسوف يؤدى واجبه الآن .

– لن ابتلعك . – هتف الثعبان على غير المتوقع وزحف منسحبا الى الوراء .

فبعد كل ما حدث تزعزعت ثقته بالتنويم وصار الآن يخشى الفضيحة ، حتى انه اشاح بوجهه عن «المتأمل» كما تشيح الكائنات المتقلبة الاطوار بوجوهها عن طعام غير لذيذ .

– عفارم عليك ، يا ثعبان . – هتف «المتعطش» – لقد فعلت خيرا لاول مرة فى حياتك .

– يمكنك ان تنعت ذلك كما يحلو لك – فح الثعبان باحتقار وتطلع خلسة الى «المتأمل» ليتأكد من ان بدنه نحيل غير لذيذ .

– كيف تقول : لن تبتلعنى ؟ – سأله «المتأمل» بلهجة صارمة .

– لن ابتلعك ، خلاص . – هتف الثعبان منفعلا – الخلد خدعنى اول مرة ، ثم وعدنى المنادى بارنب اكيد ، لكنك تحرك اذنيك وتتكلم وتعطس فى وجهى .

– لن اتركك تفسد على تجربتى ، فخذ بالك . – قال «المتأمل» والقى على الثعبان نظرة صارمة جعلته يرتعب بعض الشىء .

– فلنفترق بالتى هى احسن – اقترح الثعبان مسالما – وسأقول انى لم اعثر عليك ، لاسيما وانى ضللت السبيل بسبب الخلد . ثم انكما مارستما التكاثر هنا . . . فكيف اعرف من منكما هو «المتأمل» فعلا ؟ فربما تضحى بنفسك عمدا لانقاذ «المتأمل» الحقيقى .

– كلانا متأملان – قال «المتعطش» ليشوش على الثعبان نهائيا من جهة ، ويدافع من الكبرياء من جهة اخرى .

– تلك هى القضية – وافقه الثعبان – فقد منحت الحق فى ابتلاع

«متأمل» واحد وليس اثنين . وانا فى الواقع لا افهم كيف ولد احدكما الآخر . فمن منكما انثى ؟

– الا ترى سوء معرفتكم بنا ؟ – قال «المتأمل» – خرافة الثعابين التى تحيط علما بكل شىء ناجمة عن خوف الارانب .

– تشير كل الدلائل – زعل الثعبان من جديد لاهانة ابناء جلدته – الى انك انت ايضا لا تعرف ارانبك بالكامل . . .

– تلك هى الحقيقة المريرة – وافقه «المتأمل» – ولكننى سارغمك على ابتلاعى .

– كلا ، ثم كلا . – هتف الثعبان – لا يستطيع الارنب ان يرغم الثعبان على ابتلاعه .

– انت لا تعرف بعد ان بطنك اقوى كثيرا من عقلك – قال «المتأمل» وتجمد بلا حراك .

اشاح الثعبان الشاب عنه بازدراء ، ثم القى عليه عدة نظرات ماكرة وعندما تأكد انه جامد لا يتحرك انتعش واخذ يزحف صوبه .

– طبعا – تمتم الثعبان وهو يسلط على «المتأمل» نظرة تنويمية مترددة ، لكنها وقحة جدا بسبب الاهانة التى تلقاها – طبعا ، الاكل بعد عناء السفر ليس خطيئة . . .

– يا معلم . – صاح «المتعطش» – موتك تهرّب من النضال . انك تترك قضيتنا . . .

– هدوءا . – اوقفه «المتأمل» برفق – والا ستخيفه من جديد . . . انا احب اشقائى الارانب ، وقد بذلت قصارى جهدى من اجلهم ، لكننى تعبت ، يا «متعطش» . لقد قصمت الخيانة ظهرى ، وانا اعرف الكثير من الجوانب الضعيفة عند الارانب ، والكثير من حيل الملك ، لكننى لم اكن اتصور مطلقا ان هذا الكائن الذى يقتات على النباتات قادر على اراقة دماء رعاياه . لقد امضيت وقتا طويلا فى دراسة الاعداء حتى صرفت النظر عن ابناء جلدتى . اما الآن فانا خائف على نفسى ، واخشى ان تغوص روحى فى اعماق اللامبالاة ، كما يحدث للارانب فى احلك يوم فى منتصف موسم الامطار الغزيرة . لا يجوز ان ترانى الارانب بهذه الصورة . . . وستواصل انت قضية العقل والحكمة ، وستكون الامور اهون عليك بكثير مما كانت بالنسبة لى ، ولكنها ستغدو اصعب من جوانب عديدة . ستهون عليك الامور لانى ازودك بخبرتى كلها فى دراسة الثعابين ، ولكنها ، يا عزيزى «المتعطش» ، ستكون اصعب لان حبك لابناء جلدتك الذين

هم من صلبك يجب ان يتكيف لاحتمالات الخيانة . حبى لهم لم يكن يعرف ذلك ، فكانت الامور اهون على . . . اعهد اليك بقضيتنا . ولذا اتمتع بحق التعب والارهاق . . .

كان الثعبان فى تلك الاثناء يزحف صوب «المتأمل» ويحاول ان ينسى تحوله وهزاله ويعلل نفسه بان هذا الارنب الذاوى اذكى الارانب وانه عندما يبتلعه يحرم عشيرة الارانب اذكى واحد فيها ويضع ذكاءه فى الوقت ذاته فى خدمة الثعابين . حفزته هذه الفكرة لدرجة جعلته . . .

– يا معلم . – صاح «المتعطش» للمرة الاخيرة وانتحب ، فقد اطبق شدقا الثعبان على «المتأمل» .

– سأذيق الملك الدنىء شر العذاب . – انتحب «المتعطش» بحرقة والم – وسأذيق هذا «الفطين» السافل . حقراء . فتكوا بارنب عظيم .

انسحب الثعبان خلسة وهو يحرك فكيه ، وينصت الى نحيب «المتعطش» ويحاول فى الوقت ذاته ان يتذوق طعم الارنب الذى ابتلعه . ولعله شعر بالخجل من ابتلاع مثل هذا الارنب الفذ ، وربما من ابتلاعه بمثل هذا الثمن المهين .

وفكر الثعبان : حصل ذلك كله بشكل غير مريح وبعيد عن اللياقة ، والعزاء الوحيد ان عقله كله صار فى داخلى . . . تلك مسألة لا جدال فيها . ماذا لو لم يكن هناك اى تنويم كما قال ؟ ام ان قدرتى على التنويم لم تعد فاعلة . . . كلا ، القضية انى متعب جدا . . . والشىء الاكيد الوحيد ، على اية حال ، هو ان عقله كله فى داخلى الآن . عندما يغدو بدنه بعد الهضم جزءا من بدنى لن يبقى امام عقله مجال سوى الاندماج بعقلى . . .

هكذا تصور الثعبان الشاب وهو يزحف الى الادغال محاولا ان يطرد كل الوساوس والافكار المقلقة بشأن قابلياته التنويمية . وبعد التردد والقلق حلق فكره فجأة الى اعلى الآمال البهيجة .

ما قيمة التنويم بالنسبة لى الآن ؟ عندى عقل مزدوج مركب من ارنب وثعبان ، وبوسعى ان اشغل المرتبة الاولى بين ابناء جلدتى . الافعوان الكبير ، مثلا ، لا يتصيد الارانب اطلاقا ، يجلبونها له جاهزة . . . فمن الاذكى ، يا ترى ؟ وفجأة خطرت الفكرة التالية فى ذهن الثعبان : ما الذى يخول الافعوان ، عموما ، ان يحكم الثعابين ؟ صحيح انه مرتبط بنا بقربى الدم ، لكنه غريب على اية حال .

– الثعابين يجب ان يحكمها ثعبان . – همس فجأة بصوت مسموع ودهش بنفسه لعمق فكرته ودقتها .

وفكر الثعبان الشاب : بدأ عقل الارنب يفعل فعله ، فماذا سيحصل عندما اهضمه بالكامل ؟

هدأ الثعبان نهائيا وعثر على موضع دافئ بين اعشاب السرخس فالتوى وتحلق وغفا محاولا ان يزداد ذكاء كلما استمر فى هضم «المتأمل» .

ذاع نبأ خيانة «الفطين» فى الادغال كلها فى نفس اليوم . ويعود الفضل فى ذلك ، من جهة ، الى السعدان الذى اذاع النبأ ، ان صح القول ، فى جميع الطوابق العليا من الادغال ، كما يعود من جهة اخرى ، بالطبع ، الى «المتعطش» .

اهتاجت الارانب ولم يقر لها قرار . قال بعضها ان ذلك مستحيل ، مع ان كل شىء محتمل فى هذه الدنيا . واعربت عن اسفها على «المتأمل» من صميم القلب . وشعرت فى الوقت ذاته بالخجل لكنها تنفست الصعداء فى سرها . فقد تصورت ان عبء الشكوك التى اوحاها «المتأمل» ازيح عن كاهلها اخيرا . وبدت لها الحياة المجهولة فى ظل الامن المرغوب فيه والنزاهة غير المرغوب فيها اصعب واثقل من الحياة الحالية المحفوفة بالمخاطر السوداء ، والمفعمة بحلاوة التغلغل المثير فى بساتين السكان . وكلما تنفست الصعداء فى سرها ازداد اسفها على «المتأمل» واشتد استنكارها للخيانة الشنيعة .

ومع انها ، فى الحقيقة ، لم تكن تحب ابدا التمسك بنصائحه الحكيمة ، فقد شعرت فعلا بالتيتم عندما لم يعد على قيد الحياة . واتضح ان هناك ضرورة لوجود مثل هذا الارنب الذى يهدى سائر الارانب الى طريق الحقيقة حتى وان كانت لا تنوى سلوك هذا الطريق .

عند المساء تحشد كل الاهالى الراشدين فى الساحة الملوكية امام البلاط . وطالبت الارانب بعقد اجتماع طارئ . كانت امارات العصيان بادية ، فأمر الملك ، قبل افتتاح الاجتماع ، بان يظهر الحراس المنافذ الاحتياطية للبلاط . ففى كل مرة ، اثناء التحشدات المقلقة ، يأمر الملك بتهيئة المنافذ الاحتياطية ، ويقول للمقربين :

– كلما كان المنفذ الاحتياطى جاهزا تضاءلت احتمالات الحاجة اليه . . .

لكن الوضع هذه المرة كان مقلقا للغاية . وكالعادة رفع علم القرنبيط فوق عرش الملك قبيل الاجتماع . ومع ان الوان القرنبيط مخلوطة هذه المرة بشكل سحرى واعد فان الارانب لم تلتفت الى العلم فى الواقع . وفى بعض الاحيان يلقى ارنب نظرة فضولية عقيمة على نقش القرنبيط الجديد ويلوح بقائمته الامامية ثم ينخرط فى اقرب دوامة من الجموع الهائجة .

واخيرا امكن احلال النظام بشق الانفس . نهض الملك ، ووقف «الفطين» على درجة اوطأ يحدق فى جميع الارجاء بعينين واسعتين مذعورتين .

وطفق الملك يتكلم بصوت حزين :

– يصعب علىّ الكلام لشدة انفعالى ، لاسيما وقد دوت بين الحشود كلمات فظيعة . . . واتهمونى ، انا الاب الحريص على جميع الارانب ، بما يقرب من الخيانة .

– ليس بما يقرب من الخيانة ، بل بالخيانة . – صاح «المتعطش» من بين الحشود .

– فليكن كما تقول – تنازل الملك على غير المتوقع – فانا اسمى من الاهانات الشخصية ، ولكن فلننظر فى جوهر القضية .

– نعم ، نعم . – صاحت الجموع .

– فليسقط ! لا حاجة الى النظر فى جوهر القضية . – صاح آخرون .

– طيب – واصل الملك كلامه – لماذا ذهب المنادى الى درب الحياد ؟ اجل ، انا شخصيا ارسلته . ولكن لماذا ؟ مما يؤسف له ، يا اصدقائى ، ان المعلومات الواردة الى مكتبنا تشير الى زيادة كبيرة فى عدد الارانب التى ضاعت آثارها فى اشداق الثعابين . ويستنتج من ذلك بصورة قاطعة ان الثعابين ازدادت وقاحة فى الآونة الاخيرة . وربما بلغتها اشاعات بخصوص النظريات الجديدة التى طرحها «المتأمل» فقررت ان تعرض قوة التنويم الفتاك الذى هى قادرة عليه . فماذا بقى لنا ان نفعل ؟ هل نوحى للعدو باننا مساكين استولى علينا التشاؤم ؟ كلا ، ثم كلا . وكما هى الحال دوما قررنا ان نواجه هلاك اشقائنا بمعنويات عالية جدا . العدو يبتلعنا ونحن نغنى . نحن نغنى ، فنحن نعيش . نحن نعيش ، فلن يبتلعونا جميعا !!!

(دوى تصفيق مسعور بين المقربين الى المائدة والطامحين اليها .

وبسبب خطأ غريب صار هذا التصفيق فى جميع التقارير التى كتبت فيما بعد عن ذلك الاجتماع ينعت «بعاصفة عارمة من التصفيق» . وربما كان ذلك هو المطلوب ، فالملك توقف فى تلك اللحظة منتظرا ان يتحول التصفيق الى عاصفة ، لكن التصفيق توقف دون ان يبلغ ذلك الحد ، فواصل الملك كلمته) .

– . . . وعند ذاك ارسلنا منادينا لينشد اغنيته فى درب الحياد ، حيث كان عليه ، وفقا لما ورد فى سجلنا الملوكى ، ان ينشد بوتيرة المسيرة نصا على نغم «ترنيمة العاصفة» .

– اين النص ؟ اين النص ؟ – صاحت ارانب من بين الجمهور بصوت مسعور .

وصفرت ارانب اخرى فى قصبات خاوية من براعم الخيزران الطرية . ويعتبر هذا التصرف خرقا لنظام ادارة الجلسات ويعاقب عليه بغرامة اذا تمكن حراس الملك من العثور على من اطلق ذاك الصفير . والمشكلة ان حراس الملك لا يعثرون عادة على من يطلق الصفير لان هذا الاخير يأكل صفارته حالما يقترب منه الحراس .

– النص ، فى الحقيقة ، من نظم شاعر البلاط – قال الملك وجال ببصره بين المقربين وتظاهر بان نظرته وقعت على الشاعر عرضا ، فاومأ اليه – فليرتل بنفسه انغامه السماوية . . .

كان الشاعر ينتحب من زمان متأثرا لمصير «المتأمل» ولاعنا فى سره غدر الملك الذى ارغمه على نظم تلك القصيدة . لكنه مضطر الى التفكير فى مصيره ، ولذا ابتدع سريعا ، بتلميح من الملك ، طبعا ، وسيلة لحل عقدة هذه القصة ، مع انه ظل ينشج بسبب مقتل «المتأمل» .

تقدم الى الامام واعلن قائلا :

– النص ، فى الحقيقة ، اصطلاحى رمزى . . . وكان يجب ان يتخذ الشكل التالى . . .

– لسنا مطلعين على هذه الامور الدقيقة – قاطعه الملك – اقرأ على الارانب ما نظمته .

– طيب – قال الشاعر وهز كتفه باحتقار وارتباك . – الحقيقة انى اريد ان اقدم بعض التوضيحات للنص . فقد وفقت فى العثور على سياق لفظى ذى ايقاع قاهر يضغط على نفسية الثعابين المظفرة ، اى انى اردت ان اقول . . .

– اقرأ النص ، اقرأ . – صاحت الارانب وصفرت فى صفاراتهـــا الخيزرانية – لا داعى للتوضيحات . . .

– اردت فى الواقع ان اقدم بعض التوضيحات – قال الشاعر وهز كتفه مرة اخرى ثم تلا مترنما :

بام-بام ، بيم-بيم ، بام-بيم-بام .
لا-لا ، لى-لى ، لا-لا-لا .
بيم-بام ، بام-بام ، بيم-بيم-بام .
لكن العاصفة قادمة لا محالة .

هذا فى الواقع ما كان يجب على المنادى «الفطين» ان ينشده وفقـــا لانغام «ترنيمة العاصفة» بالطبع .

جلس الشاعر فى مكانه وهو يتطلـــع الى السماء لعله يرى بشير العاصفة صدفة .

– الالحان متنوعة يختلف بعضهـا عن بعض – تلقف الملك بلهجة مهددة آخر ما قاله الشاعر ثم التفت الى «الفطين» وسالـه : – وانت ، ماذا انشدت ؟

– انشدت الشىء ذاته – قال «الفطين» بصوت كالصرير بعد ان صعق لخيانة الملك والشاعر .

وكما هو شان كل خائن تعرض هو نفسه للخيانة ، صعق لخشونة خيانة الآخرين له . وهو لا يفهم ان خشونة الخيانة ، ايـــا كانت ، لا يتحسسها الا من يتعرض لها ، اما الخائن فلا يقوى على تحسسها ، او لا يتحسسها بتلك القوة على اية حال . ولذا فان اى خائن يتعرض هو نفسه للخيانة ، عندما يتذكر احاسيسه اثناء اقدامه على الخيانة ويقارنها باحاسيسه عندما يتعرض للخيانة ، انما يفكر بمنتهى الصدق والاخلاص : ومع ذلك لم تكن خيانتى بهذا القدر من الوضاعة .

وما ان ذكر «الفطين» المنصعق مبرراته بصوت كالصرير حتى تعالى زعيق السعدان من فوق :

– كذب . – قال القرد وهو يتدلى من شجرة جوز الهند – سمعت كل شىء ، وابنتى سمعت ايضا .

– السعدان سمـــع كـل شىء . – صاحت الارانب – فليحدثنـــا السعدان .

– يا اخوتى الارانب . – صاح السعدان محدقا فى ابواز الارانب المشرئبة – يا اصدقائى من سراق البساتين . كنت مع ابنتى على شجرة الكمثرى جنب درب الحياد ، ادربها على الوثبة العمودية . . . قلت لها ان تتشبث بالغصن بشدة اثناء السقوط العمودى مستخدمة ذنبها .

– لا داعى لوثبتك العموديـــة . نحن فى غنى عنهـــا – اعترضت الارانب – تريد كلاما فى صلب الموضوع .

– طيب ، طيب – هز السعدان راســـه وقد زعل بعض الشىء – ساهمل هذه النقطة طالما انتـــم انانيون الى هذا الحد . . . كنت ادرب ابنتى . . . وسمعت المنادى فجاة ينشد على الدرب :

احد المتاملين
رابض على التلة
ينظر الى البر-بر-بر-برارى
والغد يـ . . دير . . دير . . دير
لكن العاصفة قادمة لا محالة .

دوى صخب الاستنكـــار الفظيع فى جموع الارانب وتعالى صفيـــر وطبطبة .

– خائن ، خائن . – تناهت صيحـات متفرقة – احد المتاملين هو حبيبنا «المتامل» .

– فهمت راسا انه يخون «المتامل» . – زعق السعدان – وقد بصقت فى وجهه آنذاك .

– عفارم عليك ، يا سعدان . – صاحت الارانب – الموت للخائن .

– كيف تجرأ على تحريف نصى . – هتف الشاعر مستاء بالفعل من تحريف نصه .

وفكر الشاعر : انه خائن مرتين . خاننى اولا عندمـا حرف نصى ، وبعد ذلك خان «المتامل» . وعندما ادرك الشاعر انه تعرض للخيانة نسى بالكامل ان له ضلعا فى خيانـــة «المتامل» . فاى خائن هو اذا كان قد تعرض بنفسه للخيانة .

القى الملك نظرة غاضبـــة على «الفطين» . وعاد الهدوء الى الارانب بالتدريج فى انتظار ما سيقول . فخاطبه الملك عابسا :

– يعنى انك انشدت كالآتى :

الى البر-بر-بر-برارى .
والغد . . دير . . دير . . دير .

– نعم – قال «الفطين» بصوت لا يكاد يسمع .
– هل علمتك ان تنشد بهذه الصورة ؟
– كلا ، طلبت منى . . . . – هم «الفطين» بالاجابة مذعورا ، فصاح به الملك :
– اخرس . اجب امام الرعية ، هل اجريت تعديلات على النص من عندياتك ام لا ؟
– نعم – هز «الفطين» راسه بالايجاب منهارا . ففى البيت الثالث اهمل بالفعل الكلمة التى اصر عليها الملك .
– اجرى تعديلات من عندياته – كرر الملك بسخرية مريرة – على ماذا اجرى التعديلات ؟ على نص ملوكى ؟ ومتى اجراها ؟ الآن بالذات ، حيث تضغط علينا الثعابين من جهة ، ومن جهة اخرى تقترب تجارب زراعة القرنبيط من نهايتها .
– الملك براء . – صاحت الارانب بحماس متصاعد مسرورة لانتفاء الحاجة الى العصيان – فليعش الملك . ذاك الحقير اجرى التعديلات من عندياته .
– لماذا اجريتها ؟ – صاح الملك ومد قائمته الامامية بحركة اتهام – اجب امام العشيرة كلها وليس امامى .
– يا اخوتى ، ارحمونى . – صاح «الفطين» – اعلن التوبة امامكم . ولكن لماذا حصل ما حصل ؟ كنت طول الوقت افكر فيما قاله لنا «المتأمل» . وقد اعجبنى كل الاعجاب ما حدثنا به عن التنويم . صدقته بكل جوارحى . وتصورت ان الافضل لنا جميعا هو ان يسرع فى اثبات صواب رايه واقناع مليكنا وجماعتنا . يا اخوتى ، لم اكن اعرف ان النتيجة ستكون بهذه الصورة . . .
– من طلب منك ذلك ؟ ! – صاح به الجمهور مستاء – خائن ، حقير .
– اتركونى ، افقأ عينى يهوذا . – جاءت صرخة فظيعة من ارملة «المتأمل» .
– اعذرونى ، يا اخوتى . – انتحب «الفطين» .

– لا عذر للخائن ، لن نعفو عنك . – صاحت الارانب – الثعابين اخوتك .
وهنا نهض «المتعطش» والقى اخيرا افضل خطبة فى حياته . تحدث عن اللحظات الاخيرة من حياة المعلم . وتكلم عن كل ما رآه وسمعه . تنهدت ارانب كثيرة بحسرة ولوعة وهى تسمع كلامه ، ونشجت الاناث . حتى الملكة انتحبت ، وكانت ، لحظة بعد اخرى ، تقرب ورقات الكرنب من عينيها وتبللها بدموعها ثم تلقى بها الى جموع الارانب ، الامر الذى اثار كل مرة هياجا وارتباكا بينها رغم المصاب الاليم .
ناشد «المتعطش» الارانب بمنتهى الحماس ان تطور فى نفوسها الريبة بقوة التنويم القاهر لتواصل بالتالى القضية العظيمة التى بداها «المتأمل» .
وفى ختام الخطبة الرائعة انحى باللائمة على الملك وقال ان الملك الذى يختار الخائن مناديا له لا يستحق ان يكون ملكا حتى وان كان المنادى قد اجرى تعديلات من عندياته . وقال «المتعطش» : ولذا حان الوقت لتطبيق قانون الارانب الذى لم تنتفع به ابدا لسبب ما ، ويجب اجراء استفتاء فيما اذا كانت الارانب تنوى انتخاب الملك مجددا ام لا . وفى آخر الخطبة وعد «المتعطش» بانه سيقوم فى اقرب عيد بالركض ، امام الملك ذهابا وايابا ، على ظهر اى ثعبان . وهو يكرس هذه الفعالية لذكرى المعلم الراحل .
عندما فرغ من كلامه صفقت له الاغلبية الساحقة من الارانب بمنتهى الحماس . وكان واضحا من ابوازها انها مستعدة لانتخابات جديدة لمن يعتلى العرش ، بل وتتصور بوضوح كبير من سيعتليه .
الا ان الذين صفقوا والذين لم يصفقوا كانوا ينتظرون بمنتهى الفضول ما سيفعله الملك . وكان اولئك وهؤلاء راغبين ، فى قرارة نفوسهم ، بان يخدعهم الملك جميعا على نحو ما ، مع انهم لا يدركون الاسباب التى تدفعهم الى ذلك . انهم راغبون ، وخلاص .
ترك الملك العرش وبدا وكانه قد لوح تلويحة مستهينة به مع انه لم يفعل شيئا من هذا القبيل ، اجل ، بدا وكانه لوح مستهينا بالعرش ولسان حاله يقول : اتركه لكم بدون استفتاء . ثم وقف فى حزن صامت عميق ينتظر نهاية التصفيق .
– يا ارانب – قال اخيرا بصوت هادئ متجردا عن مصالحه الخاصة – اقترح عليكم ، طالما لا ازال ملكا ، ان نقف دقيقة صمت حدادا على

روح العالم العظيم وشقيقنا الحبيب «المتأمل» الذى استشهد كالابطال بين شدقى الثعبان وهو يجرى تجاربه التى دعمناها ماديـــا مع اننا لم نكن نستحسنها نظريا . . . وارملة الفقيد شاهدة على ما اقول . . .

– تلك حقيقة لا ريب فيها يا معيلنـــا . – همت الارملة بان تعول منتحبة بين الجموع ، لكن الملك اوقف نحيبها بحركة من يده كيلا تعكر صفو الحداد .

دهشت الارانب اشد الدهشة وهى ترى الملك يهتم «بالمتأمل» وليس بنفسه فى هذه اللحظة التى تطرح فيها مسالة الانتخابات .

وقف الجميع فى صمت الحداد ، فى حين مرت دقيقة واخرى ، وثالثة ورابعة . . . وقف الملك وكانه فى غيبوبة وما من احد يكسر الصمت . فليس من اللائق او المقبول القول بان لحظة الحداد انتهت من زمان . وتلك احدى الوسائل الفعالة التى يستخدمهـــا الملك ليثير فى نفوس الرعية انفعالا خفيا ضد الذين يرفع هو شخصيا منزلتهم . تظاهر الملك بانـــه عاد الى رشده فقـــام بحركة تدعو الارانب الى الانطلاق وتنفس الصعداء والشروع باداء الواجبات المعيشية التى لا مفر منها ، حتى اذا كانت تلك الواجبات تعنى نهاية سلطته الملكية .

– والآن – قال الملك بضبط نفس ونبل – يمكنكم ان تنتخبوا ملكا لكم . لكننى وفقا لقوانينا امتلك الحق فى الاعراب عن آخر ارادة ملكية قبيل التصويت . الست مصيبا يا ارانب ؟

– نعم ، نعم . – صاحت الارانب متاثرة لقدرته على كظم الغيظ .

– فايا كان ذاك الذى تنتخبونه بدلا عنى – واصل الملك كلامه – لا بد من توفر الصحة البدنية والانضباط فى المملكة . والآن ستؤدون باشرافى التمارين الرياضية الانتاجية وبعد ذلك نشرع بالتصويت فورا .

– هيا – صاحت الارانب – فقد جمدت الدماء فى عروقنا .

اومـــا الملك بيده آمرا جوقة البلاط بالعزف وراح يدير التمارين الرياضية الحكومية بصوت يغطى على انغام الموسيقى .

– قيام ، جلوس ، قيـــام ، جلوس . . . – اوعز الملك ملوحـــا بقائمتيه عشر مرات متتالية مع تشديد تدريجى على سرعة الايعازات التى تصاحبها الموسيقى ، والارانب تنهض وتربض طائعة .

– فلنصوت يا ارانب . – صاح الملك بنفس الوتيرة بعـــد ان صمتت الموسيقى ، فنهضت الارانب مع ان التصويت لا يجرى وقوفا من كل بد .

– يا ارانب ، من يصوت لصالحى ؟ – صاح الملك ، وما ان افاقت الارانب على نفسها حتى وجدت قوائمها الامامية مرفوعة لتأييده .

رفعت جميع الارانب قوائمها بالمبايعة مـــا عدا «المتعطش» . وكان هناك ارنب وجد نفسه بالصدفة جنب «المتعطش» فخاف ان يشتبهوا به فرفع كلتا قائمتيه .

هم عداد البلاط بحساب القوائـــم المرفوعة ، الا ان الملك تبادل النظرات مـــع رعيته وعبـــر باشارة فى منتهى الديمقراطية عن الاستهانة عموما باية حسابات تافهة ولوح بقائمته الامامية ولسان حاله يقول : لا موجب لتشويش الوئام بالجبر والحساب .

– يا ارانب ، من يصوت ضدى ؟ – سأل الملك بصوت اكثر رقة .

كان «المتعطش» هو الارنب الوحيد الذى رفع قائمته ضد الملك ، فاومأ له هذا الاخير بسماحة وطيبة خاطر وكانما يستحسن واقـــع اداء الواجب الوطنى .

– من امتنع عن التصويت ، يا ارانب ؟ – سأل الملك بصوت يفهم منه انه عارف بالطبع ان احدا لم يمتنع عن التصويت ، ولكن تلك هى متطلبات القانون ، ولا بد من تنفيذها .

وبعد ان هيأ الملك بسخاء الفرصة للممتنعين الوهميين عن التصويت لكى يكشفوا عن انفسهـــم قال عندما اتضح ان احدا لـــم يمتنع عن التصويت :

– وهكذا نرى النتيجة واضحة . الجميع ايدونى ما عدا اثنين .

– من الثانى ؟ – سألت الارانب مندهشة وهى تتطلع فى بعضها البعض واقفة على اطراف اصابعها لترى الحشد بشكل افضل .

– انا الثانى – قال الملك بصوت مرتفع ورفع قائمته ليرى الجميع انه يقصد نفسه بالذات . ثـم التفت الى «المتعطش» واضاف : الشعب الذى ايدنى لم يؤيدنا انا واياك مع الاسف . . .

– عجيب . – قهقهت الارانب بشعور من الطيبـــة ازاء الملك لان مكانته تتوقف على تصويتهـــا لصالحه ولانها ، هى الارانب البسيطة ، لم تخيب ظن الملك العظيم .

عاد الى الملك من جديد مزاجه المرح الطيب . فهو يعتقد ان التمارين الرياضية الانتاجية التى ابتدعهـــا فى حين من الزمن ، رغم بساطتهـــا الظاهرية انما هى فى الواقـــع اسلوب ناجع لتجديد غريـــزة الخضوع والانصياع التى يصيبها الضعف والفتور بين حين وآخر .

– اننى اواصل واجباتى غير الهينة – قال الملك وهو يغمز للرعية بطيبة خاطر – ما راى الارانب بخصوص اقتراح «المتعطش» ؟

– سيكون ذلك مشهدا مؤثرا كالمهرجان – صاحت الارانب مبتهجة .

– ذهابا وايابا ، اليس كذلك ؟ – سأل الملك من «المتعطش» وهو يغمز للرعية .

– نعم ، ذهابا وايابا . – اجاب «المتعطش» بجد .

– ذهابا تعنى الى الداخل ، وايابا الى الخارج ، اليس كذلك ؟ – سأل الملك وسط قهقهة الارانب .

– كلا – اجاب «المتعطش» بهدوء – ذهابا وايابا فى الخارج على ظهر الثعبان .

– انت تختار ثعبانا ام تقبل باى ثعبان تصادفه ؟

– اى ثعبان .

– يا ارانب – خاطب الملك الرعية – سنختار اذن ثعبانا اطول لزيادة الاثارة ، اليس كذلك ؟

– بلى ، اطول . – صاحت الارانب – فهذا اكثر متعة .

– طيب – قال الملك – سنحاول ان نتفق مع الافعوان الكبير . . . ولكن خذ بالك ، يا «متعطش» ، لن يوافق الثعبان على مثل هذه الاهانة الا اذا منح حق الابتلاع .

– بالطبع – قال «المتعطش» بهدوء – وانا اكرس هذه الركضة لذكرى المعلم الذى لا ينسى .

– طبعا – اجاب الملك – حالما نتفق مع الافعوان الكبير نقيم مهرجانا لعشيرتنا كلها .

– يحيا الملك ، المجد والخلود للمعلم ، فلتعش المهرجانات – صاحت الارانب فى منتهى البهجة والحبور .

– وبالمناسبة ، ماذا نفعل للخائن ؟ – قال الملك واوما الى «الفطين» بان يتقدم اليه ، وكان هذا الاخير قد اقترب من الجمهور خلسة عندما انشغل الملك والارانب بامور اخرى ، لكنه لم يتجرأ على الاختباء بين الجموع .

تقدم «الفطين» ووقف امام الجمهور منكس الرأس .

– الموت للخائن . – هتفت الارانب عندما رأت «الفطين» وتذكرت الخيانة من جديد .

– ليس ذلك بمقدورنا – قال الملك متأملا – فنحن من آكلة النبات .

– ماذا لو اطعمنا به الثعبان الذى سيركض «المتعطش» على ظهره ؟ – سأل احد الارانب .

– فكرة وجيهة – وافق الملك – لكن ذلك ليس بمقدورنا ، فنحن من آكلة النبات ، ثم ان التجربة العلمية لن تتم . فاية مخاطرة للتنويم هناك اذا كان الثعبان يعلم مسبقا باننا خصصنا له ارنبا آخر ؟

– ثم اننى ، كالمعلم ، لا استطيع ان اجازف الا بنفسى – اعلن «المتعطش» فخورا .

فقال الملك :

– اقترح ان ننفى الخائن الى الصحراء نفيا مؤبدا ، فليقضم اغصان الزيزفون المتحشفة طول عمره . . .

– فليقضم اغصان الزيزفون – كررت الارانب مبتهجة .

– خذوه مخفورا – امر صاحب الجلالة ، فسحب حارسان «الفطين» وهو يتطلع الى الملك والملكة وجميع المقربين بعينين زائغتين كعينى قط غريق .

– خدّاع – تفوهت الملكة آسفة لانها لم تتمتع بهاتين العينين اللتين ستضيعان جزافا – قال بنفسه انه لن ياكل هديتى الى الابد ، لكنه اكلها .

– لا يزال شابا ، اسنانه تصلح لقضم الزيزفون – عقب «الحكيم العجوز» – تصوروا ماذا كان سيحصل لو نفونى انا الى هناك ؟

تطلع هذا الانانى العجوز الى الارنب المغضوب عليه وتذكر انه هو ايضا كان يمكن ان يتعرض للغضب مثله ، فراح يطالب الآخرين بالمشاطرة والاشفاق وكانما هو فعلا المغضوب عليه .

وعندما سحبوا «الفطين» من الحشود تناهى من جديد صوت الارملة الرهيب :

– قاتل . – صاحت وهجمت على «الفطين» – من الذى يعيل يتاماى ، يا قاتل ؟

حالوا دونها ودونه بشق الانفس ، وعم جموع الارانب هرج ومرج . وتمكن الملك من احلال الهدوء بحركة من قائمته الامامية وعاد يخاطب ارملة «المتأمل» :

– زوجك هو شقيقنا رغم اختلاف الراى . . . ولن نتركك فى محنتك . اولادك اولادى .

– باى معنى ؟ – قلقت الملكة .

– باسمى معنى للكلمة – قال الملك واوما الى السماء . ثم اشار الى الارملة وخاطب مدير خزينة البلاط قائلا : – دحرجوا لها راسين من الكرنب للمرة الاولى ، ثم سلموها يوميا راسا واحدا يحق لها ان تستبدله براس قرنبيط حالما تنتهى التجارب التى نتابعها ونساعد على انجازها . . اما الآن فاذهبوا جميعا الى الجحور . طابت ليلتكم .

وبامر من مدير الخزينة دحرجوا من مستودع البلاط راسين من الكرنب .

– شكرا لك ، يا صاحب الفضل – انتحبت الارملة وخرت بوجهها على كلا الراسين واحتضنتهما فى الوقت ذاته من الجانبين كيلا ينهشهما احد .

– عفارم على مليكنا . – قالت الارانب وهى تتفرق متوجهة الى جحورها ، وتطلعت بعض الانثيات بعين الحسد الى ارملة «المتأمل» . وقالت احداهن وهى تغرز قائمتها فى جنب زوجها العبيط :

– ازواج الاخريات يجلبون الخيرات الى المنزل حتى بعد الموت ، اما انت فلا جدوى منك حتى فى حياتك التى تقضيها متسكعا فى الادغال .

– يا عزيزتى ، لم يكن زوجى ايضا افضل من زوجك فى حياته . – هداتها الارملة بهمة غير متوقعة وراحت تدحرج رأسى الكرنب صوب جحرها .

فى اليوم التالى توجه مناد جديد الى درب الحياد ، وتقابل هناك مع احد معاونى الافعوان الكبير ، واقتاده المعاون المذكور الى بلاط ملك الثعابين تحت الارض .

كان الافعوان الكبير منبطحا فى رواق رطب دافئ هائل فى بلاطه التحتانى محاطا بحاشية من اعوانه وحراسه المخلصين . وكان طبيبه الشخصى يزحف على امتداد بدنه المستقيم الهائل ويراقب سرعة تحرك الارانب فى معدته . البلاط التحتانى منار بمصابيح فوسفورية جهنمية الاضواء . وعلى امتداد الجدران عرضت منحوتات لأهم غنائم الصيد التى ابتلعها الافعوان الكبير فى زمن ما .

نحات البلاط الشهير يستطيع ان يصنع نسخة طبق الاصل لاى حيوان يبتلعه الثعبان ، وذلك بالاستناد الى شكل نتوء بطنه .

ومن بين منحوتات الارانب والغزلان والكراكى والقرود الكثيرة يبرز تمثال لشاب من البشر كان الافعوان الكبير قد ابتلعه بشق الانفس ، فانتخب ملكا للثعابين تقديرا لهذه المأثرة .

فان تنويم البشرى وابتلاعه ، وخصوصا اذا كان على ظهره قراب سهام ، كالذى على ظهر ذاك الشاب بالذات ، امر يسبب آلاما تفوق الوصف .

واذا كنا نريد ان نفضح سرا من اسرار الدولة نقول ان الافعوان الكبير لم ينوم ذاك الشاب فى الواقع . فقد وقع عليه عندما كان هذا الاخير نائما تحت شجرة كستناء فى الادغال فى حالة سكر شديد بعد ان اقتلع العسل البرى من جوف تلك الشجرة واكل منه ما اكل حتى هوى على الارض .

وتجلت فطنة الافعوان ، وكان ثعبانا عاديا آنذاك ، فى امتناعه عن التهام الضحية تحت الكستناء مباشرة ، فقد كان قفير النحل المدمر لا يزال يطن عن آخره ، ولذا سحب البشرى الى اعماق الادغال واكله هناك . واستغرقت عملية الهضم عدة ايام ، حيث تحشدت الثعابين وراحت تتابع بطولات عملية ابتلاع البشرى النهم المنحوس الذى صار يسمى ، فيما بعد ، «البشرى فى ريعان الشباب» .

وقد رات كل الثعابين المتحشدة هناك بام العين ان الافعوان ابتلع البشرى بالفعل . وفيما بعد تحدث الافعوان الكبير عن الكيفية التى نومه بها .

وبمر السنين نسى الافعوان ان الشاب كان فى حالة سكر شديد ، ولذا فهو يعتقد صادقا بانه نومه بالفعل . وليس فى ذلك ما يثير الاستغراب . فالافعوان الكبير راى هذا البشرى النائم مرة واحدة لا غير ، بينما سمع مئات المرات انه نومه ، سمع ذلك من نفسه فى البداية ، ثم من الآخرين .

وتجدر الاشارة الى ان ثعابين شهيرة اخرى ابتلعت بعضا من ابرز الحيوانات التى عرضت نماذج منحوتة لها فى الرواق . ولكن الافعوان الكبير ، عندما عين ملكا للثعابين ، صار لسبب ما يتشاجر مع هذا او ذاك من مشاهير الثعابين ، وبعد ذلك يختفى الثعبان الشهير ، بينما تبقى معروضاته فى الرواق . ولذا اضطر الافعوان الكبير ان ينسب لنفسه النماذج البارزة من الابتلاع كيلا تضيع اهميتها التربوية جزافا .

واذا اردنا الدقة نقول انه لم يكن مضطرا الى الاستئثار بهذه

الانجازات البارزة . فان اقرب معاونيه ومستشاريه هم الذين نسبوا اليه تلك المآثر .

– انا لم ابتلع هذه النعامة بالذات – كان الملك يبدى مقاومة ضعيفة فى هذه الاحوال . فيعترض عليه الوزراء والمستشارون بحدة ، بل وبشىء من التشفى :

– ما اكثر الحيوانات البارزة التى ابتلعتها عندما لم يكن بمقدور اى نحات ان يخلد مآثرك !

– صحيح – يوافقهم الافعوان الكبير فينسبون اليه منحوتة جديدة لحيوان لم يبتلعه هو شخصيا .

وتجدر الاشارة الى معجزة اخرى من معجزات البلاط . ففى اوطا بناية من بناياته يقع مستودع الارانب الحية تحوطا للكوارث الطبيعية .

وفى المستودع زهاء الف ارنب حى ، لكنها معلبة من خلال التنويم . الارانب رابضة فى صف واحد تغط فى حالة سبات . وكل صباح ومساء يتفقدها ابشع ثعبان فى العشيرة واسمه «البراد» .

واذا بدت على ارنب ما امارات التخلص من التنويم ، وتلك حالات حدثت بالفعل ، فان نظرة واحدة من «البراد» تكفى ليغط الارنب فى السبات من جديد . ومن واجبات الثعبان-«البراد» ان يسهر على الارانب كيلا تستيقظ او تنتقل فى الوقت ذاته من حالة السبات الى الموت المؤبد ، وتلك حالات تحدث احيانا . ومن واجب «البراد» ان يخلى الموتى دون تأخير . وفى اوقات القيظ الشديد ياخذون من هناك ارانب فى منتهى البرودة ويرصفونها على بدن الافعوان الكبير .

والاعجوبة الثالثة فى البلاط التحتانى هى غرفة اللقى التى تحتوى على اهم الحاجيات التى يعثر عليها فى غائط الثعابين . ولذا تعودت الثعابين على فحص غائطها باهتمام . وبالاضافة الى ذلك يوجد فى مملكة الثعابين قانون يلزم الثعابين التى تلتهم بشرا بان تسلم الحلى والاسلحة غير الصالحة للهضم .

والحقيقة فان الثعابين تحاول الحفاظ على علاقات طيبة مع السكان . فالافعوان الكبير يناقش رسميا كل حالة من حالات ابتلاع البشر اذا عرف اقرباؤهم او اهلهم بالحادث . ولوحظ ان اقرباء الفقيد سرعان ما يهدأون قانعين عندما تعاد اليهم ، مع الاعراب عن المؤاساة ، بقايا القتيل غير الصالحة للهضم .

وبالمناسبة فان عامة الثعابين لم تفهم بالكامل ما اذا كان الافعوان

الكبير يحبذ ابتلاع السكان ام لا . فهى تفهم انه فى قرارة نفسه (المتواجدة فى قرارة معدته) يستحسن ابتلاعهم دوما ، لكنه ، نظرا لاعتبارات سامية تخص مصالح العشيرة كلها ، يمكن ان يستهجنه ، واحيانا باقسى اشكال الاستهجان . لكن السكان ، من جهة اخرى ، مشغولون دوما بالحزازات القومية ولا يندر ان يطلبوا سرا مساعدة من الثعابين ليتمكنوا من التنكيل بخصومهم . وبدافع من الحذر يتوصل الطرفان فى مثل هذه الحالات الى اتفاق بوساطة قرد يتلقى حصته من الصفقة حيث يمنح حق تخريب الحقل فى الليلة الاولى من غياب صاحبه قبل ان يعرف احد بمقتله .

كان بالامكان استئجار الثعبان المناسب مقابل خمسة ارانب . والافعوان الكبير لا يعير بالا لذلك الا اذا اقتضت المصلحة العامة اتخاذ اجراءات صارمة .

ولاعتبارات اللياقة يأمر الافعوان الكبير عادة بانزال الستارة على تمثال «البشرى فى ريعان الشباب» عندما يتحدث شخصيا الى السكان .

ولكن حان وقت العودة الى المنادى الذى نقل الى الافعوان الكبير اقتراح ملك الارانب وهو يتطلع بين الفينة والفينة الى اثاث قاعة البلاط التحتانى الذى يضفى عليها مسحة من الفخامة والهيبة ، اى صفة جهنمية مشؤومة .

تحدث المنادى عن شروط ركضة «المتعطش» على ظهر الثعبان . وكما هى العادة دوما فى دبلوماسية الارانب لم يذكر المنادى شيئا بصراحة . فقد طلب الملك اشعار شقيقه العزيز بانه اذا قبل ثعبان نشناش هذا الاقتراح وقدم درسا مفيدا للطرفين فسيعود ذلك بالمنفعة على كلتا العشريتين من الناحيتين الفسيولوجية والسيكولوجية .

كما اشار المنادى الى التصرف الفاحش للثعبان الذى ابتلع «المتأمل» .

وقال ان هذا الثعبان خالف المعاهدة الدولية بشأن الابتلاع ذى النزعة الانسانية فدخل فى حوار مهين مع الارنب المهضوم واستخدم التعذيب الذى اتخذ شكل التوانى والتردد والاهواء ، واخيرا رفض ابتلاع الارنب المعذب حتى الموت ، ولذا اضطرت الضحية التعيسة ان تلقى بنفسها فى فم الثعبان عنوة . واضاف المنادى فى الختام : كل ذلك حدث على مرأى من ارنب آخر حى لا ينوى ان يقطع عهدا بالصمت .

استمع الافعوان الكبير الى المنادى وفكر قليلا ثم قال :

– بلغ الملك نيابة عنى : اننا لسنا بشرا حتى نقيم مهرجانات . اما بخصوص السلوك المشين الذى اقدم عليه الثعبان فنحن شاكرون وسيتلقى الثعبان المذكور جزاءه .

عندما غادر المنادى المكان سأل الافعوان الكبير من الصدر الاعظم ، اى من رئيس وزرائه :

– ما هو «عهد الصمت» ؟

– هو النوم بعد الغداء – اجاب الصدر الاعظم دون تفكير . فهو يجيد الاجابة عن كل الاسئلة دون تفكير ، ولذا عين رئيسا لوزراء الملك .

وامر الافعوان الكبير :

– اجمعوا الثعابين . ساتحدث الى الرعية . ويجب ان يحضر ذاك الذى ابتلع «المتأمل» . وليحضر جميع السكان الراشدين ، حتى الافاعى حاضنات البيوض ، يجب رفعها عن بيوضها واقتيادها الى هنا .

وفى الساعة المحددة ربض الافعوان الكبير امام ثعابينه التى تتلوى طول الوقت . كان ينتظر ان تستقر ابدانها امامه بشكل مريح . بعضها تسلق شجرة التين القائمة امام البلاط حتى يرى الملك بشكل افضل ويراه الملك اذا اراد .

بدأ الافعوان الكبير خطابه كالعادة بالسلام الملكى . لكن صوته هذه المرة لا ينم عن النشاط والفرح لرؤية ابناء عشيرته ، بل على العكس ينضح مرارة وغضبا .

– يا احفاد التنين . – طفق يتكلم وهو يتطلع متقززا فى صفوف الثعابين .

– يا ورثة الامجاد . – واصل كلامه بمرارة مشيرا الى ان الورثة يبذّرون الميراث العظيم .

– يا ابناء الافعوان . – استمر فى الكلام بصوت رنان يغطى على الفحيح الفطرى ، ولسان حاله يقول : ما من عار اشنع من وجود مثل هؤلاء الابناء .

– ايتها الثعابين الفتية . – تأوه بسخرية مَن فقد كل امل . . .

– عار على راسى الاشيب وشنار . – غاص الافعوان الكبير فى نوبة هستيرية كان قد تعود عليها جيدا .

فماجت الثعابين مدمدمة بمشاطرة وتناهى منها فحيح .

– ماذا حدث ؟ نحن لا نعرف شيئا – تساءلت ثعابين الاطراف

الابعد التى تعتقد ان قلة معارفها وجهلها على العموم مزية لا تتوفر الا فى الاطراف النائية . كيف لا ، وهى تعنى غياب المعارف الكريهة ؟

– تسألوننى : ماذا حدث ؟ – قال الافعوان الكبير بمنتهى المرارة – انا الذى يجب ان اسالكم : ماذا حدث ؟ يا شيوخ الثعابين ، يا رفاقى فى اراقة الدماء . لاى غرض نومتم فيالق الارانب ؟ لاى غرض ابتلعتموها ؟ لاى غرض نشأت فى بطونكم حزوز وشروخ وجروح لا تلتئم ؟ !

– يا مليكنا . – فحت الثعابين الشائخة – من اجل ننيننا العظيم .

– يا اخواتى من حاضنات البيوض وسواهن – خاطب الملك الجنس اللطيف – اسالكن مع من تقضين الليالى ومن تحتضنّ ؟

– يا مليكنا . – اجابت الافاعى من حاضنات البيوض وسواهن – ننام مع الثعابين ونحتضن بيوضا تفقس عن صغار الثعابين .

– كلا – هتف الملك بمنتهى الالم والمرارة – تقضين الليالى مع الارانب وتحتضنّ بيوضا من نفس النوع .

– ماذا حدث يا ننيننا العظيم ؟ – فحت الافاعى مرتعبات .

– انها الخيانة بعينها – قال الثعبان الذى تعود على رؤية كل الامور بمنظار اسود . – لقد استبدلوا البيوض تحت اناثنا .

– «الابتر» – صاح الملك فجاة – اين «الابتر» ؟

– انا هنا – اجاب «الابتر» وازاح اغصان التين واشراب من بين اوراقها . ففى الآونة الاخيرة صار يفضل حضور الاجتماعات الملوكية ممتطيا شجرة النجاة .

– اين انت ؟ – فح الملك وعيناه تجولان فى شجرة التين بحثا عن «الابتر» ، وهو فى اشد حالة من الانفعال – اوراق التين ، والموز . . . الفساد . . . واين «الاحول» ؟

– انا هنا – اجاب «الاحول» من الصفوف الخلفية ونهض بشق الانفس وتطلع الى الملك بصفحة وجهه السليمة – لم استطع ان اشق طريقى اليك . . .

– اوه ، يا «احول» – هدده الملك – بدا الفساد منك ايضا . . . اين صفحة وجهك الثانية ؟

– يا مليكى – فـ «الاحول» بصوت كسير – الفيلة داستها واتلفتها . . .

بهذه الصورة هيأ الملك افراد رعيته نفسيا واخبر الحاضرين بالسلوك الشائن الذى ارتكبه الثعبان الشاب اثناء ابتلاع «المتأمل» . وعندما كان

يتكلم سحب اثنان من الحراس الثعبان الشاب الذى اخفق ذلك الاخفاق الشنيع فى اداء المهمة .

وتبريرا لسلوكه طفق يحكى القصة المعروفة . فقد استولى عليه الارهاق ، وخدعه الخلد فى البداية ثم ارتبك اشد الارتباك عندما رأى ارنبين بدلا من الارنب الموعود ، فلم يكن قد سمع مطلقا ان الارانب تتكاثر بمثل هذه السرعة .

واستشاطت الثعابين غضبا لسلوك ابن جلدتها ، وسألته :

– لماذا تكلمت معه ؟ الا تعلم باننا نبتلع الارانب بصمت ؟

– اعلم طبعا – اجاب الثعبان الشاب – لكن ذاك كان ارنبا غريب الاطوار . نومته لكنه ظل يتكلم ويحرك اذنيه ويعطس فى وجهى .

– ثم ماذا ؟ يجب ان تبتلعه وان كان يعطس .

وهنا تكلم ثعبان من الاطراف واعرب عن الاستنكار بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن كل ثعابين الاطراف . وقال انه شخصيا صادف حالة من هذا النوع عندما وقع على ارنبين كانا فى اوج الوصال الجنسى . فهو ، خلافا لابن جلدته المغضوب عليه ، لم يرتبك بل نومهما كليهما وابتلعهما فى الحال .

استمعت الثعابين بارتياح واحترام لحديث ثعبان الاطراف . حتى الملك بدت عليه امارات الهدوء وهو يستمع اليه . فلم يكن قد ابتلع مرة ارنبين فى حالة وصال جنسى ، ولذا قرر ان يتكلم مع ثعبان الاطراف على انفراد بعد انفضاض الاجتماع ليعرف منه ، بمزيد من التفصيل ، الاحاسيس الذوقية التى شعر بها ذاك الثعبان اثناء هذه الاكلة اللذيذة .

وقال الملك :

– تعلموا من خبرة الثعبان القادم من الاطراف النائية ، فقد تكلم هنا بما يثير الاهتمام . . .

حاول الثعبان الشاب ان يبرر فعلته قائلا بان ارنبيه لم يمارسا الوصال الجنسى ، خلافا لارنبى ثعبان الاطراف ، بل كانا ، بالعكس ، يفكران معا ، وهذه الحالة بالطبع تختلف عن تلك .

– لا تختلف عنها اطلاقا – فحت الثعابين مستاءة .

وقام الثعبان الشاب بآخر محاولة لتبرير تصرفه فقال انه حرم الارانب من اذكى ارنب بينها فبتر رأس الحكمة عندها وفى الوقت ذاته كسب حكمته من اجل الثعابين . ورد عليه الملك قائلا :

– الى متى نبقى نعلم الحمقى من امثالك ؟ لكل حكمة مغزاها داخل

النوع الحيوانى المعين ، ولذلك فان حكمة الارانب ليست حكمة بالنسبة لنا ، بل هى حماقة . . . عليك ان تشكر ثعبان الاطراف لانه حسّن امزجتنا بحديثه . . . ولذا قررنا ان ننفيك الى الصحراء بدلا من ان نقطع رقبتك . ستبتلع هناك اغصان الزيزفون طالما انت من اكلة النبات ، وليكن ذلك درسا «للابتر» . . .

وباشارة من الافعوان الكبير تفرقت الثعابين زاحفة فى مختلف الاتجاهات . وسحبوا الثعبان الشاب صوب الصحراء تحت حراسة مشددة . وسمع تمتمة الملك من خلفه يقول :

– «. . . الثعابين يجب ان يحكمها ثعبان . وانا ؟ من انا ، يا ترى ؟ جذع عفن ؟» .

مرت على ذلك عدة شهور وربما عام . لا احد يعرف على وجه التحديد . كان الثعبان المنبوذ يزحف على الرمال الساخنة بحثا عن الطعام وهو يلعن مصيره ، ويلعن المنادى على وجه الخصوص .

واذا نظرت الى بدنه المتغضن الرخو يصعب عليك القول انه كان قبل ما لا يزيد عن عام ثعبانا فتيا متينا تعلق عليه كل الآمال . كلا ، كل ما يمكن ان يقال عنه اليوم انه تنين عجوز قضى عمره المديد فى بؤس شديد .

لكن ذلك ، فى الحقيقة والواقع ، من فعل العذاب النفسانى الناجم عن سوء التغذية المزمن .

تخلى عن الزيزفون منذ الايام الاولى ، فالمعدة تتطلب بالحاح مادة حيوية ذات تنظيم ارقى من لحاء الشجر .

استخدم عدة مرات اسلوب «الاحول» لاغواء الصقور المحومة فوق الصحراء . الا ان هذا الاسلوب باهظ التكاليف فى ظروف الصحراء . فالرقاد امدا طويلا فوق الرمال فى اشعة الشمس الحارقة وبدون حراك عذاب اليم .

ذات مرة اصيب بضربة شمس ولم يستعد قواه الا بشق الانفس فزحف الى ظلال الزيزفون ، وقرر الا يتظاهر بالموت بعد الآن . وعلى العموم لاحظ هنا فى الصحراء ان التظاهر بالموت شىء لا يبعث السرور . فالتظاهر بالموت ممتع اذا كان المتظاهر به سليما معافى ، اما اذا كان مريضا منبوذا فى الصحراء فهو شىء ممقوت ، لانه اقرب الى الحقيقة .

وفى آخر المطاف تكيف لتصيد الفئران والعظايا جنب واحة صغيرة .

كان يغوص فى الرمال وينتظر حتى ترغب الفئران او العظايا فى شرب الماء وتمر على مقربة منه . وعند ذاك يخرج رأسه من تحت الرمل فتتجمد هلعا لرؤيته ويلتهمها .

واذا تأخرت طويلا ولم تأت الى المورد كان ينفض الرمال عن بدنه ويشرب الماء ويبرد بـــه جلده الساخن ويغوص من جديد فى الرمـل المقيت .

ذات مرة عرج الارنب «الفطين» على المورد . وكان قد تغير ، هو الآخر ، بشكل نظيـع منذ تلك الازمان البعيدة . تناثر شعره وخرمت اذنه اليمنى بالصبار فانفلقت شطرين مثل ذيل السنونو . ونحل بدنه حتى غدا بالامكان حساب اضلاعه دون جهد ، وهذا ، بالمناسبة ، ما فعله الثعبان عفويا .

– مرحبا بالخائن – اخرج الثعبان رأسه من تحت الرمل ونفضه – لم اكن اظن باننى ساصادفك فى هذه الدنيا .

كف الارنب عن لعق الماء والتفت .

– عجيب ، ثعبان صحراوى ؟ – سأل «الفطين» وهو يتطلـــع الى الثعبان دون خوف او وجل . ومما يؤسف له ان الجراة غالبا ما تنجم عن الشعور بانعدام قيمة الحيـــاة ، فى حين ينجم الجبن دوما عن المبالغة الوهمية فى قيمتها .

وبالمناسبة «فالفطين» نفى من الادغال قبل الثعبان الشاب ولا يدرى بمصيره ، ولم يكن قد رآه من قبل مطلقا .

– الم تعرفنى ؟ – سأله الثعبان الصحراوى باكتئاب مدركا بـان مظهره قد تبدل كثيرا خلال هذه الفترة ليس صوب الاحسن بالطبع .

– لم اتشرف بمعرفتك سابقا – اجاب «الفطين» بلامبالاة واراد ان ينط ، لكنه توقف مهتما بما اضافه الثعبان . فقد فح هذا الاخير قائلا :

– بسببك فقدت موطنى ، اى المكان الذى كان لى فيه طعام طيب لذيذ . بسبب انشودتك الدنيئة زحفت والتهمت «المتأمل» وعوقبت بالنفى الى الصحراء .

– آ ، هذا انت ، يا مغفل – قال «الفطين» باحتقار – لقيت جزاءك .

– اكثر ما اكره بين الخلق فى الدنيا هو انت ، يا خائن لعين – فح الثعبان الصحراوى باسنان مصطكة وهو ينظر الى «الفطين» بعينيـــن متقدتين من الحقد والالم .

– تصور ، انا ايضا اكرهك اكثر مـــن كل خلق الله – اجابـــه

«الفطين» – اجل ، ارتكبت خطيئة عندما خنت شقيقى الارنب ، لكنـك ، يا ابله ، لم تستفد من خيانتى بالشكل اللازم ولذا جردتها من مغزاها . فما اعظم اهانة الخائن عندما يدرك بان خيانته لا جدوى منها .

– اكرهك – كرر الثعبان – انت الذى دفعتنى الى هذه الغوايـــة المنحوسة .

– ابصق على كراهيتك – قال «الفطين» – الصحراء قفراء لا مرتع فيها ، ولذا يتبقى وقت كثير للتأمل والتفكير . . .

– وفيم فكرت ، يا سافل ؟ – سأل الثعبان وهو يزحف صوبه رويدا رويدا .

– فكرت فى الكثير – اجاب الارنب دون ان يلتفت الـــى زحف الثعبان – لقد ادركت سر الخيانة . فليس عبثا انهم نعتونى «بالفطين» . فى البداية ظننت ان المشكلة كلها فى ورقة الكرنب المنحوسة التـــى قطعت على نفسى عهدا للملكة بان اجففها للذكرى ، ثم لم اتمالك واكلت نصفها فى الطريق . وفيما بعد فهمت باننى لا اريد اطلاقا ترك مائـــدة الملك . وبعد ذلك توصلت ، فى ادراكى ، الى الامر الرئيسى : مصيدة الخيانة ، اية خيانة ، عندما تدبر ولم تقترف بعد ، انما تكمن فى ازدواجية الموقف .

– ما تلك الازدواجية ؟ – سأل الثعبان وتقدم نحو الارنب وهـو يتخيل كيف ستلوى عضلات بطنه اضلاعه الواهنة .

– الازدواجية ، يا اخى – واصل «الفطين» كلامه وكأنه تلقى حافزا مشجعا – عندما تنوى الخيانة تغدو ذهنيا مالكا لكل الثروات التى توفرها لك الخيانة . تصورت نفسى مالكا للكرنب الطازج والفاصوليـــا الخضراء والحمص اللذيذ ناهيك عن صغائر الاطعمة كالجزر . كل ذلك امتلكتـه قبل ان اقترف الخيانة . تلك هى الخدعة بعينها . فى الاحلام والامانـى اجد نفسى فى حالة وكأننى اجتزت حدود الخيانة ، وسرقت كـــل تلك الخيرات من المصير ، ثم عدت الى حالة الارنب النزيه دون ان اقترف الخيانة بالفعل . وربما اقدم على تلك الفعلة تغدو الفرحة الناتجة عـــن كونى خدعت المصير ، اى اننى سرقت كل ثمار الخيانة ، ذهنيا ، دون ان ادفع اى ثمن ، فرحة عظيمة تفوق التصورات عن التوبة فى المستقبـل . تلك هى طبيعتنا فنحن نستطيع ان نفرح لافراح نتوقعها ، ولكننا لـن نستطيع ان نتعذب من تأنيب الضمير بسبب الخيانة المدبرة المرتقبة . واذا استطعنا ان نتعذب من تأنيب الضمير فبدرجة اضعف بالف مـرة .

تلك قضية مفروغ منها . فكيف يحصل ذلك كله ؟ يخيل الى اننى اقترفت الخيانة ذهنيا ، ولا ضير فى ذلك ، فالعيش ممكن . ولذا فلا ضير فى الخيانة نفسها . واننى لا اجد اية صلة بين شعورى بانه لا ضير فى الخيانة نفسها وبين كون هذا الشعور نتيجة لكون الخيانة نفسها لم تقترف بعد . فهل تفهم مدى غدر المصير والقدر ؟ ولكى يدفعنا الشيطان لاقتراف الشر يخفف من خوفنا منه بامكانية مغازلة الشر دون اقترافه . ويقول الشيطان : لن ارغمك على اقتراف الشر ، كل ما اظنه هو ان لديك فكرة خاطئة عنه . فهو ليس شرا ، انه حسبان رشيد وفرصة للتخلص من الاوهام الحمقاء . وعلى اية حال اطلع عليه ، تحدث معه ، تمرن على علاقاتك ومواقفك المرتقبة معه ، واذا لم يعجبك ذلك يمكنك الا تفعله . وهنا تطبق علينا المصيدة ونقع فى الفخ . فطالما نحن نلعب ونغازل الشر ، يقول لنا وعينا البليد ، ان ذلك ليس شرا مقترفا ، لكنه فى الواقع شر مقترف لاننا عندما غازلناه فقدنا تقززنا الطاهر الذى منحتنا اياه الطبيعة . ولذلك بالذات تدفع اجور الخونة سلفا ، وتدفع على الدوام بقدر ضئيل الى حد مشين . ولكن بالامكان دفع اجور اقل . فمهما كانت الاجور المدفوعة قليلة يتصورها الخائن ، قبل اقتراف الخيانة ، ربحا مجانيا صافيا ، فالخيانة لم تقترف بعد ، بينما الاجرة مقبوضة والفرحة متوفرة . وطالما الفرحة موجودة فلا ضير فى الخيانة المرتقبة نفسها ، والا فمن اين جاءت الفرحة . . .

– كلامك فى منتهى التعقيد – قاطعه الثعبان الصحراوى – فانا ، مثلا ، ابتلعت اذكى ارنب ، ومع ذلك لا افهمك جيدا . . .

– اسمع اذن – واصل «الفطين» كلامه – فى تلك اللحظة تدرك استحالة التراجع . فالروح فسدت ، لاسيما وانهم لم يدفعوا لك بالكامل . وتشعر بالظلم الفاحش فى معاملتهم لك . اجل ، فى معاملتهم لك بالذات ، وليس لذاك الذى يتعرض للخيانة . وتشعر بالحقد عليه . فعندما سمح لك بان تخونه خانك هو ايضا بذلك ، فقد غدا له ضلع فى التضليل والخداع . فماذا حصل بالنتيجة ، يا «صحراوى» ؟ كنت حتى النهاية تأمل بانك ستتلافى الامر وتتراجع بوسيلة ما . وفى اسوأ الاحوال تقتطع من نفسك الفاسدة قطعة للخيانة بينما تظل البقية فى حوزتك . فانت لم تتفق على تسليم روحك كلها للخيانة ، وما كان بوسعك ان توافق على مثل هذه الصفقة . يصعب على ثعبان مثلك ان يفهم هذه الحقيقة ، لكننا نحن الارانب من الحيوانات الثابتة الحرارة بالفطرة ، وطاهرون اصلا .

وبوسعى ان اقارن روحى بسفرة بيضاء نظيفة . وعلى هذه السفرة بالذات كنت احلم ان آكل فى المستقبل الكرنب والفاصوليا والحمص على مائدة الملك . اما الخيانة فقد كنت اعرف بانها لن تزين سفرتى الناصعة البياض ، لكننى فكرت على النحو التالى : لا ضير ، ساقتطع الجزء الملوث بالخيانة وافرش الباقى لاتمتع بخيرات الحياة . فماذا حصل ؟ هيه ، السفرة كلها ملوثة بالادران . كيف حدث ذلك ؟ اجيبونى : على اية سفرة سآكل ما كسبته من كرنب وحمص وفاصوليا ؟ كنت احلم باكلها على سفرة نظيفة واعطى شيئا منها للارانب الفقيرة والوم الكسالى والعاطلين . فما اروع لوم الكسالى والمتأنقين واطعامهم فى الوقت ذاته بالفتات من مائدتك السخية . ولكن ماذا حصل ؟ هل يعقل ان آكل من على سفرة نجسة ؟ وقد اتضح ان الخيانة تلطخ بادرانها السفرة كلها وليس جزءا منها كما كنت اظن . والله لم اكن اعرف ذلك . يعنى انهم لم يدفعوا لى شيئا ، ولم يبق لى سوى هذه السفرة النجسة التى تلوث الاطعمة بادرانها وعلىّ ان آكل تلك الاطعمة الملوثة . من يفهم تيتم الارنب الذى فسدت روحه وغاصت فى الادران ؟ نحن الارانب ، على اية حال ، من الحيوانات الثابتة الحرارة ، ولذا فنحن اطهار . وهناك فى الادغال فهمت هذه الحقيقة فى الحال تقريبا وان لم يكن بنفس الوضوح كما افهمها الآن . حتى القردة العفنة صارت تحتقرنى . كل ما بقى فى نفسى آنذاك هو الحقد والغضب . واشد ما اضمره من حقد هو من نصيب «الاطهار» . فلماذا لم يوقفونى اذا كانوا طيبين حقا ؟ !

– لقد افرطت فى الكذب – قاطعه الثعبان الصحراوى – فحتى قبل ان ابتلع اذكى الارانب كان بوسعى ان افهم بانك تهذر سخافات . من يستطيع ان يوقفك اذا كنت لم تخبر احدا بخيانتك ؟ ما اشد دناءتك . هذرت بمختلف السخافات لتستر جوهر القضية . وهو كالآتى : انت ارنب من الحيوانات الثابتة الحرارة خنت شقيقك ، اى ارقت دم حيوان مثلك من الحيوانات الثابتة الحرارة . كلا ، اشعر بان من واجبى ان ابتلعك . ورغم ضعف قواى وشدة الحر الذى يعيق التنويم فان الحقد ، كما احس ، سيساعدنى ضدك . . .

– لا تجهد نفسك لتخويفى – اجابه «الفطين» – اعتقد ان «المتأمل» كان محقا فيما يخص التنويم .

– لا تتعرض له ، يا سافل . – هتف الصحراوى بمنتهى الهياج

وشعر بان هياجه يجعل عضلات بدنه تنقبض وتنبسط . – ات الذى خنته فكيف يحق لك ان تستفيد من اكتشافه ؟

– ليس فى نيتى ان استفيد منه – اجاب «الفطين» بفتور – كل ما فى الامر انى لم اعد اثق بشىء فى الدنيا ، وبالتالى لا استطيع ان اصدق بالتنويم . . .فحدق بعينيك الجاحظتين قدر ما تشاء ، ولكن دون جدوى .

– آه ، ما اشد حقدى عليك – فح الصحراوى وهو يشعر بان عضلات بدنه تنقبض وتنبسط من جديد بحلاوة وتلذذ – اشعر ان حقدى يولّد فكرة مثمرة . . .

– عجيب ، لاول مرة اسمع بثعبان يفكر . – قال «الفطين» ساخرا وهو ينظر الى الصحراوى بعينين كئيبتين – يبدو ان الحر الشديد اثر عليك . . .

– كلا – فح الثعبان يتلوى وقد نفد صبره – كل جوارحى تتحسس ميلاد الفكرة الجديدة . يخيل الى . . . لست واثقا تماما . . . يخيل الى انى استطيع استدراجك بطريقة جديدة . . .

– تقصد انفاسك الكريهة ؟ – ساله «الفطين» –فات الاوان . . . فالارنب الذى تنطوى ضلوعه على نفس كريهة لا يخشى اية انفاس كريهة . . .

– كلا – هتف الثعبان وهو يتلوى فى سورة من الانفعال الشديد – حقدى يولّد حبا غريبا . . . حبا قاسيا بلا ملاطفات . . . اشعر برغبة شديدة فى معانقتك . . .

وما ان تلفظ الثعبان الصحراوى هذه الكلمات حتى طوق الارنب بلمح البصر وراح يخنقه بخشونة وغلظة دون ادنى اثر للرحمة .

– اتركنى ، لا تعانقنى . – حاول «الفطين» ان يتملص وهو لا يفهم لحد الآن ما يفعله به هذا الثعبان المجنون – ابعد عنى بدنك البليل . . . انا لست افعى ، وانت توجعنى ، هذا اولا ، وثانيا – انا لست انثى . . . فما هذا الشذوذ الجنسى ؟

– تمهل – دمدم الثعبان ، وهو يتلوى حول «الفطين» – سالتف حلقة اخرى . . . وادس راسى فى عقدة اخرى . . . اضيق ، واشد ، اشد . . .

– اكرهكم جميعا – كانت تلك آخر صيحة اطلقها «الفطين» قبل ان يغمى عليه فى احضان الثعبان .

– اوف . . . – تنفس «الصحراوى» الصعداء – تعبت لدرجة وكان

احدا خنقنى انا . . . ولا عجب ، فتلك اول محاولة فى العالم لخنق ارنب بدون تنويم . . . بهذا الاكتشاف العبقرى سيرحب بى الافعوان الكبير اعظم ترحيب . . . مع ان ذلك قد يفهم بمعنيين . سآكل واستعيد قواى واعود الى الديار . . . وسنرى من الاليق والاجدر بعرش مملكة الثعابين ؟ . .

ما ان فرغ من هذا الكلام حتى شرع بابتلاع الارنب ، وانتهت حياة «الفطين» . كان يتحلى بقابليات ليست قليلة ، لكنه مع الاسف فضّل عليها مائدة الملك التى اقترب منها وذاق اطعمتها ولكن بابهظ الاثمان .

والحال فقد جرت احداث هامة فى مملكة الثعابين ، وفى مملكة الارانب على حد سواء خلال فترة نفى الثعبان «الصحراوى» والارنب «الفطين» . تزعزعت لدرجة كبيرة العلاقات القائمة بين الارانب والثعابين منذ قرون نتيجة للاكتشاف الذى توصل اليه «المتأمل» بخصوص التنويم بالاضافة الى وعد «المتعطش» بأن يركض على ظهر الثعبان ذهابا وايابا .

فقد ظهر عدد هائل من الارانب ذات الميول الفوضوية والتى ضعف تاثير التنويم عليها او لم تعد تتاثر به اطلاقا . ولم يتمكن عدد كبير من الثعابين ان يسد رمقه . غدا بعضها عصبيا يرتعش ويتلفت مذعورا لادنى لمسة متصورا ان ارنبا يريد ان يركض على ظهره . وفر ثعبان من موقعه عندما سقطت عليه جوزة ، تصوروا مجرد جوزة ، بصورة مباغتة .

وتواردت من ثعابين الاطراف انباء افظع . فقد تدهورت سمعة الثعابين هناك لدرجة جعلت بعض القردة تبول من فوق على ثعابين تستجم تحت الاشجار . صحيح ان القردة فعلت فعلتها تلك من ارتفاع كبير ثم اعتذرت قائلة بأن ذلك حدث سهوا . والشىء الذى يصعب فهمه هو ان احدا لم يلاحظ على القردة فيما مضى مثل هذا السهو المتعمد .

–لا يمكننا ان نبت فى هذه المسالة على انفراد – اجاب الافعوان الكبير بخصوص شكاوى ثعابين الاطراف – سنحلها حالما نعزز مواقع التنويم . . . ولا يبقى لكم الآن الا ان تقتدوا برفيقكم العظيم الذى ابتلع دفعة واحدة ارنبين كانا يمارسان الحب .

اجاب الافعوان الكبير بهذه الصورة ، لكن العزاء فى هذا الجواب قليل المفعول . وماذا بوسعه ان يفعل اذا كان الاستياء يتعالى من الارانب احيانا حتى جنب قصره التحتانى ؟

لقد اخذ مفعول التنويم يتضاءل بشكل فظيع . ولكي ينعش الافعوان الكبير المعنويات الآخذة بالانطفاء في افئدة الثعابين اصدر امرا الى المقيمين جنب البلاط ليطلعوا يوميا ، قبيل الصيد ، على غنائمه الكفاحية المعروضة هناك ، كما امر ثعابين الاطراف ان تزحف الى البلاط لتشاهدها مرة كل شهر في مجموعات كبيرة . لكن ذلك لم يجد نفعا ، بل على العكس شدد من هياج الثعابين .

– كان قد ابتلع الارنبين من زمان – قالت الثعابين وزحفت كئيبة الى الادغال ، حيث عاثت الارانب فسادا . فهي تارة تطلق سيقانها للريح في اوج التنويم ، وتارة تتحدث بلهجة مهينة اثناء التنويم كان تقول : ماذا استفيد اذا وافقت على ابتلاعك لي ؟ وهلمجرا .

همد احد الارانب وهدأ اثناء التنويم وغط في سبات ، لكنه فجأة غمز للثعبان بعين تعلوها غشاوة الموت . دهش الثعبان لهذا المستحدث الطبي فاوقف مراسيم التنويم وتطلع الى الارنب . همد الارنب من جديد فخيل للثعبان ان ما رآه لا يمت للواقع بصلة ، فواصل مراسيم التنويم حيث دلى راسه وسلط على الارنب عينين ثاقبتين . تجمد الارنب نهائيا ، وانسحبت على عينيه غشاوة عسلية ، ولكن حالما همّ الثعبان بفتح فكيه غمز له الارنب من جديد وكأنه يريد ان يخبره بشيء ما هام . وتوقف الثعبان عن اداء مراسيم التنويم مرة ثانية ، لكن الارنب لا يزال رابضا امامه في هدوء وفتور .

وفكر الثعبان : ربما خيل اليّ . واستأنف التنويم . وتكرر الشيء ذاته من جديد . فان عين الارنب المحتضرة غمزت للثعبان بجراة في آخر لحظة . واخيرا ، في المرة السادسة او السابعة ، نفد صبر الثعبان ، وحالما غمز له الارنب حاول ان يفتح شدقيه ليلتهمه ، لكن الارنب قفز قفزة عمودية ثم تشقلب على عجل واطلق سيقانه للريح .

وفكر الثعبان : ماذا اراد من تلك الغمزات ؟ لا بد من وجود سبب .

ظل يبحث عن هذا الارنب عدة ايام على امل ان يعرف السبب . وتصور ان الارنب اراد ان يخبره بسر هام ، لكنه ، هو الثعبان العجوز المتمسك بالتقاليد ، لم يتحدث معه اثناء مراسيم الابتلاع . ولذا عزم على العثور على ذاك الارنب مهما كلف الثمن ليعرف منه حقيقة الامر .

واخيرا راى ارنبه جنب شجيرة عليق يلمس اوراقها ويلتهمها

متهاونا . ناداه دون ان يحاول تنويمه وساله راسا لماذا غمز له في تلك المرة ؟

– لا لشيء – اجاب الارنب وهو يلتهم ورقة العليق المخشوشنة – اردت ان اتغابى لا غير . . .

– تتغابى اثناء التنويم ؟ ! – ندت عن الثعبان العجوز ، وقضى نحبه مصعوقا لتدهور الاخلاق الى هذا الحد .

وبلغ الامر بثعبان آخر حد تحمل الاهانة الشائنة . فقد اغرم لحد الجنون بارنبة بدينة رائعة كانت اثناء التنويم تعود الى رشدها كل مرة وتقفز متنحية في آخر لحظة ، مع انها لم تغمز له .

بهذه الصورة عذبته من الصباح حتى الظهر ، واخيرا قالت له متغنجة هازة جنبيها السمينين :

– اسرق لي من السكان راسا من الكرنب وساستسلم لك حالما آكله . . .

واتفقا على ان يجلب الثعبان راس الكرنب الى هذا المكان . فاسرع ذاك مضطربا منفعلا الى اقرب قرية وتسلل الى احد البساتين واجتث راس كرنب من هناك ، لكنه عندما حاول ان يدسه من خلال ثقب السياج اكتشف السكان امره وانهالوا عليه بضرب مبرح .

المشكلة ان هذا الاحمق حاول ان يدس راس الكرنب في ثقب اصغر كثيرا من حجمه ، متصورا ان كل الاجسام تتميز بما تتميز به الافاعي من قدرة على التسلل عبر الثقوب . وعندما لاحظ ان راس الكرنب لا يريد ان يمرق من خلال ثقب السياج اشتاط غضبا وارتطم بالسياج في هياج شديد جعل السكان ينتبهون الى وجوده .

فاجاوه وضربوه بالعصى حتى كاد يموت . وتصوروه ميتا ، فهم لا يختلفون عنه كثيرا من حيث الذكاء ، وعلقوه على السياج لتخويف بقية الثعابين . راحوا يسخرون من قلة فطنته وهم يسدون الثغرة في السياج ، ثم رفعوا راس الكرنب ومسحوه واكلوه في الحال . وفي الليل عاد الثعبان المضروب الى رشده وزحف ملتجئا الى الادغال .

العلاقات القائمة بين الثعابين والسكان لائقة لحد ما . فالارانب تتلف البساتين والثعابين تبيد الارانب ، والسكان يقدرونها ، لكنهم لا يبالغون في ابداء احترامهم للثعابين ، وذلك بدافع من اللياقة ازاء باقي اهالي الادغال .

والاكثر من ذلك ان السكان يؤيدون في بعض الاحيان احتجاجات

اهالى الادغال على الوحشية التى تمارسها الثعابين احيانا فى معاملة ضحاياها ، مثل ابتلاع انثى الارنب على مرأى من وليدها وبالعكس .

وفى حالات منفردة ، ونادرة جدا فى الواقع ، عندما يلتهم ثعبان شيخا خائرا او طفلا تائها فى الادغال يبعث زعيم السكان رسولا الى الافعوان الكبير ومعه شكوى تشير دوما الى ان الجريمة اقترفت على مرأى من القردة .

والافعوان الكبير يعد دوما بانه سينظر فى القضية ويعاقب المذنب ، ويعيد كل مرة الى القادم الحاجيات غير القابلة للهضم والتى يعثر عليها فى غائط الثعبان المذنب ، مثل الطلاسم الجلدية والقلائد والاساور والقؤوس البرنزية وقطع من الرماح ذات النصال العظمية .

كان الافعوان الكبير يعيد كل تلك الاشياء الى مبعوث الزعيم حتى يسلمها هذا الاخير الى اقارب القتيل ويطلب منه ان يعرب لهم عن التعازى الصادقة ويؤكد الوعود بمعاقبة المذنب . واذا كانت الضحية رجلا يومئ الافعوان الكبير برأسه الى حطام الاسلحة التى مرت من خلال بدن الثعبان ويقول :

– سنعاقب المذنب ، مع انه عاقب نفسه بما فيه الكفاية . . .

وتجدر الاشارة الى ان زعيم السكان يفضل عدم النظر فى حالات مقتل الاشخاص التى لم تلاحظها القردة ، وذلك لاعتبارات تتعلق بالمحافظة على المنزلة الرفيعة . فالرأى السائد ان الثعابين عموما لا تتجرأ على المساس بالبشر ، اما حالات مهاجمة الاشخاص فتعزى الى خطأ يقع فيه هذا الثعبان او ذاك حيث يخلط بين القرد والانسان .

صحيح ان رسول الزعيم عبر هذه المرة عن الاحتجاج الشديد على المحاولة الغريبة التى اقدم عليها الثعبان لسرقة رأس كرنب .

وقد اعرب الافعوان الكبير بمنتهى الصدق عن مشاطرته زعيم السكان في احتجاجه هذا . وتصور ان ذلك من فعل «الابتر» الذى ظل يتدهور اخلاقيا حتى كاد يتحول الى ارنب او قرد . وقال الافعوان الكبير لرسول الزعيم :

– الثعابين تعانى الآن من صعوبات وقتية . الا ان سرقة الكرنب سابقة منقطعة النظير ولن تتكرر ابدا . عندنا ثعبان متفسخ الاخلاق ينعت «بالابتر» ، وقد كان ولا يزال يجلب العار على عشيرتنا . البوا الكلاب عليه واضربوه بالعصى وسنكون شاكرين لكم .

– سأنقل ما تقول – اجاب الرسول وانصرف . وعندما وصل القرية

حدث الزعيم بكل ما سمع واضاف من عنده ان تغيرات طرأت على الثعابين فلم تعد كما كانت عليه فيما مضى .

لم تعد الثعابين بالفعل كما كانت عليه . وتناقلت القردة فى الادغال انباء حادث طريف . فقد رأى احد القردة عصفورا يحط على ثعبان ملتو متصورا اياه كومة من روث الفيلة . ويقال ان ذاك العصفور الوقح نقر الثعبان عدة مرات ثم حلق مزقزقا : «روث بالفعل ، لكنه اسوأ من الروث المعتاد» .

وحتى لو كان هذا الحادث مختلقا فان اشاعة مثل هذه النوادر والنكات تدل على تدهور سمعة الثعابين الى حضيض لم يسبقه مثيل .

اجل ، لم تعد الثعابين فى ذلك الحين مثلما كانت عليه فيما مضى . وبلغ بها الامر حدا جعل حتى افضل صيادى البلاط يتقاعسون ، فهم اثناء الصيد الملوكى عادة يتقدمون الموكب وينومون الارنب ويبعثون اشارة بأن الغنيمة جاهزة للاكل .

فيزحف الافعوان الكبير مع حاشيته ويلتهم الارنب بنفسه اذا بدا له شهيا ، او يتركه للحاشية اذا لم يكن شهيا فى رأيه .

لكنه الآن لم يعد يهتم بالحاشية ، فاضطرت الى الاقتيات على الارزاق الشحيحة من سرداب البلاط ، اما الصيد فهى لا تقوى عليه لانها نسيت من زمان معالجة الارانب غير المنومة .

فى يوم عودة «الصحراوى» الى الادغال ظل الافعوان الكبير بدون فطور لاول مرة طول عهد تربعه على العرش . صحيح ان احد صيادى الملك تمكن ان ينوم ارنبا لا بأس به . وتنحى عنه بعد التنويم فاقترب الملك من الغنيمة ، لكن الارنب انتفض فجأة واطلق سيقانه للريح .

– شكرا على الفطور – التفت الافعوان الكبير الى الصياد ولم يقل اكثر .

– ما كان يجب ان تبقى ناعسا الى هذا الحد – اجاب الصياد بتحد فابتلع الملك الاهانة صامتا (بدلا من الارنب) وزحف منسحبا الى قصره النحتانى .

وكان ينتظره هناك الثعبان الذى بعثه من الصباح الباكر الى ملك الارانب لمفاوضات سرية . وقد ابلغ الافعوان الكبير ملك الارانب بأن هذا الخلل الشديد فى توازن الطبيعة لا بد وان يسفر عن عواقب وخيمة ليس على الثعابين فقط ، بل وعلى الارانب نفسها ، ناهيك عن سائر اهالى

الادغال . ولذا طلب من ملك الارانب ان يبقى رعاياه فى اطار التقاليد القديمة الطيبة .

– وماذا اجابك ؟ –سال الافعوان الكبير من رسوله وهو يتثاءب جائعا ليقمع الشهية الفظيعة التى تنهش معدته الخالية . كان يتلفت بين الحين والآخر الى منحوتات غنائمه الكفاحية التى تصورها فى تلك اللحظات ارانب وظباء رشيقة وكراكى نحيفة منومة حديثا .

– اسحبوا الستارة عليها ، لوجه التنين – ندت عن الملك ، فلم يتحمل هذا العذاب – لا يمكن العمل وهى امامى . . .

ولم يتمكن من مواصلة الحديث مع الرسول الا بعد ان غطوا كل المنحوتات باوراق الموز .

– بماذا اجابك ؟ – سال الافعوان الكبير وقد فهم من تعابير وجه رسوله المتجهم بانه لا موجب لانتظار انباء سارة .

– قال ان عرشه هو نفسه يكاد يتقوض ، ولا يسنده الا القرنبيط . . . – اجاب الرسول .

– ماذا ؟ – سال الافعوان الكبير – رعيته هو ايضا لا تطيقه ؟

– نعم – اجاب الرسول – يقول ان الارانب تقهقه على المكشوف عندما تذاع كل صباح نشرة مسافات مفعول التنويم . . .

– مفهوم – اطرق الافعوان الكبير متجهما – طيب ، اذهب . . .

وتجدر الاشارة الى ان الخط البيانى لهلاك الارانب فى اشداق الثعابين هبط لدرجة كبيرة فى تلك الفترة حسبما تقوله النشرات الرسمية الصادرة عن الديوان الملكى ، وهى اصلا نشرات مبالغ فيها كثيرا .

ومهما جهدت الدعاية فى المملكة للمبالغة فى عدد الارانب الهالكة (وقد صارت تؤكد ان الثعابين تتصيد الآن بالاساس فى الادغال النائية الخالية حيث لوحظت حالة وحشية لابتلاع ارنبين ، عشيق وعشيقته ، دفعة واحدة) ادركت عامة الارانب على اية حال ان الثعابين لم تعد كما كانت عليه فيما مضى .

فقد بذلت تلك الارانب والعديد من اقاربها ومعارفها جهودا متكررة وابدت عزيمة شديدة حتى تمكنت من تشويش التنويم ووقفه . واقدم بعضها على ما رايناه من جراة او على شىء فيه كثير من الجراة .

اما حادثة ابتلاع العشيق وعشيقته فقد وقعت بالفعل ، وهى تثير اشد انواع الاستنكار ، لكن الدعاية بالغت فيها لدرجة جعلت الكثير من الارانب لا تصدق بوقوعها .

فى البداية حدثوا الارانب عما هو معروف بشأن هذه الفعلة الشنيعة . وعندما لوحظ استياء الارانب من تلك الفعلة الوحشية واكتئابها الشديد اخذت نشرة الانباء الصباحية تبث كل اسبوع «تفاصيل جديدة عن وحشية الثعابين فى الاطراف» .

وفى آخر المطاف اورد المراسل العدّاء فى احد الريبورتاجات من «مكان الفاجعة» نبأ يقول ان الحبيبين توسلا الى الثعبان ان يشيح بوجهه عنهما ولا ينومهما حتى يتما اول وصال بينهما ، وهو آخر وصال مع الاسف . الا ان الثعبان الذى لا يعرف الرحمة لم يستمع الى رجائهما ، وعند ذاك اقدم الحبيبان على قرار بطولى هو ممارسة الحب حتى النهاية ، فهلكا بدنيا بين شدقى الثعبان وانتصرا عليه فكريا .

– من اين عرفت هذه التفاصيل ؟ – ابدت الارانب ريبة .

– كيف ؟ – اوضح المراسل للمرتابين – القردة حكت لى . . . رات القردة وسمعت كل شىء . . .

– سمعت القردة ان ذلك هو الوصال الاول بين الحبيبين ؟

– نعم – اجاب المراسل .

– شىء لا يصدق – قالت الارانب لعلمها بطهارة ابناء جلدتها . من المستحيل ان يتحدث الارنبان لجلادهما عن امور من هذا النوع .

– لن تفلحوا فى تسويد صفحة حبيبينا الطاهرين – قال الملك وهو يتطلع الى جمهور الارانب جاهدا ان يبصر فى المرتابين الذين لم يحاولوا الاختباء كما لم يحاولوا الظهور والبروز الى امام .

تلك لحظة تاريخية معقدة . فالارانب ، من جهة ، صارت ، بتاثير تعاليم «المتأمل» التى جهد «المتعطش» بلا كلل ليغرسها فى اذهانها ، تتحمل بالفعل نظرات الثعابين ، وحققت فى هذا المجال نجاحات متكررة ، الامر الذى انعكس ، بدوره ، فى تضاؤل احترامها لشخصية الملك وسلطته .

لكن الارانب ، من جهة اخرى ، لا تريد نصرا كاملا «للمتعطش» ، فهو يطالبها بعدم التعرض لبساتين السكان . وهى تريد ان تعيش كما تعيش الآن : قليل من طاعة الملك وقليل من التمسك بوصايا «المتأمل» ، والتملص من التنويم على قدر الامكان وزيادة التردد على بساتين السكان .

كانت الارانب ترد بنظرات زائغة على دعوات «المتعطش» المتكررة لعصيان الملك وتقول انها لم تبلغ بعد درجة الوعى اللازمة لمثل هذا العصيان .

– ما الداعى للعجلة ، استمر فى عملك لتثقيفنا .

واستمر «المتعطش» فى ذاك العمل ، لانه لم يبق له شىء سواه ، ثم ان الزمن ، وفقا لكل الدلائل ، قد زعزع سلطة الملك .

بالفعل ، لم يكن عامل الزمن لصالح الملك ، والملك يدرك ذلك فى النهار ، وفى الليل عندما تنغزه الملكة فى جنبه وتقول :

– فكر فى حيلة ما .

– ماذا بوسعى ان افكر ؟ – يتمتم الملك وهو يحك جنبه .

– ما كان هناك موجب ، اذن ، لطرد «الفطين» – تجيبه الملكة وتدير ظهرها اليه غاضبة .

ولكن ماذا بوسعه ان يفكر ؟ وسيلته الرئيسية ، الخوف من الثعابين ، تضعف يوما بعد يوم . والتنويم يخفق بين حين وآخر . وفى الادغال تنتشر جثث الثعابين الميتة من الجوع . وقد تضاءلت كثيرا حالات اختطاف الارانب الجسورة بدون تنويم .

ذات مرة ، فى احد اجتماعات الارانب ، حلقت فوق الساحة الملوكية مباشرة نصف دزينة من الجوارح وهى تحمل بمخالبها جثة ثعبان كبير .

كان ذلك ، فى راى المقربين ، مشهدا فظيعا . تاملوا : طيور كبيرة صامتة والثعبان يتدلى من مخالبها . ويخيل للرائى ان هذه الكواسر الرمزية تحمل الى الفناء آخر ثعبان فى الدنيا .

– اعصفى بالعالم يا زوبعة – صاح الشاعر فجاة ، ولعله تصور هذه الجوارح سربا من طيور النوء .

– اصاب الخرف شاعرنا نهائيا – قال الملك بتقزز وهو ينظر شزرا الى الشاعر وقد انطبعت على وجهه ابتسامة وضاءة وهو يحيى النسور براحة قائمته الممدودة .

حقا ، كانت تصرفات الشاعر فى الآونة الاخيرة بليدة حمقاء . فالصبى الجاحظ المكلف بهدايته اختفى ، وصار هذا يخلط ليس بين طيور النوء والغربان ، بل بينها وبين الببغاوات العادية ، مما اثار نوبات من القهقهة المتواصلة لدى العامة .

والآن ، عندما لاحت النسور والثعبان فى مخالبها ، اثارت عامة الارانب عاصفة من الزعيق البهيج جعلت خمسة نسور من الستة تفلت الثعبان مرتعبة ، لكن النسر السادس ظل يحمل البدن المتارجح عموديا . اسمر الطير العنيد يحلق هابطا تحت ثقل حمله ، لكن النسور الباقية لحقت به والتقطت الثعبان من جديد ، واخذت تعلو شيئا فشيئا .

صحيح ان «الحكيم العجوز» الذى كلف بشرح مغزى هذا المشهد قال انه يشير الى مستقبل طيب رغم ما يتسم به من شؤم .

– لماذا ؟ – سأله الملك بارتياب .

– الثعبان الهاوى يرفع من جديد الى القمة المطلوبة – اجاب «الحكيم العجوز» واثقا ، فقد اصاب الهدف هذه المرة : اذا تحسنت احوال الثعابين سيمنحه الملك ترقية بسبب ذاك التكهن الرائع ، واذا تردت احوالها الى الحضيض لا يبقى موجب للخوف من الملك .

وبالمناسبة فقد اضيف الى كل تلك المنغصات المزعجة شىء لا يبعث على السرور اطلاقا . ففى مملكة الارانب ، بل وفى اقرب الاطراف المتاخمة للبلاط ، ظهر ارنب صغير جدا ومشاكس جدا .

ذات مرة ، خلال جولة الملك مع الحاشية فى بقعة من الادغال مشددة الحراسة وملاصقة للبلاط ، اخرج الارنب الصغير بوزه من وراء الشجيرات فجاة وقال بصوت حزين :

– يا عمى الملك ، اريد قرنبيطا . . .

تجمد مدير حرس البلاط والحاشية مستائين من هول المفاجاة . لكن الملك لم يرتبك بل بدا ، على العكس ، منتعشا :

– آه يا عزيزى الصغير – اقترب الملك باسما من الشجيرات التى اخرج الارنب الصغير من ورائها بوزه الحزين – ليس عندنا قرنبيط الآن ، لكننا سنحصل عليه فى القريب العاجل ، فنحن شخصيا نتابع التجارب ونساعد على انجازها . . . اما الآن فالملكة ستهديك ورقة طازجة من الكرنب الاخضر . . .

وعندما رات الملكة مزاج الملك الطيب اخرجت من سلة التجميل ورقة طازجة من الكرنب الاخضر وسلمتها للارنب الصغير باسمة . اخذ الصغير الورقة غارقا فى تاملاته الحزينة وكرر دون ان ينظر الى احد :

– يا عمى الملك ، اريد قرنبيطا . . .

دارى الملك ارتباكه ونشر يديه باسما ولسان حاله يقول : هذا ما رزقنا الله ، وليس عندنا سواه . ومضى فى سبيله . وتبعته الحاشية . الذكور من افرادها يتحدثون عن التفسخ الاخلاقى الذى بدا يتسرب الى صغار الارانب . اما الاناث فقد اعربن ، اكثر ما اعربن ، عن غضبهن الشديد على بعض الارنبات التى تلد الصغار ولا تفكر بتربيتهم اطلاقا .

وعاد الهدوء الى الملك والحاشية بالتدريج حتى تحسن مزاج الجميع وغدا افضل مما كان قبل ملاقاة الارنب الصغير . تحسن مزاج الملك

لانه ابدى لينا وتسامحا ازاء هذا الصغير المشاكس ، كما تحسن مزاج الحاشية لحصولها على فرصة غير منتظرة للتسلية بسبب تورط الملك .

وفى طريق العودة ، قرب الساحة الملوكية ، ظهر من جديد على غير المتوقع بوز ذلك الارنب الصغير وكرر بحزن يفوق الوصف :

– يا عمى الملك ، اريد قرنبيطا .

– هل تعرف مع من تتكلم ؟ – صاح مدير حرس البلاط وقد عاد الى رشده قبل غيره من هول الصدمة .

– وقح – صاح افراد البلاط – لا بد من معاقبة والديه .

– يجب ان نعرف محرضيه – هتفت الملكة وغمزت لمدير الحرس ومدت له يدها بورقة كرنب اخرى .

اخذ مدير الحرس الورقة ومضى ، بخطى اراد لها ان تكون خفيفة ، الى الشجيرات التى لاح من ورائها بوز الارنب الصغير يرمش بعينين واسعتين حزينتين وكأنه ينصت الى صوت لم يطلقه احد وينظر الى شىء لا يريد ان يظهر .

– اين تقيم يا عزيزى الصغير ؟ – سأله مدير الحرس ومال على الشجيرات برعاية وحنان ليعبر بهيئته كلها عن انعدام ادنى اثر للشراسة وسوء النية .

ظل الصغير صامتا ، ينصت الى الصوت الذى لم يطلقه احد وينظر الى الشىء الذى لا يريد ان يظهر .

– هل عندك أم وأب ؟

لم ينبس الصغير ببنت شفة . وخيم صمت ثقيل طويل ، حتى قال مدير الحرس بأرق صوت :

– خذ هذه الورقة ، واخبرنى من الذى ارسلك لتطلب القرنبيط من العم الملك . اتفقنا ؟

قدم المدير الورقة الى الصغير دون ان ينتظر موافقته .

– اريد قرنبيطا – قال الصغير بنفس الصوت الحزين ، لكنه اخذ ورقة الكرنب .

وخيم من جديد صمت ثقيل طويل .

وفى هذا الصمت الثقيل تناهى فجأة حفيف خطى ارنب اجتاز دربا على مقربة من الملك وحاشيته . القى على الملك والحاشية نظرة شزراء خالية من الود وتمتم ساخطا وهو يقصد اولئك الذين يأكلون حتى التخمة ولا يستطيعون ان يقدموا ورقة قرنبيط الى ارنب صغير ، ثم اختفى بين

اعشاب البرارى العالية . ومما يثير الاسف والاهانة بخاصة ان هذا الارنب عندما اندس بين اعشاب البرارى نفض بانفعال اعوادا علقت ببوزه ، مما يدل على انه لا يزال منفعلا ولا يفكر اطلاقا بانه اهان الملك على رؤوس الاشهاد .

استدار الملك دون ان ينبس ببنت شفة ومضى ، تتبعه الحاشية . واخيرا افاق مدير الحرس على نفسه وصاح :

– اقبضوا عليه ؟

– على من بالذات ؟ – سأل احد الحراس ليعرف المقصود على وجه التحديد : هل هو الارنب الصغير ام ذاك الذى اجتاز الدرب .

– على الجميع . – صاح مدير الحرس فاختلطت الامور على حراسه بالكامل ، وهرع بعضهم ليعتقل الحاشية . وبعد اعادة هؤلاء الحراس لم يبق للارنبين ، الصغير والكبير ، اثر . وليس من الصعب فهم موقف اولئك الحراس ، فهم يعلمون ان مدير الحرس يحلم ليل نهار بفضح مؤامرة المقربين . وخيل اليهم ان هذه المؤامرة قد افتضحت الآن .

تذكر مدير الحرس ان الارنب الصغير ، دليل الشاعر ، قد فر منه ، ولذا اراد ان يستفسر هل كان الصغير الذى تجرأ على طلب القرنبيط اثناء جولة الملك هو ذاك الدليل ام لا . فاستدعى الشاعر وسأله عن الموضوع ، لكن هذا لم يستطع ان يجيب بما يشفى الغليل مع انه كان فى تلك الاثناء بين حاشية الملك .

– لا ادرى . لم اره . فانا عادة اتطلع الى السماء .

– طيب ، واذا القينا القبض عليه هل ستعرفه ؟ – سأل مدير الحرس كاظما غيظه الشديد على الشاعر .

– لا ادرى – قال الشاعر – فانا لم انظر اليه ، انا عادة اتطلع الى السماء .

– طيب ، اذهب – قال مدير الحرس وهو يضبط نفسه بالكاد . كان يتمنى ان يرفع الشاعر من اذنيه ويوصله بهذه الوضعية الى السماء التى لم يغض بصره عنها طول حياته . لكن الملك ، مع الاسف ، يرى ضرورة لحماية شاعره .

– اذا كان هذا الشرير هو دليلى – طفق الشاعر يتأمل فجأة – فان امورا كثيرة ستتضح . . .

– ماذا على وجه التحديد ؟ – انتعش مدير الحرس .

– يتضح انه كان يخدعنى ، لضعف بصرى ، ويدعى ان طيور النوء

وبشائر العاصفة هى غربان ليس الا . واأسفاه ، ما اكثر الطيور المكافحة المتعبة التى كان بوسعى ان اشد ازرها بصوتى الشاعرى ، لكنها مرقت فوق راسى دون جدوى – هتف الشاعر بحرقة ومرارة .

– اذهب ، ارجوك – قال مدير الحرس – والا سيأتى نذير النوائب الى زوجتك اليوم بدلا من بشير العاصفة .

– كلا ، لا داعى للنذير – قال الشاعر ومضى خارجا على عجل .

ما كاد مدير الحرس يلتقط انفاسه بعد ذهاب الشاعر حتى تقابل مع الملك واعتذر منه عن الحادث الخارق للعادة اثناء الجولة وقال انه ارتبك فى البداية فتصور الارنب الذى عبر الدرب احد افراد الحرس فى زى مدنى ، وبعد ذلك اخطأ معاونوه . فقال الملك :

– كل ما اطلبه منك بقعة هادئة من الادغال للتنزه .

– ستكون لك بقعة هادئة يا مليكى – اجاب مدير الحرس بلهجة ذات مغزى – اما المجرمون فسنقبض عليهم .

– من يعش ير – قال الملك وسأل : – هل سمعت بالاشاعات السارية فى المملكة ؟

– سمعت – اجاب مدير الحرس – ونحن نبث اشاعات مضادة .

– والنتيجة ؟

– معقدة يا مليكى . لاحظنا على وجه الدقة ان ارانب بعينها تستفيد بارتياح من الاشاعات ومضاداتها على حد سواء .

– الا ترى اية رعية احكم ؟ – قال الملك وهو يهز راسه متأففا .

– أولا ترى اية رعية احرسك منها ؟ – اجابه مدير الحرس .

– قولك صحيح ايضا – وافقه الملك واضاف لينهى الحوار : – طيب ، اذهب بعين ساهرة .

حقا ، انتشرت فى المملكة اشاعات السوء . قال البعض ان الارنب الصغير التائه فى الادغال صادف هناك وليمة متجولة كان المتخمون يتناولون فيها كالعادة ما لذ وطاب من طعام وشراب الى حد القرنبيط .

وتقول الاشاعات : تطلع الارنب الصغير من وراء الشجيرات ورآهم يأكلون ويشربون ، وبعد ان اكلوا حتى التخمة راحوا يطعمون القردة ببقايا القرنبيط ، فلم يتحمل وخرج من وراء الشجيرات ومد يده متوسلا :

– يا عمى الملك ، اريد قرنبيطا .

– اغرب عنى يا جاسوس لعين – صاح الملك ، كما تقول

الاشاعات ، اما الحراس فقد ارعبوا الارنب الصغير لدرجة جعلته يهيم على وجهه ، وصار ذووه يبحثون عنه ولم يعثروا عليه حتى الآن .

– هل يعقل انهم اطعموا القردة الغريبة وبخلوا على صغيرهم ؟ – يتساءل احد المستمعين عادة حينما تبلغ الرواية هذا الموضع .

– المشكلة ليست فى البخل – يوضح الراوى – المشكلة انهم لا يريدون لعامة الارانب ان ترى كيف يتحلقون حول السفرة وابوازهم ملطخة بعصير القرنبيط .

– وهل القرنبيط يلطخ الابواز ؟ – يتساءل احد المستمعين وهو يبلع ريقه بصوت مسموع .

– يقال انه يذوب فى الفم مثل رحيق الزهور – يجيب الراوى – لكنه يلطخ البوز ، كما يقال ، قبل ان يصل الى الفم ، لان هذا النبات الرقيق للغاية لا يطيق خشونة الملمس .

– استطيع ان اوصله الى فمى حتى يقطر العصير اللذيذ تحت اللهاة – قال احد المستمعين حالما .

وخيم الصمت على الراوى وعلى الارانب ، فراحت تبلع ريقها بصوت مسموع متصورة القرنبيط الرقيق يقطر عصيرا ويذوب فى فم هذا الارنب المغرم بالسكريات .

وتقول اشاعة اخرى ان الملك البخيل ، عندما طلب منه الارنب الصغير قرنبيطا ، سأل من مدير الخزينة هل كان والد هذا الصغير يدفع ضريبة البساتين ؟ والمعروف ان الارنب المذكور هلك بين شدقى ثعبان فى حينه . وطوال كل الفترة التى امضاها مدير الخزينة فى فحص السجلات حتى تأكد له ان المرحوم ما كان يقيم اعتبارا كبيرا لضريبة البساتين ، ظل الارنب الصغير المسكين مادا قائمته الامامية والمقربون يسخرون منه ويضحكون عليه .

– طيب ، لنفرض ان والده لم يسدد ضريبة البساتين بانتظام ، – قالت الارانب باستياء – فما ذنب الصغير ؟ كل ذلك والملك يسمى نفسه ابا لجميع الصغار .

والاهم ان الارانب كانت تتناقل بنفس القدر من الفضول والمشاطرة الاشاعة المضادة التى روجها حراس البلاط . فهى تقول ان الارنب الصغير التائه فى اعماق الادغال صادف بالفعل مزرعة سرية للغاية يعمل فيها العلماء من الارانب تحت مراقبة شخصية من الملك وبالاشتراك مع السكان على استنبات القرنبيط . وعندما راى الصغير راسا من القرنبيط

التجريبى يدمع على التربة بكل الوان قوس قزح توسل الى صاحب الجلالة قائلا : – يا عمى الملك اريد قرنبيطا .

وبالفعل قام السكان وبعض العلماء المنعزلين عن الحياة بمحاولة لطرد الارنب الصغير التائه حقا ، لكن الملك ، كما تقول الاشاعة ، عرف بان الصغير يتيم فانحنى بجلالته واقتطع من الراس التجريبى ورقة ريانة للغاية وسلمها الى الارنب الصغير قائلا :

– فى القريب العاجل سيأكل كل اليتامى من هذا القرنبيط .

– ليتنا نرى الصغير المحظوظ – قالت الارانب عندما سمعت هذه الرواية السارة .

– مستحيل – كان الراوى يجيب بلهجة كبيرة الدلالة – فقد غدا سريا لعلمه بموقع المزرعة .

– آ . . . طبعا ، طبعا – وافقت الارانب بسهولة على هذا التعليل ، ولعلها تدمح بذلك الى كونها هى ايضا سرية من بعض الجوانب . وهى على العموم ، معجبة بالسرية ، وتتصور ان الثعابين لا تبتلع السريين الا فى الحالات القصوى .

– وبالمناسبة ، فقد سمعت زوجة «المتأمل» هذه الرواية ذات مرة . حكاها احد العاملين فى حرس البلاط لشلة من الارانب المكرمة وكانت زوجة «المتأمل» بينها . فى تلك الليلة انتابها ارق شديد . فقد اثر فيها قول الملك ان اليتامى سوف يأكلون القرنبيط فى القريب العاجل . ولذا قررت ان الوقت حان لتذكر الملك بوعده فى استبدال ارزاقها من الكرنب الاخضر بكمية مماثلة من القرنبيط عندما تتوفر الامكانية .

فى الصباح الباكر جاءت الى البلاط ، حيث تجمعت حوالى اثنتى عشرة من الارامل المكرمات الاخريات امام المستودع الملوكى فى انتظار الارزاق . كن جميعا يحسدن بعضهن البعض حسدا اسود ، لكن ارملة «المتأمل» تعتبر عن حق وحقيق فى مقدمة المستحقات .

– المرحوم زوجى فكر فى ذلك من زمان – قالت متأهبة للشجار فيما لو رفض مدير الخزينة تسليمها القرنبيط .

حبست الارامل انفاسهن بغيرة وحسد وهن ينتظرن افتتاح المستودع ويطلقن بين الفينة والفينة تاوهات مترملة .

– فيم فكر ؟ – سألها مدير الخزينة وهو يضع امامها على الرف راس الكرنب المقرر .

– فى القرنبيط – اجابت الارملة وهى تبعد عنها بصمت راس الكرنب العادى .

– عمرى لم ار القرنبيط – قال مدير الخزينة واعاد راس الكرنب الى موضعه – اذهبى الى الملك واسأليه ان كنت تستطيعين .

– ساذهب اليه من كل بد – هددته ارملة «المتأمل» وهى تنصت الى همس سائر الارامل اللواتى اكدن بغير ثقة ان حياتهن المترملة ليست افضل من حياتها .

– افضل – اجابت بلهجة متشددة واضافت منصرفة : – ازواجكن اتخموا على مائدة الملك بينما كان المرحوم زوجى يفكر فى المستقبل ليل نهار .

لاذت الارامل بالصمت ، فقد كن يخشينها بعض الشىء . ولنفس السبب اجتازت الديوان الملكى دون ان يعيقها احد وفتحت باب مكتب الملك على مصراعيه ودخلته منتحبة .

خرت على صدر الملك وراحت تكرر وتعيد بالجسارة التى لا يسمح بها للانثى الا اذا انهمرت دموع الوطنية من عينيها :

– لو كان يستطيع ان ينهض ويعود . . . لو كان يستطيع ان يرى . . . – كررت واعادت حتى انفعل الملك اشد الانفعال ، ثم هدأت فى آخر الامر وذكرت الملك ، معتمدة على حكاية الارنب الصغير ، بانه وعد باستبدال الكرنب الاخضر بالقرنبيط عندما تتوفر الفرصة .

– تلك رواية مبالغ فيها لدرجة كبيرة يا عزيزتى – اجابها الملك مودعا حتى الباب – التجارب جارية بنجاح طبعا ، ونحن نساعد فى انجازها بكل الوسائل ، ولكن ما علاقة الارنب الصغير بالموضوع ؟ . . ثم كيف استطاع ان يصل الى المزرعة السرية ؟ كل ذلك هذر فى هذر . . .

– «لو كان يستطيع ان ينهض ويعود . . .» . كل المصائب يكرر محدقا بغباء فى نقطة واحدة :

– «لو كان يستطيع ان ينهض ويعود . . .» – كل المصائب تهون الا هذه . . . – ثم استدعى سكرتيره واصدر اليه ارادته الملكية : اطردوا هذه العفريتة اذا حاولت ان تأتى الىّ من جديد . . . ولكن بالتى هى احسن . . . الى حين صدور ارادة اخرى . . .

– بخصوص الطرد ام بخصوص التى هى احسن ؟ – سأل السكرتير وهو يسجل الارادة الملكية بمظهر الجد .

– بخصوص الارملة – اجاب الملـــك وهـــو يفكر فى المصاعب الجديدة التى ارتسمت امام مخيلته .

– وبالمناسبة ، فبعد حين من الوقت التقت ارملة «المتأمل» من جديد بموظف مديرية الحرس الملكى وقالت لـــه : – انت ارنب مسؤول ، ومع ذلك اوردت فى المرة السابقة سخافات لامسؤولة عن الملك والارنب الصغير .

– كان ذلك هـو المطلوب – اجابها المسؤول دون ان يرمش له جفن .

فلم تتحمل الارملة ولمحت له بمنتهى الوضوح انها تكلمت مع الملك نفسه فى الموضوع فسخر شخصيا من هذه الخرافة الهزيلة .

– يعنى كان ذلك هو المطلوب حينئذ – كرر المسؤول بعناد حتى ان اذنيه انتصبتا وتصلبتا .

– آ . . . – هزت رؤوسها مؤيدة كل الارانب التى سمعت هذا الكلام وهى تشعر بفرحة غيبية من صلابة كلماته الكبيرة الشان – طبعا ، فهل هناك موجب للجدال ؟ . .

واومأت الارملة الاولى فى المملكة برأسها متفهمة مع انها لم تكن تشعر بالوجل والتهيب على الاطلاق كما تأكدنا من ذلك قبل حين .

ففى مملكة الارانب قانون لا تفهمه كل الارانب ، لكنها جميعا تتحسسه جيدا . وقد جاء فيه : «يحق للذى يعوم فى الاتجاه الملكى ان يتجاوز حتى سرعة الملك» .

وقد احس الجميع الآن ان كلمات المسؤول فى الحرس الملكـــى تندرج ضمن متطلبات هذا القانون ، ولذا فهو لا يشعر بالخوف من كون الملك نفسه قد فند اقواله .

والحال فقد لوحظت فى مملكة الارانب غرائب جديدة الواحدة منها اكثر غرابة من الاخرى . فقد ظهر سكارى بين الارانب ينشدون اغانيهم السخيفة باعلى الاصوات ليس فى الادغال وحدها ، بل وفى الانحاء الاقرب الى بلاط الملك . صاروا يدسون الثمار البريـــة فى اجواف الاشجار ويسدون فتحاتها باحكام وينتظرون حتى تتخمر فيثقبون ثقبـــا هنـــاك ويحتسون منه العصير الكحولى ويسدونه من جديد بقطعة من القطران . وفى بعض الاحيان يخلطون بين الاجواف العائدة لهم واجواف الغير فتنشأ خلافات وحماقات كثيرة ، ناهيك عن المتسللين الى اجواف الغير الذين يتطاولون عليها لكن اصحابها من المدمنين الفعليين يتربصون بهم بين

الفينة والفينة فيقبضون عليهم ويطلقون العنان لهياجهم النبيل وينهالون عليهم بضرب مبرح .

وازداد عدد السكارى بخاصة بعد الاكتشاف المدهش الذى حققته الارانب . فان عصير البيلسان الذى كان معروفا فى المملكة بصفته حبرا فقط يغدو بعد التخمر شرابا مسكرا رائعا .

وقد حقق الاكتشاف المذكور كما اسلفنـــا ، شاعر البلاط الذى قضم ، ذات مرة ، اثناء نظم قصيدة جديدة الطرف العلوى لريشة النعامة التى يكتب بها ، فارتشف بالصدفة من خلال قصبة الريشة عدة قطرات من عصير البيلسان . وبعد ذلك لاحظ ان مرارة العصير تروى الغليل وتساعد بشكل ما على تنشيط الفكر المبدع .

وفى آخر المطاف صار على يقين راسخ بأن فكره المبـــدع يتطلب افراغ حبر فى الداخل قبل ان يتحول الى ابيات شعرية على الورق . وتصور الشاعر ان تسجيلا سحريا ربما يجرى فى داخله ، فصار يغرز ريشته الانبوبية فى المحبرة ويمتص الحبر باصرار وينصت فى الوقت ذاته الى ما يطرأ عليه من تبدلات باطنية .

عاش بهذه الصورة دون ان يبالغ فى التستر على طريقته الابداعية ودون ان يفرط فى الكشف عنها . زوجته تتوجه كل صباح الى المستودع الملكى وتستلم قنينة حبر خيزرانية بالاضافة الى الاغذية . ولما كانت احتياطيات الحبر فى مستودعات البلاط كبيرة للغاية فان مدير الخزينة لا يسأل زوجة الشاعر عن السبب فى سرعة استهلاك الحبر . وربما كان قد سأل عن السبب ، وربما كانت قد اجابته بشكل صحيح ، لكن مجتمع الارانب آنذاك ، حسبما تنص عليه العلوم ، ليس بحاجة الى جوابها ، ولذا لم يلتفت احد الى ذاك الجواب .

لكن الارانب فى تلك الفترة بالذات كانت متشوقة لسماع جوابها ، وقد سمعته بالطبع .

– ماذا ؟ هل يشرب زوجك الحبر ؟ – قال مدير الخزينة مندهشا ذات مرة دون اثر للحقد او الغضب ، واستل السداد من جذع شجـــرة محفور كالبرميل وصب منه الحبر فى القنينة حتى امتلأت ثم اغلقهـــا وسلمها الى زوجة الشاعر ، فاجابته :

– لا يشربه ، بل يمصه .

– كيف يمصه ؟ – سأل مدير الخزينة مستغربا .

– يمصه مباشرة ، من خلال قصبة الريشة – اوضحت الزوجة .

– أفلا يؤثر عليه ؟ – سأل المدير .

– كلا ، فهو يواصل عمله – قالت الزوجة – الا انه يتعثر فى المساء قليلا .

– يتعثر فى المشى ام فى الكلام ؟ – سأل المدير رغبة فى المعرفة على وجه التحديد .

– تارة كذا وتارة هكذا ، حسب الموقف . . .

انصتت عقيلات بعض المقربين بأنفة واستعلاء الى حديث مدير الخزينة مع زوجة الشاعر . وحالما انصرفت طالبت اول انثى من هؤلاء بقنينة حبر قائلة ان زوجها تفرغ لعدة سنوات كى يحبر «التاريخ المجيد لمملكة الارانب» . واقتدت بها الاخريات .

ثم شرعت الارامل ، وفى مقدمتهن الارملة الاولى فى المملكة ، بكتابة المذكرات عن ازواجهن المرحومين ، وقد عزمن بالفعل على التجمع فى الامسيات لتحبير ذكريات ايام زمان على حد تعبيرهن .

اما عامة الارانب فقد بعثت ، بعد سماعها بخواص عصير البيلسان ، قانونا منسيا من زمان لكنه غير ملغى ، وهو يقول : «لا تبخلوا بالحبر لتعليم الارانب» . وكان هذا القانون قد صدر عن الملك نفسه فى بداية عهده بالحكم ، لكنه انشغل عنه فيما بعد وينس من التعليم ، بينما ظلت احتياطيات الحبر فى ازدياد . اما الآن فقد شعرت الارانب فجأة بتعطش الى التعليم .

لم يعترض الملك فهو يريد ان يحصل من هذه الاحتياطيات على نفع سياسى فى اقل تقدير . وبعد شهرين ، عندما كادت احتياطيات الحبر تنفد بالكامل ، قسم «كبير العلماء» كمية الحبر المستهلك على العدد الاجمالى للارانب وتوصل الى استنتاج مفرح يشير الى محو الامية بالكامل بين سكان المملكة .

وبعد ذلك الغى قانون «عدم البخل بالحبر» بمناسبة الانتصار المجيد للتعليم ، اما احتياطيات الحبر القليلة المخصصة لحاجات الحاشية والبلاط فقد صارت تصفى بدقة من خلال طبقة كثيفة من مصافى الخنشار . ولم تتأثر عامة الارانب لالغاء القانون المذكور ، بل واصلت تعليمها الذى غدا من قبيل التثقيف الذاتى بتخمير الحبر من عناقيد البيلسان الناضج .

وفى تلك الاثناء كان الارنب الصغير المسحور يظهر هنا وهناك وهو يطلب القرنبيط دوما شارد البال حزينا . ذات مرة وجد نفسه على غصن البلوط الجزرى الذى ينتصب امام نوافذ البلاط :

– يا عمى الملك ، اريد قرنبيطا – طلب وهو يتأرجح على طرف غصن يطل على نافذة مخدع الملك .

اغمى على الملكة من شدة الغضب ، وتمكن الملك من استنفار الحراس ، فطوقوا شجرة البلوط وامروا الارنب الصغير ان يسلم نفسه حيا ،او ميتا ، فى اقصى الاحوال . لم يرد عليهم الارنب الصغير ، لكنه كان بين حين وآخر يرميهم دون تهديف دقيق بجوزات البلوط الثقيلة غير الصالحة للاكل اطلاقا .

واصيب بعض الحراس بجراح ثخينة ، بينما اهتاج الباقون اشد الاهتياج ، ورغم وابل الجوز الثقيل اجتاحوا بهجوم كاسح هذه القلعة المباغتة كما نعتها فيما بعد مؤرخو المملكة .

تسلق الحراس الشجرة وتفقدوا كل الاغصان ، لكنهم لم يعثروا للارنب الصغير على اثر . وعند ذاك فكروا بانه مختبئ بين اوراق الشجرة فراحوا يهزون كل اغصانها الواحد تلو الآخر بعد ان بسطوا تحتها شبكة صفورة من اعشاب البرارى .

اصيب عدد آخر من الحراس بجراح عندما راح رفاقهم يهزون الاغصان ، واخيرا هوى بدن خفيف على الشبكة وتورط فيها .

وعندما جاء الملك ليلقى نظرة على معكر صفو المملكة اصيب بصدمة اشد ويا للاسف . فما ان خرج من القصر واقترب من شجرة البلوط حتى مرق جنبه حوالى ثلاثين حارسا مصابين بجراح ثخينة ، والادهى من ذلك انه عندما اقترب من الشبكة وفتحها حفرا وجد فيها سنجابا .

– لا يهم ، سنسلخ جلد ذاك الارنب فى كل الاحوال – قال مدير الحرس وامر بايصال السنجاب مع الشبكة بحذر الى موضع استجواب المذنبين من الارانب .

– بعد هجوم آخر من هذا النوع سابقى بدون جيش – قال الملك بمرارة وهو يتفقد موقع المعركة بتقزز واشمئزاز .

– فى مملكة الارانب لا فرق بين حرس الملك وحرس المملكة ، ولذا يعتبر هذا الحرس جيشا بالطبع . وهو مسلح بحراب خيزرانية وعصى وعيدان خاوية من الخيزران تستخدم لرمى ابر الصبار . والقوة الفتاكة لعود الرماية تقتل ببغاء من الحجم المتوسط لكنها لا تكفى لاختراق جلود البشر ، ناهيك عن جلود الثعابين .

والجيش فى الواقع مخصص لمكافحة القوارض الصغيرة التى تتطاول

على مزارع الارانب او جحورها ، وكذلك ، بل وبالاساس ، لمكافحة الارانب المتمردة .

امر الملك بقطع غصن البلوط المطل على نوافذ القصر كيلا يتكرر الحادث ، ومضى الى البلاط لينتظر هناك نتائج التحقيق .

لكن المحققين اخفقوا فى انتزاع اية معلومات من السنجاب بسبب صمته العنيد . وما كان بالامكان ارغامه على الكلام لان بدنه ، او على الاصح ، اذنيه غير مكيفتين لطريقة التعذيب الوحيدة المعروفة فى المملكة آنذاك .

كانوا يربطون اذنى الارنب بحبل متين ويلقون بطرف الحبل الى عارضة السقف ويسحبون الارنب قليلا ثم يطلقونه بعد ان يسلموه الطرف الثانى . العقدة الكبيرة فى موضع التقاء الحبل بالعارضة تحول دون انزلاقه صوب الاذنين المربوطتين (فقد احتاط هؤلاء الدهاة لكل الاحتمالات) . ولكى يتخلص الارنب من الالم الشديد فى اذنيه المعلقتين يضطر فى آخر المطاف الى رفع بدنه قدر ما يستطيع ليبلغ العارضة .

واذا اعترف الارنب الذى بلغ العارضة ، بعد تلك الآلام الفظيعة ، بذنبه يطلقون سراحه بعد غرامة يحدد مقدارها وفقا لقرار الاتهام . واذا لم يعترف ينزلونه الى تحت ويتكرر التعذيب .

واتضح ان اذنى الارنب المتلبس بلبوس السنجاب صغيرتان لدرجة يتعذر فيها ربطهما بالحبل . وعندما كانوا يفكرون بوسيلة للخروج من الورطة وصل من الادغال فجاة نبأ يقول ان الارنب الصغير حر طليق ، وقد طلب قرنبيطا من عدة مسؤولين .

واضطر مدير الحرس الخائب الى اطلاق سراح السنجاب . وبالمناسبة صدر الى القناصة امر سرى «باطلاق النار» على السنجاب بحجة الفرار اذا مر راكضا جنب اول شجرة يصادفها فى طريقه الى الحرية دون ان ينط عليها . ومن حسن حظ السنجاب انه نط على اول شجرة صادفها فى طريقه .

وفى تلك الاثناء كان عصيان الارانب يزداد ويتسع يوما فيوما . فهى تواجه بولولة سافرة وتهليل ساخر النشرة الصباحية لمفعول التنويم التى يذيعها «المنادى» فى الساحة الملوكية .

وكانت هناك فضيحة كادت تؤدى الى قطع العلاقات الودية بين الارانب والقرود . فان احد ابناء «المتامل» (كان لديه اربعة اولاد يبز الواحد منهم اخاه فى العربدة وسوء الأدب) انهال بضرب مبرح على سعدانة فتية

فاجاها جنب المورد . وقد ضربها متحججا بانها عرفت بالخيانة التى تعرض لها ابوه ولم تخبر احدا . واصرت ام السعدانة على معاقبة الارنب المنفلت من عقاله وقالت انه طالب ابنتها بما يتعين عليه ان يطالب به ابناء جلدته . ولجات الجهات المسؤولة الى اكثر الوسائل الدبلوماسية تأدبا وتفننا لتفادى الفضيحة لانها تمس مصالح شخصيات رفيعة المنصب للغاية .

فى حين كان الارينب الشرير يظهر هنا وهناك ، خارت قوى الحرس الملكى وهى تبحث عنه فى كافة انحاء المملكة . فكلما ظهر الارنب الصغير وطالب بالقرنبيط متهكما تدهورت سمعة البرنامج الهائل لاستنبات القرنبيط وغدا موضع هزء وسخرية .

وعلقت على الكثير من الاشجار فى الغابات والادغال مواصفات الارنب الصغير وقد كتبت عمدا على اوراق الكرنب لتجلب انتباه سائر الارانب . الا انها علقت على ارتفاع كبير لكى تتمكن الارانب من قراءة الارادة الملكية دون ان تلتهمها .

ومع ذلك كان الارينب الشرير يختفى كل مرة دون ان يترك اثرا . فيقول مدير الحرس الملكى :

– هذه مؤامرة تعود جذورها الى بعض المقربين من مائدة الملك .

ذات مرة القى القبض على ارنب سكران راقب المخبرون طريقه من الساحة الملوكية حتى الجحر وسجلوا تمتمته المفككة المثيرة للشبهات :

– . . . وقال لى : «اعطيك قرنبيطا . . .» وقلت له : «ما حاجتى الى قرنبيطك ؟ لن اتناوله حتى لو مت جوعا ، فانا اشرب البيلسان واتمزز بجزر اجتثه بنفسى من بساتين السكان . هذا واقع ، اما قرنبيطك فمن رآه بأم العين ؟» . وقال مكررا : «اعطيكم القرنبيط ، اعطيكم كل شىء ، لكنكم لا تردون الجميل . . .» ، وقلت له : «تعطينا كل شىء ؟ كلا ، لا تعطينا ولا نعطيك» ، وقال من جديد : «اعطيكم القرنبيط ، اعطيكم كل شىء . . .» . اعتقلوا هذا الارنب وبعثوه الى مدير الحرس . وكانت هناك دلائل كثيرة تشير الى انه يشبه الارنب الذى اجتاز الدرب متمتما بحقد اثناء جولة الملك الشهيرة واختفى بين اعشاب البرارى . فى المساء لم يتمكنوا من انتزاع اى اعتراف منه ، لكنهم استدعوه فى الصباح ليحقق معه مدير الحرس بنفسه .

جلس مدير الحرس الملكى فى مكتبه يبرى الريشة استعدادا للتحقيق وهو يتطلع بين الفينة والفينة الى السكران الذى تمتم امس بكلام مريب يثير الشبهات .

وعلى الاصح كان يتطلع ليس الى السكران بل الى اذنيه . فخلال سنوات العمل الطويلة تعود على تقييم المتهمين استنادا الى شكل آذانهم. بعض الآذان ضيقة عند الاساس ، لكنها تتوسع كثيرا (فى رؤية المحقق المحنك طبعا) مما يوفر لمدير الحرس متعة جمالية حقة . فهذه الآذان ، اثناء التعليق ، لا تتملص من العقدة ابدا ، حتى لكان بالامكان ان تصنع منها ربطة عنق .

كانت اذنا هذا المتآمر من ذاك النوع بالـذات . ورئيس الحرس واثق الآن من انه متآمر . فان اذنيه دليل قاطع على ذنبه ، وان كان دليلا غير مباشر .

هذا السكير المجرم الذى لا يعلم بمدى جاذبية شكل اذنيه ظل يحدق فى المحبرة التى لا تقل جاذبية عنهما ، وقد ملأها السكرتير على مرأى منه بحبر طازج من عصير البيلسان القاتم .

– يعنى ستلزم الصمت ؟ – سألـه المدير اخيرا وقرب المحبرة قليلا . وتحرك الارنب المجرم عفويا فى اعقاب المحبرة بعد ان كان واقفا جنب المكتب .

– يا عمى المدير اريد قرنبيطا – دوى فجأة الصوت المعروف .

ارتجف مدير الحرس ورفع رأسه فرأى الارنب الصغير جالسا على رف النافذة بمظهر حزين وكأنه ينصت الى صوت لم يطلقه احد وينظر الى شىء لا يريد ان يظهر .

حول مدير الحرس بصره الى السكير ليتلقف الصلة بينـه وبين ظهور الارنب الصغير . الا ان السكير كان مشغول البال بمنظر المحبرة المترعة فلم يسمع شيئا على ما يبدو .

– انظر الى النافذة – قال المدير بصوت خافت واوما برأسه الى السكير ، وهو يتوقع منه ان يرتبك لظهور الارينب المجرم فجأة اذا كانا على اتصال .

– ابنك ؟ – سأل السكير والقى على النافذة نظرة زائغة واهنة ، فهو ، على ما يبدو ، لا يستطيع ان يحول بصره عن المحبرة .

وفكر مدير الحرس : كلا ، لا يعرفه .

– لو كان ابنى لـ . . – تمتم المدير ثم صمت وسلط نظرته على الارينب الحزين . لم يكن واضحا من اين جاء . فالنافذة المغطاة بالميكا الشفافة مغلقة .

– هل تعرف مع من تتكلم ؟ – سأل مدير الحرس وهو يفكر بشكل

محموم فى نتائج ظهور الارنب الصغير فى الحياة الداخلية للبلاط وامكان الكشف عن الصلة بين ظهوره وبين مؤامرة المقربين .

– نعـم ، اعرف مع من اتكلـم – قال الارنب الصغير على غير المتوقع ، وكان صوته الحزين هذه المرة يدل على انه لا ينتظر خيرا من معرفته تلك .

– يعنى جئت لتعترف – اعرب مدير الحرس عن حدسه مسرورا . فحتى الآن لم يتفوه الارينب بكلمة ، ما عدا عبارته الساخرة تلك .

لكنه فى هذه اللحظة اطلق لسانه فجأة وهو فى مكتب المدير . تصور هذا الاخير ان طبخة خطيرة ستطبخ ، فبعث هريرا وفرك راحتيه من شدة الارتياح . وتفتق ذهنه بقوة منقطعة النظير . وقال :

– انا اعرف كيف ظهرت فى البلاط . قفزت الى مضجع الملكة اثناء الهجـوم على شجرة البلوط . . . ولذا لم يعثروا عليك آنذاك . ولكـن كيف جئت الى مديرية الامن ؟ هذا ما يهمنى الآن . واعلم بأن الاعتراف طوعا يخفف من العقوبة .

– عندى ترخيص – قال الارنب الصغير بحزن واضاف ملمحا الى تيتمه الابدى : – لشخص واحد .

– طيب ، عندك ترخيص – وافقه مدير الحرس مبتهجا فى دخيلة نفسه – ومن اعطاك اياه ؟ انا اعرفه طبعـا ، لكن الافضل ان تذكره بنفسك . . .

– انت اعطيتنى الترخيص – قال الارنب الصغير بحزن ومد له شيئا فى راحته .

– انا ؟ ! – سأله المدير منفعلا مختنقا ومخمنا فى الوقت ذاته ان المتآمرين يحوكون الدسائس ضده بهذا الاسلوب الغادر .

– نعم ، انت – كرر الارينب بحزن ومد له ، بوقاحة ما بعدهـا وقاحة ، خرقة بالية لا تشبه الترخيص حتى من حيث المظهر .

انفجر مدير الحرس الملكى لهذه الوقاحة قبل الاوان . والتقط جوزة هند ثقيلة من على المكتب ، كان وفد القردة قد اهداها اياه ، ورمى بها الارنب الصغير .

حطمت الجوزة الثقيلة ميكا النافذة هادرة ، وبعد ثوان استقرت فى باحة القصر الملكى الداخلية . وكان واضحا من ارتطامها بالارض انها انفلقت وشخب سائلها .

– انفلقت – قال الارنب الصغير بلهجة ساخرة تحتمل تفسيرين ، كما خيل للمدير .

لم يضف الارنب شيئا ، بل استدار صوب النافذة وانحنى بحذر كيلا يجرح نفسه وحنى اذنيه براحته وانزلق الى الخارج واختفى وراء الافريز . لاحت اذناه من وراء النافذة لبضع ثوان ، وكان واضحا آنذاك انه تعلق بالافريز ويفكر فى الجهة التى ينط اليها .

وما ان اختفت الاذنان حتى قفز مدير الحرس من وراء مكتبه وتسلق رف النافذة ودس رأسه بحذر فى ثغرة الميكا وصاح مخاطبا الذين تحت :

– الم يمر احد ؟

كان الحراس يجوبون المكان تحت ، وعندما عثروا على رذاذ سائل جوز الهند لعقوه بكل عناية . ويخيل للرئيس ان ابريقا مملوءا بالنقود تهشم بعد ان سقط من عل ، وراح الحراس يبحثون عن القطع النقدية المتناثرة . كانت من نصيب احدهم كسرة كبيرة من جوزة الهند امسك بها بعصر آخر قطراتها فى فمه وبوزه مائل الى الوراء (ولذا كان اول من لمح رأس المدير) . واجاب :

– لم يمر احد ، يا رئيس .

رفع باقى الحراس رؤوسهم وصاحوا فجأة :

– شكرا لك ، يا رئيس . الق بالمزيد .

لم يرد مدير الحرس عليهم . سحب رأسه من ثغرة النافذة وعند ذاك لمح على رفها ورقة كرنب ذابلة جدا ومختومة بختم المستودع الملكى .

– الشيطان وحده يعلم بما يجرى – دمدم المدير ورمى ورقة الكرنب وجلس الى المكتب .

– هرب ؟ – سأل السكير منتعشا وهو ينظر الى الجهة التى سقطت فيها الورقة .

تطلع اليه المدير فالتقت نظراتهما .

– هرب – اجاب السكير بنفسه على سؤاله ووميض عيناه ببريق استفزازى برئ – تصرف غير محمود . . . لاسيما وانه جاء ليعترف ، فلماذا طردته ورميته بجوزة الحكومة ؟

– كفاية ، اذهب الى بيتك – امره المدير بصرامة – وخذ بالك : لم تسمع ولم تر شيئا .

– انا ذاهب ، طيب ، انا ذاهب – قال السكير دون ان يتزحزح

من مكانه ، وعاد يسلط نظرته على المحبرة – ولكن اذا جاء احد ليسلم نفسه ، لاسيما اذا كان مجرما بحق الملك ، لا يجوز تخويفه بجوزة الدولة .

– كفاية ، اشرب واذهب . – اوما مدير الحرس الى المحبرة .

– نخب صحتك يا رئيس – قال الارنب وافرغ فى جوفه دفعة واحدة محتويات محبرة تعتبر كبيرة . وانحنى فى الوقت ذاته ورفع من الارضية ورقة الكرنب التى رماها مدير الحرس . نفضها ومسحها بصدره مرتين وتشممها ثم دسها فى فمه وراح يمضغها ملمحا بالاشارات الى انه رفعها من الارضية ودسها فى فمه بوصفها شيئا لا ضرورة له ، والا لوضعها على المكتب من كل بد .

فليأكلها ، ربما ذلك افضل – فكر المدير ودهش ، بالمناسبة ، لسرعة تزايدالوقاحة لدى عامة الارانب .

– ورقة ملكية مشذبة – زفر السكير اخيرا – لذيذة جدا . . .

وألم به السكر بسرعة فراح ينصح مدير الحرس بافضل وسيلة للقبض على الارنب المجرم ، وظل ممسكا بالمحبرة واكتسى وجهه مسحة الابتزاز .

الا ان مدير الحرس القى عليه نظرته المشهودة ، فاعادته تلك النظرة الى رشده فى الحال .

– مفهوم ، يا رئيس – قال السكير ووضع المحبرة على المكتب وغادر المكان متراجعا .

تلك هى القضية – فكر المدير فخورا بمفعول نظرته . وخطر فى باله احتمال وجود صلة بين الارنب الصغير وبين مؤامرة فى داخل الحاشية ، واذا لم تكن هذه الصلة موجودة بعد ، افليس من الصائب ربط ظهوره بمؤامرة غير مكتشفة يستعد لها المقربون ؟ استدعى المدير سكرتيره واستفسر منه عما اذا كان قد جاء احد فى طلبه منذ الصباح ، فاجاب السكرتير :

– جاء ارنب صغير وقال انك تبحث عنه .

– وماذا قلت له ؟

– قلت له طالما المدير بحاجة اليك فادخل وانتظر . فماذا حدث ؟

– يعنى انك تسمح بالدخول لكل من يسأل عنى ؟ – قال مدير الحرس باكتئاب .

– كانت معه ورقة كرنب ملوكية – اجاب السكرتير – وذلك شكل

قديم للترخيص ، لكنه غير ملغى . آه ، ما هذا ؟ النافذة محطمة ، واذنك مدماة . ماذا ؟ محاولة اغتيال !

– من حسن حظ المملكة انها كانت محاولة فاشلة – قال مدير الحرس – يا له من خبيث غدار . ادعى بانى سلمته ترخيصا وهو يقصد ورقة الكرنب التى استلمها بارادة الملكة . من حسن الحظ ان لدى شهودا . مجرم خطير فى البلاط ! اغلقوا جميع المداخل ، وخصوصا المخارج . صب لى حبرا طازجا فى كاس وليس فى المحبرة ، يا للشيطان . اعتقد انه اختبأ بين راقصات الباليه فى البلاط ، سنضطر الى تفتيشهن بدقة .

ورغم غلق مداخل البلاط الملكى ، وخصوصا مخارجه ، تلقى الملك فى اليوم التالى نبأ مزعجا للغاية عن تصرف مشين جديد اقدم عليه الارنب الصغير فى اطراف المملكة هذه المرة .

وقد تحدث عن ذلك كبير موظفى الخزينة فى تقرير سرى . والقضية ان الملك امر بتشييد مستودع سرى للكرنب فى ابعد ركن مهجور من اركان المملكة نظرا لحلول عهد الفتن . واذا انهارت المملكة فعلا كان ينوى الاقامة هناك مع زوجته واقرب اشياعه بعد ان يصبغوا انفسهم بعصير البيلسان القاتم ، ويتظاهروا بانهم عائلة ثرية من الارانب الزنجية النازحة من بلد بعيد .

الا ان كبير موظفى الخزينة ، بمرافقة خمسة عمال من الارانب ، جلب امدادات الى المستودع يوم امس فراى الاربنب الحزين متربعا على كومة من رؤوس الكرنب ، مثل ملاك الموت الحزين المتربع على كومة من جماجم البشر وهى ، بالمناسبة لا تصلح للاكل اطلاقا ، خلافا لرؤوس الكرنب .

وعندما دخلت عليه الارانب طلب قرنبيطا كالعادة ، وبدا طلبه هذا سخرية مريرة ، فهو متربع على كومة من رؤوس الكرنب العادى ، وكانه واثق تماما من عدم جدوى جميع الاحتياطيات الغذائية التى يربض عليها .

– الم يقل شيئا بخصوصى ؟ – سأل الملك وهو يستمع الى القصة عابسا .

– كلا – اجاب كبير موظفى الخزينة – ولكن ما يثير الدهشة ان احد العمال صعد الى الكومة فوجد على قمتها ، بدلا من الارنب الصغير ، راس كرنب تنتصب منه ورقتان تبدوان كاذنى الارنب اذا نظرنا اليهما من تحت .

– الشىء الوحيد الواضح تماما – قال الملك باكتئاب – هو افتضاح سر المستودع السرى . . . اما هذا الاحمق ، مدير الحرس ، فهو يبحث عنه فى البلاط ، بل ويجس راقصات الباليه فى قصرى . واريد ان اقول ، يا اصدقائى ، ان مملكة الارانب يمكن ان تتقوض بعد شهرين او ثلاثة بنتيجة انخفاض القوى المنتجة عند الثعابين .

الا ان مملكة الارانب لم تتقوض ، ففى ذلك اليوم التاريخى المشهود وصل «الثعبان الصحراوى» زاحفا (ولذا يعتبر ذلك اليوم تاريخيا مشهودا) الى القصر التحتانى لملك الثعابين وحدثه باكتشافه .

امر الافعوان الكبير بتحشد عشيرة الثعابين التى تقلصت صفوفها . ودعت الحاجة الى سحب بعضهم سحبا ، فقد اصابهم هزال رهيب من سوء التغذية .

وقد هوى احد الثعابين من على شجرة التين القائمة عند مدخل بلاط الافعوان الكبير اثناء انشاد السلام الملكى ووقع جنب الملك . فاضطر هذا الاخير الى وقف السلام الملكى وظل ينتظر ما سيفعله الثعبان الهاوى من الشجرة .

ارتبك الثعبان لسقوطه المخزى واقترابه بلا تواضع من مربض الافعوان الكبير فحاول ان يزحف مبتعدا لكن بدنه الخائر لم يطاوعه ، مما ترك فى نفس الملك والثعابين الرابضة جنبه انطباعا ثقيلا للغاية .

– ارقد ، لوجه التنين العظيم – قال الملك اخيرا وقرر الا يواصل السلام الملكى المقطوع بل يتحدث بايجاز عن «الثعبان الصحراوى» الذى عوقب فى حينه (وهذا شىء ربما لا يعرفه الشبان) وعاد الآن باقتراح يستحق الاهتمام :

طلب من «الصحراوى» ان يتحدث فتحدث ، بشعور من الكرامة الشخصية المتواضعة ، عن اكتشافه النظرى واثباته التجريبى الذى كان موفقا تماما . وبعد ان استمعت الثعابين متجهمة الى حكاية «الصحراوى» اطرته بوابل من الاسئلة :

– ربما كان ذلك الارنب هزيلا جدا ولا موجب حتى لخنقه – قال الثعبان الذى تعود على رؤية كل الامور بمنظار اسود .

– طبعا – اجاب «الصحراوى» – لم يكن ذاك الارنب فى افضل حال ، ولكننى انا ايضا ، فى ظروف الصحراء اللعينة ، كنت عاجزا عن الحركة تقريبا ، فكل طعامى هو العظايا والفئران .

– لماذا تتحدث عن نفسك طول الوقت ؟ – فحت الثعابين ترد عليه – انظر الى حالنا نحن ومصائبنا .

– اعرف مصائبكم – اجاب «الصحراوى» بمزيد من الكرامة الشخصية المتواضعة – ولهذا السبب عدت اليكم . . . فانا اشعر الآن بالثقة والاطمئنان بعد ان خنقت الارنب بطريقة جديدة ، بلا تنويم .

– ومتى اكلته ؟ – سأل الافعوان الكبير على غير المتوقع .

– اليوم ، الم اذكر ذلك ؟ – قال «الصحراوى» .

– حالك اهون – تنهد الافعوان الكبير – تناولت فطورك ، اما انا فلم آكل شيئا حتى الآن . . .

انتاب الثعابين هاجس لا يعرفون ماهيته . ولعل من غير المناسب ان يتشكى الافعوان الكبير ، او على الاصح يحسد «الصحراوى» . فالحسد هنا يعنى الاعتراف بتفوق «الصحراوى» من بعض الوجوه . وفى تلك اللحظة حومت على الثعابين روح الريبة والشكوك فى الافعوان الكبير . صحيح ان العلاقات فى العشيرة ، مثلما عند الارانب ، مزعزعة لدرجة كبيرة ، ففى صباح اليوم اقدم الثعبان الصياد ، بالمناسبة ، على فعلة وقحة .

– يا هذا ، كم عمر الافعوان الكبير ؟ – سأل ثعبان من ثعبان آخر فى الصفوف الخلفية .

– من يدرى ؟ – فح ذاك الثعبان – الافضل ان نصغى الى «الصحراوى» ، فما يقوله فيه نفع وخير . . .

وظلوا يمطرون «الصحراوى» بالاسئلة ، وهو يرد عليها بوضوح وتواضع متزايدين .

– ما الحد الاقصى والادنى للخنق ؟ – سأل احد الثعابين .

– يا اخوتى – اجاب «الصحراوى» – ليس لدى ما اقوله الآن بخصوص الحد الاقصى والادنى ، لكننى اقول بثقة اننا قادرون على المقدار الاوسط «الذهبى» المتمثل فى ارنب واحد .

– هذا هو المهم – فحت الثعابين بارتياح .

– ما اروع المقدار الاوسط «الذهبى» الغدار ! – تنهد الثعبان الذى ضربه السكان فى حينه بسبب رأس الكرنب الذى اراد ان يقدمه الى الانثى البدينة .

– لا ادرى بخصوص الحد الادنى – قال الافعوان الكبير والقى

على الثعابين نظرة غريبة – لكننا سنجرب الآن الحد الاقصى . . . اخنق «الابتر» .

ارتجفت الثعابين من هول المفاجأة . وهجم «الصحراوى» على «الابتر» ، لكن الاخير ، كان هذه المرة على الارض ، رابضا على اية حال ، قريبا من شجرة جوز الهند ، فتمكن من التملص وتسلق الشجرة على عجل .

– اخنقه على الشجرة – صاح الافعوان الكبير بهياج شديد .

– لا اجيد الخنق على الاشجار – اجابه «الصحراوى» .

– وهل ننتظر حتى يهبط ؟ – سأل احد الثعابين مكتئبا .

– لن اهبط مطلقا – اجاب «الابتر» . فالطعام متوفر هنا .

وراحت الثعابين تقرّع «الابتر» حتى يشعر بالخجل ، لكنه لم يعبأ بفحيحها ، بل اشراب الى عنق موز جنب الشجرة وراح يلتهمه ملقيا بالقشور على ظهور الثعابين ، مما جعلها تنتفض بعصبية وانفعال .

– انت قرد ولست ثعبانا – قال الافعوان الكبير واحتوى عشيرته بنظرة من جديد – فلنجرب «الاحول» اذن . . . اين «الاحول» ؟

– الامر لك – اجاب «الصحراوى» بنفس التواضع والوضوح .

– ما العمل ؟ – قال «الاحول» – انا طاعن فى السن لدرجة لا تسمح لى ان ابدل ما فى نفسى . . . يمكنك ان تخنقنى . . .

تحلق الثعبان «الصحراوى» وهجم على «الاحول» . فاشتبكا ، لكن الاخير خر تلقائيا على «الصحراوى» كما يخر الملاكم المتعب فى زماننا على متن خصمه .

– قاوم ، قاوم – صاح الملك – نحن بحاجة الى تجربة فى ظروف مماثلة لظروف الادغال .

– اى مقاومة تنتظرون ؟ – زفر «الاحول» وقضى نحبه .

– مات فى سبيل القضية والحمد لله – قال الافعوان الكبير – كنت دوما اقول اننا لسنا بحاجة الى ثعبان يتكلم ارنب من داخله .

– ومما له دلالته – قال «الصحراوى» وهو يتملص من تلافيف بدن «الاحول» الميت – ان التجربة تنجح بقدر اكبر اذا كان الكائن الذى يجرى تجريبه ينتفض ويبدى مقاومة . فهذه المقاومة تستنهض الهمم وتحرك الجهاز العضلى كله .

– اسحبوه بعيدا – قال الافعوان الكبير – فنحن ندشن عصرا جديدا لا مكان فيه اطلاقا لمعوقين مثل «الاحول» ولشواذ مثل «الابتر» الذى

سنهز شجرته حتى يسقط . اننى اعين «الصحراوى» نائبا اول ووريثا ابديا للافعوان الكبير ، اى لى . انتشروا فى الادغال وتمرنوا وفولذوا طباعكم .

بعد ان فرغ الملك من هذا الكلام انزوى فى قصره التحتانى مصطحبا وريثه لتجاذب اطراف الحديث .

ومن ذلك اليوم انكبت الثعابين على التمرن باشراف «الصحراوى» بعد ان وضع لها طائفة من التمارين الكلاسيكية لتقوية العضلات الخانقة .

امسكت مجموعتان من الثعابين ، على سبيل المثال ، بطرفى ثعبان ممدود وراحتا تتسابقان فى جره كالحبل . وعلى ضفة النهر الرملية نصب شبيه ارنب اخذت الثعابين تتدرب على الوثب عليه .

وحظى التمرين التالى باقبال واسع : يختار الثعبان شجرتين فتيتين متقاربتين ويتسلق قمة احداهما ويربط ذيله بها ، ثم ينط على قمة الشجرة الثانية ويثبت راسه عليها ويشد بدنه ويرخيه وهكذا دواليك . وبهذه الصورة يتدرب ساعات طوالا جاعلا قمتى الشجرتين تلطمان احداهما الاخرى بزاوية ميلان متماثلة ، مما يساعد على تقوية الجهاز العضلى كله بشكل متناسق .

وفى يوم من الايام جمع «الصحراوى» الثعابين واعلن لها عن وفاة الافعوان الكبير وقال ان بدنه سيبقى الى الابد جنب غنائم صيده ، لان الثعبان النحات سيحنطه .

– وفقا لارادة الافعوان الكبير – قال الصحراوى فى الختام وهو يزيد من الوضوح دون ان يقلل من التواضع – سيحكم الثعابين ثعبان ، واعنى نفسى . ولن تبقى هناك قصور من الآن فصاعدا . . . ويبدل اسم بلاط الافعوان الكبير بصومعة الناسك الصحراوى .

– هل يمكننى ان اسأل ؟ – فح احد الثعابين .

– نعم – اوما «الصحراوى» .

– هل يمكن ان نسميك بالصحراوى العظيم تقديرا لمآثرك ؟

– انا شخصيا فى غنى عن ذلك ، ولكن اذا كانت هذه التسمية تعجبكم فالخيار لكم – اجاب الصحراوى العظيم بنفس التواضع والوضوح.

وفى تلك الاثناء واصلت الثعابين تمارينها بالاضافة الى اجراء التجارب على الارانب الحية . فى بادئ الامر كانت ثعابين كثيرة تؤدى تلك التمارين والتجارب بشكل تعوزه الدقة ، الا ان اساليب الخنق تحسنت بالتدريج . بادئ ذى بدء كان الثعبان غالبا ما يخطئ الهدف

عندما يثب على الارنب فيرتطم بالارض جنبه ، فيطلق هذا الاخير سيقانه للريح ، بينما يزحف الثعبان الى الشجيرات مرضوض البطن .

واثناء خنق الارانب تورطت ثعابين عديدة فى عقد ابدانها هى حتى صرفت وقتا طويلا فيما بعد لفك تلك العقد . وتورط احدها فى عقد بدنه حتى تعذر عليه ان يحل تلك العقد (الا ان هذا الثعبان ، والحق يقال ، خنق آنذاك قردا كبيرا) .

نقلوا الثعبان المذكور فى حالة متدهورة الى البلاط ، اى الى صومعة الناسك الصحراوى ، واجرى له الاطباء فحوصا واقترحوا بتر القسم المعقود من بدنه بغية الحفاظ على حياته .

– اقتراح غير نافع – رفض الصحراوى العظيم راى الاطباء – اغرقوه فى النهر . . . فقد عانينا ما عانينا من احد المعوقين . . .

سحب الحراس الثعبان المنحوس واغرقوه فى مياه النهر .

وبعد عدة ايام القى الصحراوى العظيم موعظة للثعابين فى موضوع «الخنق ليس هدفا بذاته» . وبعد ذلك وضعت طائفة من العقد الثعبانية الكلاسيكية الخناقة ، مما جعل حالات تورط الثعابين فى عقد ابدانها تتقلص كثيرا .

وطرات تبدلات هامة على معروضات عنائم الافعوان الكبير . فقد سلم بعضها الى الثعابين للاستفادة منها اثناء التمرن على الوثبات والتلافيف الخانقة . الا ان اثمن المعروضات ، وفى مقدمتها تمثال البشرى فى ريعان الشباب ، ظلت فى مواضعها طبعا .

وبدلا من المعروضات التى احتجبت ظهر ، فى المقام الاول ، تمثال ارنب قتل بالطريقة الجديدة ، وجنبه غنائم قديمة نحتت نماذجها وفقا لذكريات الصحراوى العظيم . وفى آخر صف غنائم الصحراوى العظيم يتواجد الافعوان الكبير محنطا بعينين يقظتين ، مما يسبغ عليه صفة رمز رهيب مخيف يحتمل معنيين ويلمح الى ان تلك هى اروع ضحية له ، لاسيما وان الثعابين تناقلت اشاعات غامضة تزعم ان الافعوان الكبير ، قبيل مماته بامد قصير ، قد حرم من حق التصويت او ارتج عليه الكلام واحتبس صوته .

ولكن حان موعد العودة الى اصحابنا الارانب .

المعلومات الاولى التى وصلت عن سلوك الثعابين الجديد لم تقلق احدا فى بادئ الامر . فالارانب التى تسنى للثعابين ان تخنقها لم يكن

بوسعها طبعا ان تحدث اشقاءها بشيء ، اما التي وقعت جنبهـــا الثعابين ثقيلة خرقاء فلم تفهم شيئا بعد نجاتها .

في البداية ضحكت الارانب وسخرت من هذه الوقائع وظلت تتصور امدا طويلا ان الثعابين تهوى عليها من الاشجار لتسحقها بثقلها طالما بطل مفعول التنويم .

وفيما بعد بلغت مسامع الملك اشاعات تقول ان الثعابين نصبت تمثالا لارنب «محبوب» تقدم له آيات الاعجاب يوميـــا بالقفز عليـــه واحتضانه . ويقال ان هذا التمثال نصب على مقربة من التلة الخضراء التي يندلع عليها في الآحاد لهيب لا ينطفئ احياء لذكرى «المتأمل» .

وقال الملك عندما سمع هذا الكلام :

– اصابها الهوس والجنون .

وعلق مدير الحرس قائلا :

– بدلا من الافعوان الكبير ظهر عندها ناسك صحراوي .

– وهذا بالذات ما يجعلها تصلي – كشف «الحكيم العجوز» عن سر اللغز .

– تصلي ؟ ! – هتف الملك بسخرية مريرة – كيف حزرت بسر هذه الظاهرة ؟ !

وما كاد «الحكيم العجوز» يقدح ذهنه للبحث عن جواب حتى دخـــل مكتب الملك سكرتيره وهمس في اذنه شيئا .

– فلتدخل – قال الملك بانتعاش ملحوظ .

بعد لحظة دخلت المكتب ارنبة منهوشة تعرج على احدى قوائمها . فأمرها الملك قائلا :

– تحدثي .

اليكم ما قالته : كانت ترتع في موضـــع بين الادغال والبراري ، وفجأة هجم عليها ثعبان عانقها وطوقها بتلافيف بدنه واخذ يخنقها . وتمكنت ان تتملص وتفر منه بشق الانفس .

– الم يجرب التنويم عليك ؟ – سألها الملك .

– ما قيمة التنويم ؟ – قالت الانثى – لم اشعر بمثل هذا الالـم الفظيع طول عمري . وقد فسخت قائمتي . . .

– الم تكن تلك محاولة للاغتصاب ؟ – سأل كبير العلماء على سبيل الافتراض .

– شيء ممتع – هتفت الملكة

– لو فسخوا لك قائمتك لما قلت ممتـــع . . . – اجابت الانثى بجسارة .

– هل تعرفين مع من تتكلمين ؟ – قاطعها مدير الحرس مهددا .

– هدوءا ، هدوءا – قال الملك دون ان يعبأ اطلاقا للهجة الانثى الخالية من الاحترام . – لكنك ادركت ، ولا بد ، ماذا اراد منك ؟

– ادركت انه يريد ان يخنقني – اجابت الانثى ، وكان واضحا من تعابير بوزها الصغير انها تجهد في قدح تصوراتها البليدة .

– ولاي غرض ؟ – سأل الملك بلجاجة .

– لا ادري – اجابت الانثى .

– طيب ، اذهبي يا عزيزتي – قال الملك وطبطب على كتفهـــا ، واضاف مخاطبا السكرتير : – امنحها اعانة اسبوع بوصفها متضررة اثناء اداء الخدمة الرسمية .

شكرت الانثى الملك وخرجت مع سكرتيره ، فقال صاحب الجلالـــة لمعاونيه :

– ما رايكم في الموضوع ؟

– اعتقد ، يا حبيبي ، ان رعيتك ارخت العنان – قالت الملكة .

– حبذا لو شددناه – ايدها مدير الحرس ، بينما لاذ الآخرون باذيال الصمت .

– اما انا فاعتقد ان هذه حادثة ممتعة للغاية – انتعش الملك – فقد انتظمت الامور واتضحت : ازدياد عدد الارانب الضائعـة دون اثـــر ، وحادثة الانثى ، وتمارين الثعابين الغريبة . . . كل ذلك يدل على انها ابتدعت سلاحا جديدا رهيبا هو الخنق .

– انت عبقري يا مليكنا – هتف الحكيم العجوز – ما حاجتك الى ، وما حاجتك الى العلماء ، وما حاجتك الى مدير الحرس اذا كنت انت الكل في الكل ؟

– على مهلك – اجاب الملك – لم افعل سوى التأكيد على التعميمات اللازمة . يجب اشعار الارانب بالخطر الرهيب الذي خيم عليها . . . من قال : لا موجب لتطوير طبيعتنا ؟ انا . اما الآن فقد بلغ الامر حد تحطيم عظام الارانب وهي حية . ان سلاحنا ضد الثعابين هو التكاثر بوتائر سباقة .

ومما يؤسف له ان نبأ سلاح الثعابين الجديد الخطير الذي يتطلب رص صفوف الارانب اكثر مما في اي وقت مضى سرعان ما تاكد بشكل

مأساوى فاجع . القت الارانب الى النهر تمثال الارنب الذى تتدرب عليه الثعابين ، ولكن بعد فوات الاوان . واخفقت كذلك محاولات قضم الاشجار الفتية كيلا تتمكن الثعابين من استخدامها لتقوية العضلات الخانقة . فقد صارت الثعابين تتربص بالارانب جنب الاشجار الفتية التى تنمو ازواجا متقاربة . ثم هل يمكن قضم جميع الاشجار الفتية التى تنمو ازواجا متقاربة ؟

وتضاءلت اهمية نشاط «المتعطش» بعد ان تحولت الثعابين الى خنق الارانب بدلا من التنويم .

اقترح مدير الحرس مرارا معاقبة «المتعطش» بتعليقه من اذنيه ، لكن الملك رفض هذه العقوبة القصوى ، معتقدا بلزوم استخدام اللين فى معاملة الارانب طالما تعاملها الثعابين بالشدة ، والا فستنهار معنوياتها بالكامل .

وعلى العموم عاودت الملك قابليته الهزلية وروح التنكيت البذىء بعض الشىء والذى تقدره الرعية وتتفهمه بافضل شكل .

– يخيل الىّ ان احدا وعدنا بالركض على ظهر ثعبان – كان الملك يقول اثناء تحشدات الارانب ، مما يثير دوما قهقهة صريحة . وهو يطلق هذه النكتة عادة كلما تقدم «المتعطش» باقتراح لاجراء اصلاحات ما .

– انتم تعرفون بالطبع ان الموقف تغير تماما – كان «المتعطش» يرد على تلك التلميحات غير السارة .

– تلك هى القضية – يقول الملك هازا راسه – ما ان نحاول تطوير طبيعتنا حتى تحلق الثعابين لتصطادنا . قال ابى هذا الكلام فى ازمان لم يخطر على بال احد فيها ان الثعابين يمكن ان تتخلى عن التنويم.

رضخت الارانب من جديد ومالت الى احترام القانون . صارت تسدد ضريبة البساتين بانتظام الى بيت المال ، ولم تقلل من تعاطى المسكرات، لكنها اكتفت بشربها فى الجحور وليس فى الاماكن العامة . وسعى «المتعطش» الى جعل كبير العلماء مع كل العاملين فى ديوانه ، يبذلون جهدا لتحسين نشاط دائرة الامن لاجل حماية الارانب ، وذلك عملا بالقول المأثور الذى تركه المعلم الراحل : اذا كانت الحكمة عاجزة عن فعل الخير فيتعين عليها فى اقل تقدير ان تطيل طريق الشر .

ومنذ ان بدأت الثعابين تهاجم الارانب من وراء الكمائن فى الغالب لازم كبير العلماء القصر ولم يعد يغادره عموما ، وعلى الاصح كان يحضر

اجتماعات الارانب فقط ، لا ابعد من الساحة الملوكية بالطبع . اما تجاربه العلمية فى الظروف الميدانية فقد طواها النسيان .

صحيح انه استخلص صيغة ذهنية عميقة ، بعد عمل طويل فى استجواب الارانب التى نجت من الموت بالصدفة ، ومفادها ان طول قفزة الثعبان تعادل مربع طول بدنه .

الا ان الارانب ، رغم دهشتها واعجابها بجمال هذه الصيغة الدقيقة ، تشكت – بعد ان حرضها «المتعطش» – من انها لا تصلح للتطبيق العملى اطلاقا . وحاول الملك تهدئة الارانب معترفا ضمنا بشرعية شكواها ، وقال :

– بين ايدينا نظرية صائبة ، وهذا بحد ذاته اكثر من لا شىء .

– النظرية قد تكون صائبة – اجابت الارانب – ولكن كيف نستخدمها اذا كنا لا نعرف طول الثعبان الذى يهاجمنا ؟

– رأى صحيح ايضا – وافق الملك واضاف وهو يبحث عن «المتعطش» بنظراته – بالمناسبة ، وعدنا احدكم بالركض على ظهر الثعبان . . . حبذا لو قاس طول خمسة او ستة من الثعابين ، وعندها نحسب ، على الاقل ، متوسط طول الثعبان المهاجم . . .

– انتم تعرفون ان الموقف تغير تماما – اجاب «المتعطش» وغض بصره باستحياء .

– نعرف طبعا ، ومن زمان – كان الملك يجيب دوما ، مما يثير الاعجاب الوادع لدى الارانب .

– «يعرف من زمان» – تكرر الارانب وهى تتوزع على جحورها بعد الاجتماع – دماغ ملكنا يشتغل على اية حال .

ورغم الويلات ، بل وبفضل الويلات ، ظلت الارانب تتكاثر بوتيرة سباقة ، وبفضل تلك الويلات ذاتها ظلت تسرق بساتين السكان بمزيد من الهمة (فقد ظهرت فرق الفدائيين) وبالتعاون مع القردة التى تشاركها الراى فى هذه المسألة .

واخيرا تمكن السكان ، بعد ان طوروا طبيعة حبهم لبساتينهم ، من اقناع الصحراوى العظيم ليسمح للثعابين بأن تؤدى دور الفخاخ الحية فى حراسة البساتين . وبخصوص الاجور تم الاتفاق بمنتهى اليسر حيث قال السكان :

– كل ما تصطاده من نصيبك .

اقبلت الثعابين على الحراسة برغبة ، لان الارانب ، بل وحتى القردة ، فيموسم نهب الخضر والثمار تفقد شعورها بالحذر فى البساتين .

– ليتنى كنت اعلم آنذاك بأن هؤلاء السفلة سيقومون بحراسة الذرة – قال بحزن شديد سعدان يعلك القمل من رأس حفيدته التى لم تسمع اطلاقا بالارنب «الفطين» ، ناهيك عن «المتأمل» الذى خانه .

ذات مرة عاد ثعبان من نوبته فى حراسة حقل الذرة وكان مرتبكا بعض الشيء كما لاحظ رفاقه ، فسألوه :

– ماذا حدث ؟

– يخيل الى انى اخطأت الهدف – اجاب وهو يتهيأ للنوم فى وهدة رطبة ليس بعيدا عن صومعة الصحراوى العظيم – ابتلعت زوجة صاحب الحقل بدلا من السعدان .

– وكيف وجدتها ؟ – سألت الثعابين التى تستجم فى تلك الوهدة .

– لا شيء يستحق الاهتمام – اجاب الثعبان – هل يشكونى زوجها الى الصحراوى ، يا ترى ؟

– الله اعلم – اجاب ثعبان كهل لا يزال بمظهر الشباب – حسب الظروف . . . احيانا يرغب احدنا بامرأة بدينة حلوة ولا يحدث له شيء ، واحيانا يلتهم قزعة حقيرة فتثور ضجة فى الادغال كلها . . .

– تلك ايضا نحيفة معروقة . . . فى البداية تصورتها قردا بالفعل فى الظلام ، وبعد ذلك التهمتها لعلمى ان المسؤولية واحدة فى كل الاحوال . . .

– حسنا فعلت – قال الثعبان الكهل – الافضل عدم ترك الجثة . . . فالسكان يسكرون من حين لآخر ، مثل الارانب ، وينسون كل ما حدث . وقد يستيقظ احدهم بعد السكر ولا يتذكر اطلاقا هل اهدى زوجته لاحد ام انه طردها . . . وبالمناسبة – اضاف بعد حين هذا الثعبان الكهل الذى يحب مساعدة الشباب العديمى الخبرة لكنه يفعل ذلك بشيء من الاستعجال – اذهب وسلم الغانط الى غرفة اللقى قبل ان تفرغ من الهضم . فالسكان يستعيدون هدوءهم بسرعة اذا استلموا للذكرى حلية حديدية او حاجة ما تبقى لديهم من الشخص الذى نبتلعه . . .

وقد صدق ظن الثعبان الكهل . فبعد اسبوعين تقريبا بلغت مسامع الزوج اشاعات عن زوجته الضائعة تقول ان الثعبان الذى حرس بستانه هو الذى ابتلعها . وشعر الرجل بالاهانة خصوصا لان الثعبان ادعى بانه تصورها قردا ، مما اثلج صدور بعض السكان واعطاهم حجة للشماتة .

ولذا جاء الرجل الى الصحراوى العظيم شاكيا . وقبل ان يستقبله الصحراوى امر بحجب تمثال «البشرى فى ريعان الشباب» احتراما للتقاليد القديمة .

– احد ثعابينك ابتلع زوجتى – طفق الرجل يتشكى الى الصحراوى العظيم وشدد خصوصا على «مقارنتها» المهينة بالقرد . فوعده الصحراوى العظيم قائلا :

– سنعاقبه . وبالمناسبة اذهب الى غرفة اللقى وخذ ما كان عليها من حلى اذا كانت عليها حلى .

– شكرا لك يا صاحب الفضل – انحنى لـه الرجل – فسأتزوج امرأة اخرى .

– طيب . سوّينا المشكلة اذن – اجاب الصحراوى العظيم – وانا اتادى دوما بالعلاقات الودية مع السكان . . .

كان الرجل راضيا تماما عن الحفاوة التى استقبلوه بها ، فطلب رغم هذا الحادث المؤسف ، الا يتركوا حقله بدون حارس . لكن الطرفين شعرا ببعض الارتباك فى آخر الحوار . كان الرجل يتطلع الى المنحوتات معجبا فعلا بفن الثعبان النحات ، فقال فى الاطراء على محنطة الافعوان الكبير :

– كانما هو حقيقى . . .

– انه حقيقى بالفعل . – اجاب الصحراوى – محنط ، انتزعت امعاؤه واستبدلت بالقطران .

– وهذه مستلزمات تحنيطك ؟ – اومأ الرجل الغبى الى محنطة البشرى المحجوبة .

– لعلها مستلزمات تحنيطك انت – اجاب الصحراوى بغموض مخيف ، فغذ الرجل فى السير ثارا بجلده . «الصحراوى» لا يحب الكلام عن موته ، بل ولا يحب حتى الكلام عن موت الآخرين اذا كان يذكره بموته .

باختصار دخلت حياة الثعابين والارانب ، بعد اعتلاء «الصحراوى» العرش ، جادة جديدة اكثر عمقا واستقامة : الارانب تسرق متلذذة ، والثعابين تخنق متلذذة ايضا .

وكان ملك الثعابين يعيد ويكرر :

– التكاثر السباق وانتظار القرنبيط هما منبع تفاؤلنا التاريخى

وواصلت الارانب التكاثر بنجاح وهى تنتظر القرنبيط صابرة .

وتقول الانثى لزوجها فى الليالى :

– انت حى وانا حية ، واطفالنا احياء ، يعنى ان الملك محق على اية حال . . .

الارانب لا تفهم ان الاحياء وحدهم يستجيبون للنداء .

ويتنهد «المتعطش» قائلا :

– ليت المعلم على قيد الحياة . . . فماذا استطيع ان افعل لوحدى ، وخصوصا فى الظروف الجديدة ؟

وبالمناسبة فقد حاول ، وفقا لقول «المتأمل» المأثور ، ان يطور قدرة الارانب على الفرار لتطيل طريق الشر .

اسست ارملة «المتأمل» جمعية طوعية للشباب من محبى القرنبيط . وفى الآحاد ، عندما يندلع على التلة الخضراء اللهيب الذى لا ينطفئ فوق قبر «المتأمل» الرمزى ، كانت تجمع اعضاء جمعيتها هناك وتتذكر اقوال زوجها الذى لا تنساه ، وهى اقوال متنوعة لا نهاية لهـــا بشأن طعام المستقبل الرائع هذا . وتستقر طراوة ذكرياتها عن القرنبيط على رأس صلب من الكرنب العادى تستلمه من احتياطيات الملك .

ذات مرة كان الملك والملكة اللذان بلغا من العمر عتيا يتدفآن فى شمس المغيب عند النافذة التى اطل عليها من غصن البلوط الجزرى فى حينه ذاك الارنب الصغير مطالبا بالقرنبيط . فسألت الملكة من الملك على غير انتظار :

– «الفطين» هو صاحب العينين الجميلتين ام ذاك الذى خان المعلم ؟

وبالمناسبة فقد اضفى فنانو التجميل فى البلاط على محيا الملكـــة سمات الجمال السابق ، فما اقل الذين يتذكرونها فى شبابها .

– لا اتذكر . . . اعتقد انهما من عائلة واحدة – اجاب الملك وهو ينبش اسنانه بريشة نسر . – الا اننى مللت خصوصا من ارملـــة «المتأمل» .

الملاحظة الاخيرة التى ادلى بها الملك ، ولا تمت بصلـــة لسؤال الملكة ، واضحة لا جدال فيها . فقد عمرت الارملـــة اكثر من اللازم . ابناؤها بل وحتى بعض احفادها هلكوا من زمان ، اما هى فلا تزال تحكى مشاهد من حياة «المتأمل» وتتذكر تفاصيل جديدة من احاديثه الصريحة عن القرنبيط .

الا ان المرء يمكن ان يتفهمها هى ايضا ، اذ يعز عليها فراق الكرنب

الملوكى المجانى ، مما منحها القوة اللازمة لطول العمر . باختصار ، يمكن فهم الجميع اذا توفر الوقت الكافى وحسن النية .

ومما له دلالته ان البعض من الارانب الشائخة ، عندما تتحدث الى الشباب ، تضفى صبغة مثالية مكثفة على الحياة السابقة فى عهد التنويم . قال احدها :

– فى الماضى كنا نعرج على الادغال ويصادف ان نقابل «الاحول» فنمر جنب صفحة وجهه المأمونة ، او نصادف «الابتر» فلا يعيرنا اهتماما . . . لماذا ؟ لانه شبع من الموز كالقرد .

– واين هما الآن ؟ – تساءلت الارانب الشابة متحسرة على تلك الحرية .

– «الاحول» خنقته الثعابين – اجاب ارنب عجوز – اما «الابتر» فقد تحول الى حيوان آخر وبدّل اسمه .

– حالفكم الحظ – تنهد الشباب .

– ما كان احد يصدق آنذاك ان البشر استخدمـــوا الثعابين ضد الارانب . . . – تمادت الارانب الشائخة فى حديثها .

– والشراب ؟ كانوا يوزعون عصير البيلسان الخالص مجانا – تذكر السكيرون الكهول – ولك الخيار فى ان تتعلم الكتابة او تشرب «الحبر» .

– لكنكم نسيتم الشىء الرئيسى – ذكرهم احد الارانب – فى عهـد التنويم اذا كان مقدرا عليك ان تموت ينومونك فلا تشعر بالالم .

– اما الآن فان عامة الارانب تشرب نبيذا كالسموم – رفض سكير عجوز ان ينهوا موضوع الشراب – ولا يوزع عصير البيلســـان الا على المقربين .

– باختصار ، كان هناك نظام دون شك – تنهد احد الارانب الطاعنة فى السن .

ومما يثير الدهشة ان الثعابين الشائخة تؤكد هى الاخرى ، عندمـا تستعرض ذكرياتها امام الشباب ، ان الحياة كانت افضل فى السابق ، مع انها تبالغ كثيرا كالعادة .

– فى عهد التنويم – قال ثعبان طاعن فى السن – كنت ازحف فـى الادغال فاصادف ارنبا ، وحالما اسلط عليه نظرتى يتجمد . واصـادف ارنبا آخر فيتجمد ، وخلفى تـزحف زوجتى وتجمع الغنائم . مـــا اروع الارانب آنذاك . ارانب اليوم كالجرذان بالمقارنة معها . عندما تبتلـع ارنبا لا تحتاج الى افرازات فى المعدة ، فهو ينهضم بشحمه . اما الآن

فانت تخنقه وهو يصاصي ويتملص ويحاول ان يبرهن لك . . . وماذا يمكن ان يبرهن ؟

– عشتم في نعيم – تنهدت الثعابين الفتية حالمة .

– كان هناك نظام – قال ثعبان عجوز في الختام ، واضاف بعد تأمل قصير وكأنه يخشى التقولات : – في عهد التنويم . . .

– يظنون الخنق سهلا – غالبا ما يكرر احد الثعابين الشائخة وهو يتوجه للنوم ويلم بشق الانفس تلافيف بدنه الذي يعاني من النقرس . مظهره لا يدل اطلاقا على انه هو صاحبنا الثعبان الذي تعود على رؤية كل الامور بمنظار اسود ، في حين انه هو ذاك الثعبان بالذات .

* * *

هذا كل ما سمعته عن قصة العلاقات بين الارانب والثعابين . وهي قصة حزينة على اية حال . واذا كان احد يعرف تفاصيل هامة اخرى اهملتها في السرد فساكون مسرورا لو زودني بها في رسالة او بالتلفون ، والافضل ، طبعا ، لو احتفظ بها لنفسه ، فقد مللت .

عندما سجلت هذه الرواية خامرتني بعض الشكوك العلمية . فانا ، مثلا . لا اعرف هل تقوم الثعابين بتنويم الارانب حقا ام ان ذلك يخيل للرائي لا اكثر .

فان الفريد بريهم في كتابه «حياة الحيوانات» لا يتطرق الى هذا الموضوع اطلاقا . ويميل جميع معارفي الى الاعتقاد بأن الثعابين تنوم الارانب فعلا ، لكن احدا لا يستطيع ان يجزم بذلك .

ولم اجد بين اصدقائي شخصا مهتما بدراسة الافاعي والثعابين ، لكنني تذكرت فيما بعد واحدا من معارفي يكاد يكون منسيا . كان يقول عندما يرسلونه في ماموريه الى صحراء قره قوم : «انا ذاهب الى الافاعي . . .». انا اعرف انه جيولوجي ، لكنني ظننت انه يدرس الافاعي والثعابين اضافة الى وظيفته . عثرت على رقم تلفونه بمنتهى الصعوبة ورحت امدا طويلا اذكره بعبارته تلك دون جدوى ، وهو ينكر ويمانع لسبب ما ويؤكد بانه يمكن ان يكون قد غضب على هذا او ذاك من العاملين في فرع معهد آسيا الوسطى ولكنه شخصيا لا يتذكر اطلاقا بانه غضب على جميع العاملين في الفرع المذكور دفعة واحدة .

زد على ذلك انه سالني عن هويتي ومهنتي وعن سبب اهتمامي بهذا الموضوع مع انني بدات الكلام من ذلك بالذات . ويبدو انه استمع الى

في البداية بذهن شارد ، وبسبب اسمي العربي الاصل اعتبرني من الاشخاص الذين عملوا معه في المعهد الآسيوي في ذاك الزمان .

– آ ، هذا انت اذن ، يا شيخ – قال فرحا بعد ان ادرك حقيقة الامور في الاخير – ظننتك من الوشاة والخصوم . . . كلا ، اية ثعابين ؟ ليس عندي وقت حتى لالتقاط النفس . . . الا ان الافاعي الحقيقية لو تحدثنا في صلب الموضوع . . .

ولما كانت الافاعي بالمعنى المجازي لا تشغل بالي لم انتبه الى شكاواه ووضعت السماعة في اول فرصة لائقة .

– عرضوا ذلك في التلفزيون – قالت احدى النساء عندما تطرقنا الى موضوع الثعابين في شلة من الاصدقاء .

– هل شاهدت البرنامج بنفسك ؟ – سالتها في امل .

– طبعا – قالت المرأة واشاحت بوجهها عن المرآة بعد ان تطلعت فيها بصرامة المعلمين التي تتطلع بها جميع النساء في المرايا ولسان حال كل منهن يلوم محياها المليح لان بوسعه ان يكون اجمل بكثير مما هو عليه .

– وماذا بعد ؟ – سالتها يتحرقني الفضول .

– حدث ذلك بالفعل . . . – قالت والقت عليّ نظرة كبيرة الدلالة – ادخلوا الارنب في قفص الثعبان . . .

– وماذا حصل ؟ – سالتها .

– لا ادري – اجابت والقت عليّ نظرة ذات دلالة اعمق – اشحت بوجهي . لا استطيع ان انظر الى الثعبان وهو يبتلع الارنب . . .

لم تتمكن هذه المرأة ، على اية حال ، ان تخبرني بما يشفي الغليل . وفي نهاية الامر تمكنت من خلال شخص آخر من معارفي له علاقة باحد دارسي الافاعي والثعابين ان اعرف وجهة نظر العلم بخصوص هذه المسالة .

فقد افاد هذا الباحث بثقة مهينة ان لا وجود للتنويم اطلاقا وان كل ذلك الكلام مجرد اساطير وخرافات وصلتنا من الهمج البدائيين (ربما يقصد السكان الاصليين في روايتنا) . وبذا نجد توافقا تاما بين اقواله وبين ملاحظات «المتأمل» .

كنت في قرارة نفسي واثقا من ذلك دوما ، ولكن سماع تأكيد علمي مرموق تماما لآراء الارنب «المتأمل» يبعث على الارتياح ، لاسيما وان هذا المفكر الرائع حقا توصل الى اكتشافاته في ازمان سحيقة لم تكن فيها لا

مراكز علمية كبرى ولا علم ، كالعلم السائد فى زماننا ، يهدى الى سواء السبيل ويحدد بوضوح : اى من الافاعى نافع وايها ضار ؟ ويطرح الاسباب والتعليلات . «فالمتأمل» اثبت صواب رأيه مضحيا بنفسه .

وقد لاحظت ، بالمناسبة ، ان بعض الناس يكتئبون لسماع قصة الارانب والثعابين هذه ، وبعضهم ينفعلون مؤكدين ان اوضاع الارانب ليست بهذا القدر من السوء ، وان لديها امكانيات هامة غير قليلة لتحسين حياتها .

ورغم ما جبلت عليه من تفاؤل يجدر بى ان اقول ان القارئ المكتئب يعجبنى فى هذه الحالة اكثر من القارئ المنفعل الذى ربما يحاول التأثير على الارانب من خلال الراوى .

واليكم مثالا توضيحيا . يصادف ان تعرج على احد معارفك لتقترض منه مبلغا زهيدا . وكما هى العادة تبدأ حديثك ، من بعيد ، عن صعوبات الكسب وما الى ذلك . وتنظر الى محدثك ، فاذا رأيته يدخل معك فى الموضوع وينفعل ويدلك على الكثير من سبل الكسب اليسير نسبيا ، فاعلم بأنه لن يقرضك فلسا .

واذا اكتأب محدثك اثناء تلميحاتك غير الشفافة تماما ولم يدلك على اية سبل للكسب اليسير نسبيا فاعلم بان الموقف هنا افضل بكثير ، وهذا الرجل يمكن ان يقرضك ، مع انه يمكن الا يقرضك . وقد اكتأب اما لانه ودع نقوده وفارقها ذهنيا ، واما انه يستعد لرد صارم بعد ان قرر الا يقرضك . ومع ذلك هناك احتمال على اية حال .

وفى قضية الارانب هذه افضّل القارئ المكتئب بعض الشىء ، لانى انتظر منه نفعا اكبر للارانب ، اذا كان هناك شىء يمكن ان ينفعها على العموم .

العم ساندرو

(قصة)

١

شجرة الفداء

في مطلع الثلاثينات اجتاحت موجة اشاعة الكولخوزات قرية «شيغيم» الجبلية واقتلعت العناير والمرابط والحظائر قاذفة كل ما تصادفه في طريقها الى اتون واحد ، حتى اختلط الحابل بالنابل ، من جواميس وخنازير وشياه وسواها . فامسك كل دابة من ضرعها او من اليتها والق بها في المرجل الكبير : كل شيء ينفع الاقتصاد الزراعي المؤمم .

كان الشيخ خابوغ ، والد العم ساندرو ، من اغنى اهالي القرية . فهو يمتلك زهاء الف رأس من الدواعز وعشرة ابقار وعددا من الجواميس ، وخيول الركوب واربعة حمير وخمسة بغال .

اولاده الاربعة ، بالاضافة الى العم ساندرو ، يعاونونه في تصريف شؤون استثمارتهم التي كلفتهم جهدا وكدا وضنى .

وكما يصادف في المناطق الجبلية حيث تتساقط امطار غزيرة في كل مكان ما عدا سفح يبقى في منجى من الزوبعة ، وتطل عليه الشمس بين حين وآخر ، صار الكثيرون من اهالي «شيغيم» يأملون بان تمر زوبعة الكولخوزات ، وحماقة اشباه المتعلمين الذين يرتدون بدلات البيسور الحريرية ، بسلام دون ان تمس قريتهم بسوء .

ألم تمر الكومونة بسلام ولم يبق منها سوى ذكريات وجبات الغداء العامة الشبيهة بالولائم اليومية ، والآثار السوداء العريضة التي خلفتها مواقد طهي الطعام في باحة مجلس القرية ، بالاضافة الى مختلف النكت والنوادر بخصوص تلك الحقبة القصيرة المرحة ؟ ولذا ظل اهالي «شيغيم» ينتظرون متوقعين ، يضربون اخماسا في اسداس ، لعل الزوبعة تمر بسلام .

لكن كل الدلائل تشير الى ان السلطات هذه المرة لا تميل الى المزاح . في البداية انضمت الى الكولخوز اكثر العوائل فقرا ، وبعد ذلك

تململت عوائل مستقلة اقوى ومالت اليه بخلاف العوائل الفلاحية الاخرى .

عرضوا على الشيخ خابوغ ايضا ان ينتسب الى الكولخوز لكنه تعذر بمختلف الحجج المرحة وغير المرحة متظاهرا بان لديه في هذا الموضوع معلومات خاصة واخبارا ينتظر ان تتاكد بين لحظة واخرى ، وما ان تتاكد حتى تسير الامور في مجرى آخر . لكن الاخبار لا تريد ان تتاكد . فهدده رئيس الكولخوز اخيرا بحرمانه من حق التصويت .

– الافضل ان تحرم حماري منه ، فان انكر الاصوات لصوت الحمير – اجابه خابوغ دون ان يفهم تماما معنى حق التصويت . ظن ان الرئيس لن يسمح له بالكلام في الاجتماعات ، ففي الاجتماعات يمكن لاي كان ان يتكلم ، المهم ان يرغب الفلاحون في الاستماع اليه .

كل المخولين القادمين من المدينة الذين نزلوا في داره حسب التقاليد القديمة (وهذا ما منحه الجراة اللازمة) نصحوه ايضا بالانتساب الى الكولخوز ، فذلك ، كما قالوا ، امر لا مفر منه .

راح رئيس الكولخوز يضغط على خابوغ خصوصا لانه يتمتع لدى اهالي «شيغيم» بمنزلة محترمة غير مفروضة فرضا ، ولذا فهي متينة ثابتة كمنزلة جميع العارفين بالامور في كل ميادين الحياة ، ولا سيما في ميدان مكشوف مثل تسيير الاستثمارة التي يحاول فيها كل عرنوس ذرة ان يكون شبيها بصاحب الاستثمارة وكل إلية تلطم عجيزة الخروف بقوة النقل التي يمنحها اياها صاحب الخروف .

رئيس الكولخوز يعرف ان الكثيرين من المترددين سيتحولون الى الكولخوز اذا انتسب اليه خابوغ .

بلغت «شيغيم» اشاعات عن نفي بعض الفلاحين الاثرياء الى سيبيريا . وكان عددهم في ابخازيا قليل جدا ، لكن نفيهم واقع لا جدال فيه ، والشيخ خابوغ يعرف ذلك ، يعرفه ويفكر فيه ، فهناك امور كثيرة غامضة لا يفهمها العجوز .

فهو لا يفهم مثلا اين سيحتفظ الكولخوز بالماشية اذا جمعوها من القرية كلها ؟ ولماذا لا يبنون مسبقا مرابط كبيرة للابقار وحظائر مسقوفة للاغنام والدواعز ؟ واية قوة ستحمل الفلاحين على العمل بشكل مثمر في الحقل العمومي اذا كان الواحد منهم يعمل كيفما اتفق حتى في استثمارته الشخصية ؟

والامر الاهم الذي تعجز الكلمات عن التعبير عنه ولن يفهمه ابدا هؤلاء الكتبة الذين يرفلون ببدلات الحرير هو : من الذي يرغب في

العمل ، وربما العيش على الارض اذا كانوا يدنسون سر الحب الابدى الذى لا يعرف الحساب مثل سر الجنس ؟ سر حب الفلاح لحقله وتفاحته وبقرته وقفيره وحفيف الذرة فى ارضه وعناقيد العنب التى تدوسها قدماه فى معصرته ؟ وحتى لو اجهز ساندرو واصحابه على هذا النبيذ فيما بعد وشربوه وبددوه فان السر الكبير يبقى معه ، لانهم لا يمكن ان يشربوه ويبددوه .

واذا كان الفلاح يستلم عائدات نقدية من ماشيته او تبغه ، فالقضية هنا لا تقتصر على النقود التى هى ضرورية ايضا للعائلة ، القضية ان هذه النقود نفسها مطبوعة بسحر السر اللذيذ ، وربما تكمن حلاوتها فى كون ملمسها وسيلة للالقاء بذلك السر اللذيذ ، الامر الذى لا يفهمه اطلاقا كل اشباه المتعلمين الذين يرفلون فى بزات الحرير .

اما ان الكولخوز يعد الناس بحياة موسرة ، فهذا امر ممكن تماما اذا شيدت مرابط الابقار فى وقت مبكر وكلف برعايتها اناس عارفون واذا جرت فلاحة التربة فى الوقت اللازم . . . ومع ذلك لن تكون هذه الامور على ما يرام ، بل وقد لا يكون لها موجب ، لان السر الكبير سيتعرض للتدنيس والتشهير ، كما لو حدد لك رئيس فرقة العمال وقتا معينا لتضاجع زوجتك وراح يبص من شق المفتاح ليتاكد من جهودك لخير المجتمع على حد تعبيرهم (ثق بالمرء ولا تنس ان تراقبه) ، ثم يلومك بحضور الجميع ، والادهى من ذلك انه يمكن ان يشكرك نيابة عن كادحى جميع البلدان . وليس من قبيل الصدفة ان يقول البعض : انتظروا حتى تزمم المواعز والابقار وسياتى دور زوجاتكم ، ستنامون معهن ، بعد التاميم ، بكامل قريتكم فى ثكنة واحدة تحت بطانية واحدة عرضها مائة متر .

ومع ان هذه الاشاعة خرافة فى اغلب الظن فان الفلاحين فهموها بشكل صحيح ، لان القضية ليست فى الزوجات ، بل فى الاستثمارات الحية التى يحبونها ويربطهم بها ذلك السر الكبير مثلما يربطهم بزوجاتهم .

وكما يضاجع المرء زوجته خالى البال ولا تطارده فكرة اللحاق بالقرية او المدينة المجاورة والتفوق عليها من حيث تعداد السكان ، كذلك الفلاح الذى يتوجه الى الحقل لا تخطر فى باله فكرة التسابق مع فلاح آخر وكانه ذاهب الى سباق الخيل او الرماية او غيرها من العاب المهرجانات والاعياد .

لا يخطر فى بال احد ، بالاحرى ، انه عندما يحرث التربة بالمحراث يساعد اناسا فى الصين او فى المانيا . ثم كيف يمكن ان يساعد المرء اناسا غرباء لا يعرفهم ؟ ربما كانوا يضمرون له العداء بينما هو يساعدهم . فهل بوسعه ان يقرا ما فى ادمغتهم او يعرف ما يضمرونه له ؟ !

اما ان الشباب فى بعض كولخوزات الوديان يتسابقون فعلا للفوز بجائزة هى الحاكى او ما يشبه الحاكى ، فذلك امر لا يدل على شىء .

هذه الالعاب والجوائز الصبيانية لا يمكن ان تحول الفلاح الحقيقى على العمل الجيد ، فلا يجوز تحويل السر الكبير الى العاب .

الالعاب مرتبطة بحماس الاعياد والمهرجانات وهى وقتية عابرة كالاعياد والمهرجانات ، اما السر الكبير فهو مرتبط بالحياة ، وربما لا يترك الفلاح الا عندما يفارق الحياة ، بل وربما يحمله معه الى الآخرة ليجلب له السلوى والرضوان فيها اذا كانت هناك آخرة بالفعل .

الكولخوز قادم لا محالة .

اعجب الشيخ خابوغ باحد مستحدثات السلطة الجديدة ، بالمدرسة التى افتتحت فى قرية «شيغيم» ، كما فى العديد من قرى الجبال . وفكر : فليتعلم ابناؤنا واحفادنا القراءة والكتابة حتى يظهر بين اصحاب هذه البزات الحريرية ابناؤنا الذين ربما يستطيعون فى آخر المطاف ان يفتحوا عيون هؤلاء الثرثارين ويجعلوهم يدركون حقيقة الحياة الفلاحية .

ومهما قال الفلاحون فى اجتماعاتهم فانهم لم يذكروا الامر الرئيسى ، دون الكلمات تعجز عن التعبير عنه ، ولان الفلاح لا يستطيع ان يتحدث عنه مع الغير ، فالفلاح الآخر يعرفه اصلا ، اما الغريب فلا مجال لاطلاعه عليه ، لان السر لا يغدو سرا الا اذا ارتبط بالحشمة والخجل .

ومع ان الشيخ خابوغ يفهم ان صبيتنا الذين يتعلمون الآن فى المدارس ربما سينسون السر الكبير عندما يترعرعون وتحتاجهم مناصب البزات الحريرية او سيتظاهرون بانه غير موجود ، وربما سيستلمون تلك البزات الحريرية حالما يتاكد انفصالهم نهائيا عن جذورهم واصلهم . ومع ذلك . . .

مع ذلك كان الشيخ خابوغ يامل بان واحدا منهم على الاقل لن ينسى احزان الآباء ويحتفظ بها فى اعماق روحه ويتظاهر بعدم الفهم ، وقد يسلمونه بهذه المناسبة بزة الحرير قبل الآخرين .

وربما يشق طريقه الى اعلى المناصب ويتسنى له مرة ان يدخل مكتب

ابى الشوارب * نفسه فيعرض عليه الحقيقة كاملة ويفك فى نفس الوقت ازرار البدلة الحريرية ويخلعها . وعندذاك يتأمل ابو الشوارب ويقول :

– يبدو اننا جلبنا المصائب على رؤوس الفلاحين . . . اسمع ، ارتد البدلة وعالج امورهم نيابة عنا . فليعيشوا كما يحلو لهم بشرط ان يدفعوا الضريبة حسب الاصول . اما انا فسأهتم بامور عمالى ولن نشوش على بعضنا البعض . . .

ليت ابا الشوارب يقول مثل هذا الكلام ، وسنبذل جهدنا من اجله ، ونغطيه بالخيرات حتى شاربيه ، ولكن هل سيقول يا ترى ؟

اجل ، حلقت احلام خابوغ العجوز الى عنان السماء ، لكنه عندما عاد الى رشده ، احس بالالم الذى يحز فى فؤاده : «ما العمل ؟ الكومخوز قادم ، لعنة الله على الكومخوز ** .

ذات صباح صيفى قبض الشيخ خابوغ على جدى كث الشعر هو اكثر جداء القطيع بياضا وربط قوائمه والقى به على ظهره ودس الفأس فى حزامه وخرج من الحوش .

طلب من اهله الا يلحقوا به فى الحال ، بل يأتوا الى شجرة الفداء عندما تنتهى الاستعدادات بعد حوالى ساعتين .

شجرة الفداء هذه هى شجرة الجوز الضخمة التى تنتصب فى منخفض «سابيد» على درب المراعى .

وفى الصيف عندما يقتاد الرعاة القطعان الى المراعى الجبلية يحملون القرابين الى الشجرة . ينحرون الكباش او الشياه ويطبخون لحومها ويأكلونها ، اما الرؤوس فيعلقونها على خطاطيف حديدية مغروزة فى جذع الشجرة . واذا كانت الخطاطيف مشغولة يطبخون الرؤوس ايضا ويأكلونها . ولوحظ فى السنوات الاخيرة ، عندما يقتاد الرعاة ماشية الكولخوز من الوديان صار بعضهم يأكلون رؤوس الفداء ، اثناء نحر القرابين ، حتى عندما تكون الخطاطيف خالية . ويفكرون : لعل الامور تمر بسلام ، ثم اننا لا نعرف بموقف رب الحيوان من قطيع الكولخوز .

الناس هنا يقدسون شجرة الجوز هذه من قديم الزمان . كانت ضخمة هائلة ، وقد يبس نصفها واحرقتها صاعقة فى زمن ما . جف قسم من

* المقصود ستالين – **الناشر** .

** المقصود الكولخوز – **الناشر** .

الاغصان ، لكن قسما منها ظل اخضر مثمرا . والتفت كرمة سميكة حول جذع الشجرة وتشابكت فى الاعالى مع جميع الاغصان . ويصادف ان تثمر الكرمة عنبا ريانا لذيذا وفيرا على الاغصان اليابسة كانه يبعث السلوى ويواسيها على الصاعقة .

جذع الشجرة مجوف حتى قمتها تقريبا ، واذا تعرض لضربة شديدة يبعث رنينا متذبذبا لا يخفت لامد طويل . الجذع يرن ويدوى كوتر هائل مشدود بين الارض والسماء .

وبالاضافة الى الخطاطيف والكلاليب تبرز من الجذع عدة انصال لسهام صدئة وسن فأس قديمة غليظة مغروزة على ارتفاع لا يطاله حتى الفارس على ظهر الحصان . ولعل سن الفأس هى التى جعلت اهالى «شيغيم» يتصورون ان العمالقة كانت تقيم فى هذه الانحاء فى زمن ما .

وفى اسفل التجويف يحتفظون بقدر لطهى اللحوم ، يستخدمه الذين يأتون ليبتهلوا الى الله ، وكذلك الرعاة عندما يداهمهم الليل على مقربة من الشجرة ، فالمكان صالح للمبيت – الماء قريب وخيمة الاغصان السليمة كثيفة تحول دون المطر ، فلا يتسرب منها تقريبا حتى فى الطقس السيئ .

اقترب الشيخ من جذع الشجرة ووضع الجدى برفق فى اسفلها ، وبسمل وحوقل واستل الفأس ثم غرزها فى الجذع اللدن باقوى ما يستطيع وفقا للاعراف المرعية .

دوى صوت معروف يثير الاستغراب وراح يتذبذب فى جوف الشجرة الخاوى صاعدا الى قمتها ليذوب ويتبدد فى الاجواء . صعق خابوغ العجوز لادراكه ماهية الصوت وراح ينصت اليه حتى تبدد نهائيا فى اعالى السماء . وعند ذاك اجتث الفأس من الجذع بنترة قوية وغرزها فى الشجرة من جديد .

– كوم-خوززز – دوى رنين الجذع متحولا الى ازيز ثم صمت فى الاجواء اللانهائية كزفير وادع خفيف . ارتبك الشيخ وتحير . فقد كان ينتظر من الالوهية جوابا اكثر تعقيدا يحتاج الى تفسيرات وشروح ، اما هذا الجواب فقد جاء فى منتهى الوضوح ولذا فهو مخيف . سحب الشيخ الفأس وضرب الجذع من جديد .

– كوم- خوززز – رنت الشجرة بحزن ووضوح .

– وانت ايضا الى هناك ؟ – زعق الشيخ خابوغ غاضبا والتقط الفأس وانهال براسها ضربا على الشجرة .

– كومخوز ، كومخوز ، كومخوز – انسابت موجات صوتية سريعة على بدن الشجرة العجوز .

توقف الشيخ عن ضرب الشجرة ليمسح العرق من جبينه بردنه ، ثم غرز الفأس فى الجذع وانصت للدرة الاخيرة الى الصوت الذى لا امل ولا خير فيه ، وانهمك بمعالجة جدى الفداء .

نحر الجدى بالسكين وجعل الدم يشخب ثم يقطر عند اسفل الشجرة ، وعلق الذبيحة من قائمتها على احد الكلاليب المغروزة فى الجذع . وبعد ان سلخها رفعها من الكلاب وعلق عليه الرأس بعينين لؤلؤيتين مفتوحتين ، وقرنين ناتئين ، كبرعمين فضوليين ، من فوق الجبين الابيض الكث الشعر .

اخرج الشيخ القدر من جوف الشجرة ووضع فيه لحم الجدى غير الوفير وهبط الى النبع فغسل القدر واللحم بعناية ثم اغترف ماء وارتقى المرتفع عائدا الى الشجرة . عدل وضعية الاثافى ووضع القدر عليها وجمع حطبا ناشفا واولع النار .

بعد زهاء ساعتين كانت عائلة خابوغ باسرها قد جلست على اوراق الخنشار الخضراء المفروشة حول الموقد وراحت تأكل لحم الجدى الساخن الموزع على نفس تلك الاوراق .

جلس العم ساندرو هادئا ، جنب والده الشيخ ، كالابن الضال الذى لم يتماد فى ضلاله لان الظروف القاهرة اعادته الى منزل ابيه وهو مضطر الى التواجد فى وليمة الخنوع .

فى اليوم التالى جاء الشيخ الى مجلس القرية وانتسب الى الكولخوز . وسلم اليه نصف ما يمتلك من ماشية .

ابنه المسؤول عن المعز اقتاد القطيع كله الى حوش مجلس القرية واحصى الرؤوس مع اعضاء الكمسمول وافرد من بينها خمسمائة رأس .

فى تلك الاثناء تحشد فى مجلس القرية عدد كبير من الفلاحين ليشهدوا عملية انتساب الشيخ خابوغ الى الكولخوز . كان الشيخ يتصرف بشعور من الانفة والكرامة الشخصية فلم يبدر منه ما يشير الى موقفه من الاحداث .

وعندما اقترب ابنه المسؤول منذ الطفولة عن رعاية المعز من اعضاء الكمسمول المنهمكين فى احصاء القطيع سد احدهم منخاريه واشاح بوجهه ، فقد فاحت رائحة المعز الحادة من الراعى الذى قضى سنين طويلة فى رعيها .

– لو سلمت الماشية كلها يا خابوغ لربما تبددت رائحة المعز من بدن ابنك فى العام القادم – قال احد الكمسمولين منكتا .

ضحك الكثيرون لهذه النكتة ، اما الشيخ خابوغ فقد فكر واجاب بغير استعجال :

– سيأتى حين يبحث المرء فيه ولو عن جدى واحد ليتشممه . . .

ضحك الكثيرون لجوابه ، لكن بعضهم اطرق متأملا . ولم تعجب كلمات خابوغ رئيس الكولخوز ، لكنه لاذ بالصمت .

ويقال ان ابن خابوغ عندما خرج من حوش مجلس القرية بنصف قطيعه رآه الناس يمسح دموعه بطرف قلنسوته . مضى بهذه الصورة يمسح دموعه . اعتقد ان هذا القول من بنات الخيال اراد له الفلاحون فى اغلب الظن ان يهيئ القارئ لما سيأتى من احداث .

ما ان خرج ابن خابوغ مع قطيعه المخلخل من بوابة الحوش حتى هرعت بقية المعز للحاق به ثاغية . ورغم ما بذله الكمسمولیون من جهود الموقوف فى وجهها واعادتها الى الحوش اخترقت خط الدفاع ووثبت من فوق البوابة ثم حطمت البوابة نفسها . ويقول شهود عيان ان المعز اندمجت بالقطيع ، بل حاولت ان تختبئ فى ثناياه وتدس نفسها فى وسطه . ويقال ان هذا المشهد ترك فى نفوس الفلاحين انطباعا ثقيلا ، فقد تصوروا ان الماشية ترفض الانضمام الى الكولخوز لان لديها هاجسا بالهلاك .

وكان رئيس الكولخوز منزعجا بخاصة . فقد خيل اليه ان ما حدث مبيت ومدبر مسبقا حسب اتفاق بين خابوغ العجوز وابنه ، بل وربما بينهما وبين المعز .

– ستتحمل مسؤولية ذلك – قال الرئيس واوما الى البوابة التى هرعت اليها المعز .

– فليتحمل هو المسـ ى البداية – تفوه خابوغ وهو ينظر الى ماعزه تحطم بوابة محـ رية .

– من تقصد ؟ سأل الرئيس متوفزا .

– هو – قال خابوغ واوما باصبعه الى السماء وهو يتابع ماعزه .

ادرك الجميع ان خابوغ يقصد ابا الشوارب . مع ان اثبات مقصده مستحيل .

اضطر ابن خابوغ ان يقتاد القطيع الى مجلس القرية من جديد ، وجرى احصاؤه وتقسيمه الى نصفين من جديد . وربما تحققت فى تلك

الاثناء العدالة السامية ، حيث تهيات لكل معزة فرصة اخرى لتبقى مع نصف القطيع الذى عند صاحبها . وظل ابن خابوغ هذه المرة مع نصف القطيع الذى سلم الى الكولخوز . وقف امام الماشية المنفعلة يهدئها بصيحاته حتى تمكن احد الشباب الكمسوليين من ابعاد النصف الثانى من القطيع مسافة كبيرة .

* * *

كان رئيس الكولخوز ، واسمه تيمور جفانيا ، من اشباه المتعلمين المتحمسين المنتشرين فى كافة ارجاء روسيا ، والذين اجتذبهم مغناطيس الزمن بكثرة من بين جموع الرعاع .

عمل قبل مجيئه الى «شيغيم» معلما للنبات فى مدرسة كينغورسك ، مع انه من حيث حماسه وهياجه يصلح اكثر لعلم الحيوان . ومع ذلك كان يتكلم بنجاح فى اجتماعات المعلمين ويلمح صراحة ، بحضور رئيس قسم التعليم ، الشبيه لحد مضحك بمثقف من مثقفى ما قبل الثورة ، الى رغبته فى الحلول محله ، وكان قريبا من بلوغ الهدف .

لكنه لم يبلغ الهدف ، لانه سدد ذات مرة صفعة مفاجئة الى اذن تلميذ خلط بين نوعين من نبات الغار ، فغضب والد الصبى ، بالطبع ، وهو آمر مخفر الحدود . وحال ذلك دون اعتبار اذن الصبى عنصرا طبقيا غريبا على البروليتاريا ، ولذا تلبدت غيوم الناحية فوق راس المعلم المهتاج .

انتهز مدير المدرسة هذه الفرصة ليتخلص منه فنقله ، بموافقة صمت من جانب مسؤولى مديرية التعليم فى الناحية ، الى قرية «شيغيم» بوصفه شخصا مطلعا على الطبيعة . بهذه الصورة غدا تيمور جفانيا رئيسا لكولخوز «شيغيم» .

فى البداية استقبله اهالى القرية برحابة صدر ، لكنه اتضح فيما بعد ان معارفه الطبيعية لا تشمل الطبيعة المحيطة بقرية «شيغيم» . والاهم ان هذا الرجل ، كما اتضح لاحقا ، يعانى من مرض دوار الارتفاعات . اتضح ذلك عندما اراد لسبب ما ان يهبط الى موقع الطاحونة فتوقف متجمدا فى مكانه فجاة عندما التوى الدرب على المنحدر الجبلى الشديد الذى تقوم الطاحونة فى آخره . لقد ارتعب وذعر حتى لم يعد قادرا على العودة الى فوق ، فاضطر الطحان العملاق غيراغو الى

الصعود اليه . القى به على كتفه وحمله الى موضع لا ترى منه صخور المنحدر الطباشيرية .

وعندما عرف اهالى «شيغيم» بمرضه الخفى غضبوا اشد الغضب ليس عليه بالطبع ، بل على اللجنة الحزبية فى ناحية كينغورسك . فقد تصوروا ان اللجنة بعثت اليهم رئيسا رفضته الاماكن الاخرى .

– ونحن ايضا نرفضه – قال الفلاحون لرئيس مجلس القرية وطلبوا منه ان ينقل رأيهم الى لجنة الناحية .

رئيس مجلس القرية ، واسمه مهدى ، يعرف خفايا عناد اهالى «شيغيم» ، فهو نفسه من اهاليها ، ولذا قرر ان يرحل الى الناحية . وبالمناسبة جرى ذلك كله دون علم تيمور جفانيا ، لان اهالى «شيغيم» يعتقدون ان ابلاغه صراحة برفضهم له يعتبر خرقا صارخا لاصول الضيافة .

اضطر مهدى على الرحيل الى لجنة الناحية ليحدث مسؤوليها بذلك كله ، ولكن بلهجة معتدلة . وقد تعود على الاعتدال فى كل شىء لانه بطبيعته طيب القلب لا يضمر لاحد سوءا . وتتلخص فلسفته فيما يلى : فلتكن احوال الجميع طيبة ، واذا تعذر ذلك فلتكن احوالى انا على الاقل طيبة .

– انه متمرس سياسيا ، لكنه يعانى من مرض عضال ، والناس قلقون – اخبر مهدى باختصار سكرتير لجنة الناحية .

– وما مرضه ؟ – سأل السكرتير مندهشا .

– يخجلنى ان اذكره : لا يطيق النظر الى الهاوية – اعترف مهدى محتقن الوجه – يصيبه الدوار كما يصيب الحبلى .

وهنا اضطر الى التطرق لحادثة الطاحونة .

– يا للشيطان ، لماذا ذهب الى الطاحونة ؟ – سأل السكرتير بدهشة وانفعال .

– لا لشىء ، لمجرد ان يحرك قدميه – اجاب مهدى ليبرئ الرئيس من اى قصد مبيت فيما حدث .

– خبرنى ، هل يستطيع ان ينزل من مدرج مدخل مجلس القرية ؟ – سأل السكرتير وقد نفد صبره .

– بمنتهى البساطة – اجاب مهدى مسرورا واوضح ان رئيس الكولخوز يهبط بسهولة على منحدرات اشد اذا لم يقع بصره على هاوية او جب او حافة ذات نتوءات صخرية ، طباشيرية بخاصة . – يبدو ان

هذا المرض لا يحب الصخور البيضاء – اضاف مدققا فجعل اعصاب سكرتير لجنة الناحية تنهار نهائيا .

– كفاية – قاطعه – بلغ رئيس الكولخوز الا يذهب الى الطاحونة ، وبلغ اهالى «شيغيم» الا يشغلوا بالنا وان يعملوا بشكل افضل .

– انه لا يذهب الى الطاحونة اصلا – واصل مهدى كلامه بعناد خانع – اما الاهالى فلا يجوز ان نخاطبهم بهذه اللهجة ، يجب ان نعثر على صيغة معتدلة .

– هذا من واجبك – قال السكرتير ونهض ملمحا الى اختتام الحديث – نصبناك هناك لهذا الغرض .

عاد مهدى ادراجه ، وهو يبحث عن صيغة معتدلة فى الطريق . وقد عثر عليها . قال ان اللجنة طلبت من اهالى «شيغيم» ان ينتظروا ريثما يتم العثور على شخص مناسب يرغبونه ، قبل الذهاب الى «شيغيم» ، على ارتياد دروب العنز فى اعالى الجبال للتأكد من صلابة عوده وصلاحه لظروف «شيغيم» .

– طيب ، فليبق هذا المسكين موقتا – قال الاهالى وهدأت نفوسهم .

الا ان الرئيس لم يكن يعتبر نفسه مسكينا على الاطلاق . واتضح انه يعرف بشكوى الاهالى السرية ، فانهال عليهم باللائمة فى اول اجتماع مدفوعا بالضغينة والانفعال .

– من المنتصر يا تروتسكيون * ؟ – خاطبهم مبتسما بهياج .

لم يجادله الاهالى فى اتهامه لهم بالانتماء الى هذا التيار السياسى الخطر الذى لم يسمعوا حتى بوجوده ، فقد انتابهم خجل شديد لا يعرفون كيف يتخلصون منه .

فى ذلك العام الاول كان الاهالى لا يزالون يعتبرون قريتهم دارا لهم ولذا شعروا بالارتباك . وفيما بعد ، عندما لم يعودوا يعتبرون ارضهم ارضا لهم ، ولم يعودوا ، بالطبع ، يعتبرون رئيس الكولخوز ضيفا ، وان كان متطفلا ، فقد صاروا يردون على كليشهاته السياسية المحببة بلعنات منمقة تشابك فيها التهديد باراقة الدماء تشابكا مدهشا فريدا مع الاتهام بالسفاح . وانا واثق من انهم اعتبروا هذه الكليشهات

* تيار فكرى وسياسى فى الايديولوجية الشيوعية مؤسسه ليف تروتسكى – **الناشر** .

السياسية سبابا وشتائم ، كاى سباب وشتائم ، ولكن بلهجة علمية . وبسبب غموضها بدت لهم تلك الكليشهات فى الغالب تعبيرا عن التعبيرات الغامضة لشذوذ اكثر بذاءة من لعناتهم .

وبالمناسبة فان رئيس الكولخوز هذا عمل فى «شيغيم» حوالى ثلاثين عاما . صحيح انه نحى مرارا خلال هذه الفترة لمدة عام او عامين ، لكنه ما ان يخرج من حوش مجلس القرية حتى يلتحق بالمدرسة معلما للنبات والشؤون العسكرية معا . وهنا ايضا يلاحق التلاميذ ، مثلما كان يلاحق الكولخوزيين ، ويرغمهم على المسيرة فى حوش المجلس ، ويلتجئ الى الروسية من حين لآخر ليلوم المتهاونين من التلاميذ بنعتهم بانصار بوخارين * .

وفى عهدنا الحاضر احيل تيمور جفانبا على المعاش بسلام ، بل ومنح لقبا لا يعرفه الا القليلون : «ابن القرية الفخرى» ، لكن حادثة عجيبة جرت له ومنعته ليس فقط من حمل هذا اللقب الرفيع رغم قلة شهرته ، بل حالت دونه ودون ارتداء الثياب المدنية العادية . لكن الحادثة وقعت فيما بعد ، وسنتطرق اليها فى الموضع الذى نراه مناسبا .

* * *

انتشر فى القرى المجاورة بسرعة نبأ شجرة الغداء التى ترد بكلمة «كومخوز» على كل ضربة فأس ، بل وكل ضربة اخرى بوضوح يزداد كلما كانت الضربة اشد .

تقاطر المتشككون على شجرة «شيغيم» راكبين وراجلين واقتنع كل منهم بأن الشجرة تجيب بصدق على سؤاله الممض وان رشقها بحجر او نطحها برأسه .

اما العم ساندرو فصار يقضى الايام جنب شجرة الجوز قتلا للوقت ، فلا عمل له ، ولم يكن قد صمم بعد على العمل فى الكولخوز ، فى حين صار فلاحو القرى المجاورة يجلبون النبيذ فى القرب ، فضلا عن اكباش الغداء . وغدت الحياة اكثر متعة ومرحا .

انزعج رئيس الكولخوز من هذا الضجيج مع ان احدا لا يمكن ان يجد

* بوخارين – احد ابرز رجالات الحزب والدولة السوفييتية فى السنوات الاول لقيامها ، تعرض للتنكيل وقضى نحبه فى غياهب السجون الستالينية واعتبرت حركته وتيارا ايديولوجيا ضارا» . – **الناشر** .

في اجوبة شجرة الفداء ما يعود على السلطة بضرر . شعر بالقلق من هذا التحشد حول شجرة الجوز ، من القدوم والرحيل والاشاعات والاقاويل .

واخيرا مل الرئيس من ذلك واستنجد بلجنة ناحية كينغورسك لتساعده في اتخاذ الاجراءات اللازمة ضد شجرة الفداء . وعده المسؤولون في الناحية بارسال لجنة تنظر في الامر محليا وتعطي تقييما للشجرة بوصفها تشويها لخط الحزب او ، بالعكس ، ظاهرة ايجابية نادرة من ظواهر الطبيعة .

وبعد ايام وصلت الى «شيغيم» لجنة من شخصين ، عرض امامها العم ساندرو ، بضربات الفاس ، الكلمة الوحيدة التي يمكن ارغام الشجرة على التفوه بها . واهم ما استدر عطف عضوي اللجنة ان الشجرة تتلفظ الكلمة السحرية بلهجة كينغورسك المحلية .

– المسكينة تتكلم بلهجتنا – انصت عضوا اللجنة وابتسما فرحين بوصفهما من اصدق محبي ناحيتهما .

اختار العم ساندرو لعضوي اللجنة المواضع التي انفرد بمعرفتها ، وهي الاكثر رنينا ، والاعذب مذاقا ان صح القول . ووفر لكل منهما فرصة ضرب الشجرة بنفسه واوضح ان بالامكان ضربها براس الفاس ، وفي تلك الحالة ايضا تنطق الشجرة بنفس الكلمة ولكن بصوت اجش قليلا .

وحتى يكون التجريب كاملا غير منقوص حدق احد الرجلين في جوف الشجرة واشعل عود ثقاب وصاح لسبب ما : «كومخوز» ، فانطفا عود الثقاب ، لكن انطفاءه لم يثر اي ريبة لدى عضوي اللجنة . وسال احدهما :

– بماذا كانت الشجرة تنطق قبل اشاعة الكولخوزات ؟

– كانت تبعث رنينا لا معنى له – اجاب العم ساندرو .

– حسنا جدا – قال عضوا اللجنة وتبادلا النظرات مسرورين .

رافقهما العم ساندرو الى منزله لتناول الطعام ، وعرض مواهبه الشخصية في اعداد مائدة جيدة .

غادر عضوا اللجنة منزل خابوغ العجوز في احسن مزاج . وعندما اجتازا مجلس القرية قابلا رئيس الكولخوز ونصحاه بان يمتنع وقتيا عن اتخاذ اجراءات حازمة ، لان الشجرة على العموم تقوم بعمل نافع لنا .

– يأتي الى هنا من هب ودب – اراد الرئيس ان يسيء الى العم ساندرو ، الا ان عضوي اللجنة منعاه من الكلام . نصحاه بان يكلف شخصا فاهما من الناحية السياسية بان يراقب ما يجري جنب شجرة الفداء ويوضح للقادمين في الوقت ذاته سياسة الحزب الكولخوزية .

وقالا ، بالمناسبة ، ان ساندرو بن خابوغ يصلح لاداء هذه المهمة ، لا سيما وانه يقيم اقرب الجميع الى شجرة الفداء .

– انا لا اثق به – قال تيمور وهو يضبط اعصابه بالكاد .

تبادل عضوا اللجنة النظرات مندهشين وهما يتمايلان على ظهر حصانيهما وتشع من بدنيهما هالة حسن الضيافة التي قوبلا بها في البيت الكبير ، بيت خابوغ والد العم ساندرو . وقال احدهما :

– اللجنة التي بعثها مسؤولو الحزب في ناحية كينغورسك تثق به .

– في حين يثق مسؤولو الحزب في كينغورسك بلجنتهم – اضاف الثاني ، وارخى كلاهما العنان .

– لن يزايلهما السكر قريبا – قال للرئيس سكرتير مجلس قرية «شيغيم» ، وهو من الكتبة السابقين ، وله علم كبير في عادات واعراف اهالي كينغورسك . ولذا لم يبق على الرئيس سوى الانصياع ، فازداد حقده على البيت الكبير وكل ساكنيه . لقد اضطر الى السكوت على استمرار شجرة الفداء في دعايتها الغريبة ، بل وعين العم ساندرو حارسا ليليا في مبطخة الكولخوز مع انه سيمارس العمل في وضح النهار فقط ، اذا كان بالامكان ان يسمى ذلك عملا .

انتعش العم ساندرو وشعر ان الآخرين بحاجة اليه . نصب جنب شجرة الفداء خصا واسعا لدرجة ما كيلا يحول الطقس السيء دون مجيء القادمين من الاماكن البعيدة ، واعد حطبا احتياطيا وطهر موضعا من العاقول اتخذه مربطا للخيل وصار يستقبل الضيوف متفيئا ظل شجرة الجوز وكانه مروض وحوش متواضع .

وعندما تسوء حالة الطقس يجلس جنب الموقد في خصه ، وحالما يسمع وقع سنابك الخيل يخرج ويتطلع الى الدرب ليتاكد من بعيد هل القادم من الحجاج المتشككين ام من الفرسان عابري السبيل ؟

ذات مرة جاء من قرية «النهيرات» ليستمع الى الشجرة الناطقة راوية شهير معقوف اليد سليط اللسان يكنى «بالكليم» . . .

وكان العم ساندرو في تلك الاثناء جالسا في الخص يتحدث الى

ثلاثة حجاج من «سيبلدا» . وعندما سمع وقع السنابك ترك فنجان الشاى وخرج .

سلم «الكليم» ورد عليه العم ساندرو السلام ، وعامله بالحسنى مع انه لم يجلب شيئا . فلا احد يعلم ماذا ينتظر من «الكليم» ، اذ يمكن ان يلصق بك كلمة لن تمحوها حتى اذا قشطت جلدك .

– مررت بالصدفة وفكرت ان اعرج عليكم – قال «الكليم» بعد ان اوقف حصانه وراح يتطلع الى الشجرة .

– ترجل – قال له العم ساندرو ملمحا الى وليمة متواضعة فى الخص .

– تحرسها ؟ – سأل «الكليم» واحتوى العم ساندرو والشجرة والخص بنظرة واحدة ، وكأنه يزن امكانيات هذه الضيافة العابرة ، فوجد وزنها ضئيلا ، على ما يبدو ، فاشاح بوجهه عن الخص وتطلع الى العم ساندرو .

– لا احرسها ، بل اراقبها – صححه العم ساندرو برفق – ياتى الى هنا من هب ودب ، ومن اللازم الا يثرثر احد بما لا يليق .

– هيا – قال «الكليم» ، وقد نفد صبره ، حتى لكأنه يقدم خدمة الى العم ساندرو بالاستماع الى شجرته . وهو كذلك فى الواقع ، لان رأى «الكليم» يمكن ان يؤثر على سيل الحجاج مدا وجزرا .

– ماذا تفضل : الفأس ام المدق ؟ – سأل العم ساندرو . وقد تكيف للضرب على الشجرة بمدق دراس الذرة .

– لا فرق بالنسبة لى حتى لو ضربتها بعتلة – قال «الكليم» منتفضا .

فضرب العم ساندرو جذع الشجرة بالمدق عدة مرات والتفت الى «الكليم» ، فرآه ينصت مائلا برأسه على طريقة الخنازير البرية .

– تنطق بوضوح – وافقه «الكليم» – ولكن الافضل لو تناثرت الذرة من جوفها مع كل ضربة . . .

– اى ذرة ؟ – لم يفهم العم ساندرو .

– الذرة العادية الصفراء – انتعش «الكليم» – يمكن ان تعلق فى داخل الجوف كيس ذرة فيه فتق ، ومع كل ضربة تنطق الشجرة بكلمة «كومخوز» وتعطى حفنة من الذرة .

– شجرتى تنطق بالحقيقة ، بلا غش – قال العم ساندرو – وقد جاءت لجنة من الناحية وفحصت

– وكم يعطونك مقابل ذلك ؟ – قاطعه «الكليم» .

– اجرة نصف يوم عمل – اجابه العم ساندرو .

– لا اعنى الكولخوز ، بل اولئك – اوما «الكليم» الى اعلى ، صوب الرئاسة العليا .

– لا يعطوننى شيئا – قال العم ساندرو بحذر .

– علّم شجرتك ان تنطق بكلمة «سلفة» – قال «الكليم» وغرز الركاب فى جنب فرسه فانطلقت راسا فى خبب متسارع ، ثم اطلق العنان لهياجه المنفعل وكانما وجد له مبررا ظاهريا فى المسافة المتزايدة اثناء الابتعاد ، وصاح باعلى صوته : – سلفة ، سلفة . سيفرح السيد الكبير اشد الفرح . اكبسه من دبره المشورب تحت شجرة الفداء . اكبسه . . .

غرق صوت «الكليم» فى اجمة الزان التى دخلها وهو يطلق حمما من الشتائم المقذعة التى لم تعد مسموعة . اخذ العم ساندرو ينصت الى الصوت الخافت ولم يعد يسمع سوى وقع السنابك يتعالى بين حين وآخر على الصخور ، ثم رمى المدق جنب الخص ودخله . فسأله الضيوف المندهشون :

– من هذا ؟

– شخص تافه – قال العم ساندرو وجلس .

– اين يريد ان يكبسه يا ترى ؟ . . – سأل احد الضيوف بعد تأمل قصير .

– ربما فى جوف الشجرة – قال العم ساندرو واخذ فنجان الشاى .

– اجل ، فليس هناك مكان آخر – وافقه ضيف آخر ورفع فنجانه .

– لا يبقى الا ان ندسه فى الجوف – قال الثالث واخذ فنجانه .

– من يستطيع ان يدسه ؟ – تنهد الاول – اخشى ان يكون هو قد كبسنا بالفعل بينما نحن بالقول فقط .

– ما العمل اذا كانت حتى الشجرة تصاصىء بالشىء ذاته ؟ – وافقه الثالث وكانوا قد افرغوا فناجينهم .

ظل العم ساندرو طول الصيف يسهر على شجرة الفداء . وكان الناس يترددون عليها وان بعدد متناقص . بينما ظل الرئيس ينتظر الفرصة صامتا ، حتى كان له ما اراد .

في بداية الخريف بدات حملة مكافحة الاوهام الدينية . وظهرت في جريدة ناحية كينغورسك مقالة بعنوان «فلنحرم القس من منبره» ورد فيها اقتراح بغلق الكنائس التي نجت من الهدم والتدمير ، وذلك نزولا عند رغبة اغلبية السكان ، كما جاء في المقالة .

* * *

لا ازال اتذكر كيف اغلقوا كنيستنا في «موخوس» . كانت على مقربة من دارنا وتسمى كنيسة الروم . ولا يزال عالقا في ذهني بغدوض رنين نواقيسها الحزين الذي يطرق الهواء بلا جدوى ، كما اتذكر باحتها المريحة التي تعج بالمصلين والمتفرجين اثناء الاعياد ، والمتسولين الذين اتخذوا دوما مواقع مناسبة على امتداد السياج وهم يستقبلون كل قادم بتوسل محتشم لكن عيونهم تتشبث به دون فكاك .

اتذكر العامل الملفوف بالحبال وقد جلس على عرف قبتها وبيده مطرقة ضخمة ينهال بها على الصليب النحاسي الثقيل بضربات منتظمة . يبدو ان الصليب (وهو متين قديم الصنع) ما كان يريد ان ينصاع ، فهذا العامل ظل يعالجه عدة ايام ، وفيما بعد ، عندما لم يعد الصليب على القبة ، راينا على عرفها حفرة وكان ذاك العامل اقتلع الصليب من الجذور مثلما تقتلع الشجرة .

واتخذوا من الكنيسة دارا لطلبة الثانوية الصناعية ، وبعد عام او عامين انتقل اولئك الطلبة الى مبنى آخر وتحولت الكنيسة الى ارشيف لوزارة الداخلية ، وكان اهالي شارعنا يتحدثون عن ذلك خفية وهمسا .

آنذاك كنت اذهب الى المدرسة مسرعا من امامها واري اكوام الملفات ، وعلى الاصح اعاليها ، من وراء زجاج النوافذ . ولعل تلك الملفات تضم دعاوى اعداء الشعب ، ولا يستبعد ان يهبط روح القدس تحت القبة التي رسمت عليها صورته فينبش في تلك الملفات ليلا ليتاكد من خطاياهم . فلا يعثر عليها (والا لاتخذ الاجراءات اللازمة) ويحلق بحذر ليلتصق من جديد بسقف القبة كيلا يتمكن احد من الامساك به وقشطه واعادته الى الارض والصاق تهمة به وفقا لمادة مناسبة من قانون العقوبات .

وفيما بعد ، ابان الحرب ، افتتحت الكنيسة من جديد وصارت تسمى ثانية بكنيسة الروم ، والحقيقة فانها لم تفقد اسمها هذا ابدا ،

ولكن ليس بمعناه الاصلي ، بل كعلامة من العلامات المحلية المالوفة .

– اين يوزعون الكيروسين ؟

– جنب كنيسة الروم .

ذات يوم رايت من جديد على عرف القبة عاملا ملفوفا بالحبال ، وربما كان هو نفس العامل الاول ، لكنه راح هذه المرة يغرز الصليب في موضعه . وكان واضحا حتى للاطفال ان الصليب الجديد لا يناسب معمار الكنيسة . فالصليب القديم ثقيل متين لماع ، اما هذا فيشبه برعما نحيلا من تلك الشجرة الباسقة . كلا ، لم ينبت هذا الصليب على تلك الارض المعهودة ، واعتقد انهم جلبوه من مقبرة ميخايلوفسكويه ، اقتلعوه من قبر احد اثرياء ما قبل الثورة .

ومهما يكن من امر فقد فتحت الكنيسة ابوابها من جديد ، وتحولت باحتها الصغيرة الى بورصة للمتسولين ، وراح القساوسة بشعورهم الطويلة يدخلونها في مشية رصينة متحاشين النسوة المصليات كما يتحاشى موظف مجلس الناحية المسرع الى مكتبه المراجعين الذين يتشبثون به . والشيء الوحيد الذي لم يكن مفهوما هو اين كانوا مختبئين حتى الآن وكيف تمكنوا من تمويه شعورهم الطويلة ؟

اما الكنيسة فقد ظلت تسمى كالسابق بكنيسة الروم حتى بعد ان جمعوا كل اليونانيين (الروم) في عام ١٩٤٩ في طابور واحد ضم الشيوخ والاطفال والحزبيين واللاحزبيين ، وهجروهم الى كازاخستان . وفيما بعد ، في اعقاب المؤتمر العشرين * ، سمح لهم بالعودة مع الشيوخ الذين ظلوا على قيد الحياة بمعجزة ، وكذلك الاطفال الذين ترعرعوا وبلغوا سن الرشد ، والحزبيين الذين صاروا لاحزبيين . وكان العائدون قلة ضئيلة للغاية . وقد تاكدوا ان الكنيسة في مدينتنا لا تزال تسمى كالسابق بكنيسة الروم ، اذا كانوا لم يفقدوا اهتمامهم بالكنيسة وبكل شيء في الدنيا ، وهذا امر غير مستبعد اطلاقا .

* * *

جرت العادة عندنا على تاييد اية حملة وتطويرها محليا . ولم تكن الحملة المضادة للاديان استثناء من القاعدة بالطبع . الا ان وجه

---

* في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي (١٩٥٦) شجبت عبادة ستالين علنا لاول مرة . – **الناشر** .

الصعوبة هذه المرة هو ان الابخازيين – من يعتبرون انفسهم مسيحيين او مسلمين – لا يترددون على الكنائس والمساجد لانعدامها بالكامل تقريبا فى القرى الابخازية . ففى ناحية كينغورسك لم يكن هناك ابدا مسجد واحد ولا كنيسة واحدة . ولكن طالما ينبغى اجراء الحملة فقد بذل كل جهده على قدر المستطاع .

تشاور رئيس كولخوز «شيغيم» مع معاونيه وقرر ان يحرق شجرة الفداء باعتبارها من الاوهام الدينية . ونفذ شبان القرية الكمسوليون هذا القرار بسرور . ففى نفس اليوم حشوا جوف الشجرة بالحطب اليابس واضرموا النار فيها .

ومع ذلك ظلت الشجرة العملاقة سليمة رغم الدخان الذى اخذ يتعالى من قمتها المثلومة عدة ايام كما يتعالى من فوهة بركان . اسود قسم من الجذع ، من باطن الجوف ، وتفحم صعودا لعدة امتار ، لكن جانبه الآخر لم يحترق تقريبا ، فاللهيب لم يتمكن من احتوائه وخنقه .

ويبدو ان المهم بالنسبة لكمسوليى «شيغيم» هو حرق شجرة الفداء بصورة رمزية وليس ابادتها فعلا . ومهما يكن من امر فقد ظلت الشجرة سليمة ، بل حتى الكرمة الملتفة عليها ظلت سليمة .

– نار الله لم تقتلها فلن تؤذيها نار البشر – اطلق احد اهالى «شيغيم» ، واسمه سيكو ، هذا القول المأثور فى اليوم التالى . كان واقفا تحت شجرة الفداء يتطلع اليها مع ابناء القرية الذين تقاطروا عليها من اقرب حقل يمهدون فيه التربة بين نبتات الذرة .

وراح رجل آخر من اهالى «شيغيم» واسمه كونتا يجمع الرماد من جوف الشجرة بمعول ، فعثر فيه على كسر القدر الحديدى الذى كان الرعاة يطبخون فيه لحم الفداء . يبدو انه لم يتحمل حرارة النار فانفجر .

وبعد حين من الوقت دهش الحاضرون اشد الدهشة عندما انتشل الرجل بالمعول قدرا آخر من جوف الشجرة لا يعرف مصدره الا الله . فان احدا لم ير هذا القدر هنا ابدا . وهو مغطى بطبقة كثيفة من السخام ، ومدعوك قليلا ، لكنه سليم على اية حال . ولم يكن مفهوما كيف وقع فى الجوف وكيف ظل سالما وهو من نحاس بينما لم يتحمل قدر الحديد وانفجر .

عثروا على تفسير مقبول بقدر ما لهذه المعجزة ، فقد قالوا ان رب الحيوان جاء بهذا القدر كيلا ينزعج الفلاحون وكى يواصلوا ايمانهم فى

حماية شجرة الفداء لهم من كل مكروه . ولذا وضع قدرا ليس جديدا ، لكنه صالح لطهى اللحوم .

وما ان عثروا على هذا التفسير واستغربوا لتلك المعجزة القيمة تماما حتى حدث شىء غير قابل للتفسير اطلاقا . فالرجل الذى لا يكل عن جمع الرماد سحب من الجوف عظاما محروقة بعض الشىء ولا احد يعرف مصدرها ، ثم دحرج جمجمة بشرية لا ريب فيها اوضحت مصدر تلك العظام لكنها لم توضح مصدرها هى .

– من اين جاء هذا المسكين ؟ –راح اهالى «شيغيم» يكررون وهم يتناقلون الجمجمة من يد ليد ، وقد لاحظوا ثغرة اضافية فيها علاوة على ثغراتها الطبيعية . حاول بعضهم ان ينظر من خلال تلك الثغرة الى حجاج العين ، بينما حاول بعضهم الآخر العكس حيث نظروا الى الثغرة من خلال الحجاج ، لكن هؤلاء واولئك لم يتمكنوا من تفسير مصدر الجمجمة والعظام .

واخيرا تذكر احدهم وضرب جذع الشجرة بالفاس ، الا انها ، ويا لدهشة الجميع ، لم تجب بكلمة «كومخوز» ، بل بعثت صوتا خاويا مزعجا لا رنين فيه . ومهما كرروا الضربات لم يحصلوا الا على هذا الصوت المزعج الذى يدوى مهددا واعدا .

– لماذا ؟ – تساءل اهالى «شيغيم» مهمومين .

– كيف تتساءلون ؟ – اجاب سيكو وهو اكبرهم سنا – تشعلون النار فيها وتريدون منها ان ترقص لكم ؟ !

– لم نشعل النار نحن .

– كان يجب الا تسمحوا لهم – اجاب سيكو وهو يتطلع الى العظام والى جوف الشجرة الهائل المحروق .

– فلماذا القت بالقدر اذن ؟ – سأل الاهالى متحيرين . ولم يتمكن حتى سيكو من الاجابة على هذا السؤال .

– اعد كل هذا برفق الى موضعه – اوما سيكو الى الجمجمة والعظام وغطه بالرماد بعناية كيلا تعبث به الوحوش . . .

وما ان دفن كونتا الرفات المجهول تحت الرماد حتى دوت طلقة نارية من اعماق منخفض «سابيد» . واضطرب الجميع خائفين .

– لعل قطاع الطرق يطلقون النار – قال احدهم .

– قلت لكم ان الامور لن تنتهى بسلام – ذكرهم سيكو مع انه لم يقل مثل هذا الكلام ، فكّر فيه ولم يقله .

– صه ! يخيل الى ان احدا يصيح – قال كونتا فاصاخ الجميع السمع . حقا ، فقد تعالى من اعماق المنخفض صياح بشرى متواصل تقريبا . وكان رنينه يقترب على ما يبدو . واخيرا لاح شخص من بين الاعشاب العالية .

صعد صوب شجرة الفداء وهو يصيح بلا انقطاع : «معجزة ، معجزة ، قامت القيامة» . انه الصياد المعروف تيندیل . تسلق السفح الاخضر بسرعة وهو يصيح . وفي يده يرتعش ثعلب قتيل بلون اللهب الفاتح .

– ماذا حدث ؟ – سألوه عندما اقترب من الشجرة .

– معجزة – اجاب لاهثا ورمى الثعلب فى اسفل الشجرة ، وحدثهم بما حدث .

كان قد رأى الثعلب متمددا بطول قامته خلف صخرة فى فسحة فى الغابة ، وهو يراقب خيولا ترعى هناك . استغرب تيندیل للثعلب الذى يراقب الخيول بهذا القدر من الاهتمام . ولاحظ بين الخيول فرسا ومهرا صغيرا ، فخطرت على باله فكرة غريبة . فكر ان هذا هو الثعلب-الشيطان الذى رضع ضرع البقرة ذات مرة . وها هو يتربص بالفرس الام .

اطلق تيندیل النار بعد تنشين دقيق . وظل الثعلب رابضا بلا حراك مثلما كان . اردیته قتيلا – فكر الصياد واقترب من الغنيمة . رفعها ودهش لانه لم يجد عليها آثار دماء . ثم ازدادت دهشته عندما لم يجد فى بدن الثعلب ثقب دخول الرصاصة وثقب خروجها ، واقتنع نهائيا ان ذاك هو الثعلب-الشيطان الذى رآه فى حينه يرضع البقرة ويتمطق بوقاحة ويسحب حلمات الضرع .

وعندما سمع الحاضرون هذا الكلام حدثوا الصياد بدورهم عما وجدوه فى جوف شجرة الفداء وهم يلمسون الثعلب لمس اليد ويتفحصونه فى الوقت ذاته كى يعثروا على ثقبى الرصاصة .

– ربما كان ميتا بالاصل ؟ – سأل احدهم .

– لا اعتقد – اجاب تيندیل – فهو لا يزال دافئا حتى الآن .

حقا ، كانت جيفة الثعلب حديثة العهد بالوفاة .

– فاين الرصاصة يا ترى ؟ – تساءل اهالى «شيغيم» متحيرين .

– اخترقته من فمه وخرجت من دبره – اكد تيندیل – فليس امامها طريق آخر .

– ربما بقيت فى داخله ؟ – سأل الفلاحون وهم يرفعون الجيفة وينفضونها مدلين برأسها لعل الرصاصة تسقط منها .

– كلا ، لم تبق فى داخله – صاح تيندیل منفعلا – فقد وجدت المكان الذى غاصت فيه الرصاصة فى الارض . خذ المعول يا كونتا وسننبشها .

الجميع يتصورون لسبب ما ان فى طبيعة الاشياء ان يقوم كونتا بالذات بكل اعمال الحفر الضرورية حتى لعرض المعجزة . وضع كونتا المعول على كتفه ، وهبط الجميع الى المنخفض ، وبعد ساعة عادوا ومعهم رصاصة تيندیل التى استخرجوها من الارض .

واستولت الدهشة ، بل وحتى الذعر على العائدين عندما اكتشفوا ان جيفة الثعلب المتروكة فى اسفل الشجرة قد اختفت . تجمد تيندیل والرصاصة فى يده . ولاحظ احدهم ان القدر الذى كان فى الجوف بوضعيته الطبيعية قد انقلب . وهتف الصياد :

– اقسم برب الحيوان ان الثعلب قلب القدر واختبأ فى داخله .

طلب من كونتا ان يرفع القدر برفق ، بينما وقف هو متأهبا لاطلاق النار حالما يقفز الثعلب من تحته . لكنه لم يطلق النار ، لان شيئا لم يكن تحت القدر . وعند ذاك ازاحوا الرماد من جديد ليتأكدوا من بقاء رفات الميت المجهول فى موضعه . كان الرفات فى موضعه ، لكن جيفة الثعلب اختفت . وتأكد للجميع نهائيا ان هذا الثعلب هو ذاك الشيطان الذى رضع ضرع البقرة وشرب اللبن متمطقا ساحبا حلمات الضرع كالعجل .

– نحن حمقى ، والله حمقى . – قال سيكو وضرب راسه براحتيه مدللا على الحماقة التى اقترفوها – ما كان يجب ان نستخرج الرصاصة ، فهى ، على ما يبدو ، تربط الثعلب بالارض وتجعله ميتا .

وغدا واضحا للجميع فى الحال انه ما كان ينبغى انتزاع الرصاصة ، والقى الجميع ، بمن فيهم تيندیل ، نظرة كلها ملامة على كونتا الذى حفر التربة بمعوله .

ارتبك كونتا واقترح على الجميع ان يعودوا الى مزرعة الذرة لينجزوا العمل الذى بدأوه فى الصباح .

– ماذا بك ؟ هل جننت ؟ – هتف سيكو – اذهبوا الى بيوتكم بهدوء ، فردا فردا .

وضع الرجال معاولهم على اكتافهم وصعدوا المنحدر صوب القرية

وتفرقوا قاصدين منازلهم وهم يشعرون بالاهانة من جانب القوى الغيبية (فهى تشغلهم عن العمل بهدوء) .

ذاع نبأ الحادث فى «شيغيم» بلمح البصر ، وبلغ القرى المجاورة فى اليوم التالى . واكثر ما ادهش اهالى «شيغيم» واذهلهم ان الشجرة لم تعد تقول «كومخوز» ، كما اذهلتهم حادثة الثعلب . ودهشوا للقدر المجهول والهيكل العظمى البشرى ولكن ليس بنفس الدرجة .

ولكن اتضح فى مساء اليوم التالى ان الشيخ خابوغ اخذ جيفة الثعلب ، فقد مر آنذاك بشجرة الفداء . كان عائدا من الغابة بعد ان تفقد فخاخه . وقال اهالى «شيغيم» بروح من المصالحة والوئام : لو كان قد وجد شيئا فى فخاخه لما اخذ ذاك الثعلب . اما وقد عاد خالى الوفاض فلم يصمد للغواية واخذه .

جاء تيندیل ليستعيد ثعلبه ، لكن خابوغ لم يسلمه اياه ، بل اكد ان بغله هو الذى قتل الثعلب وليس تيندیل ، حتى انه كشف عن الشرخ الذى لم يلاحظه احد على جمجمة الثعلب . جادله تيندیل قائلا ان بوسع خابوغ ان يهشم راس الثعلب ، فقد عثر عليه ميتا .

ودلل خابوغ على رايه بالحجة والبرهان قائلا ان البغال ، بوصفها حيوانات عاجزة عن النسل انما تكن ارق المشاعر للامهار . واذا ظهر مهر فى مكان ما فان البغل يلازمه ولا يتركه لحظة ويدافع عنه بهياج منقطع النظير ليحميه من الاخطار الوهمية والفعلية .

وقال خابوغ قاصدا بغله :

– فى العام الفائت سحق ارنبين ، وفى العام الحالى ثعلبا .

– لمَ لم تقل رأسا ان بغلك هو الذى قتل الثعلب ؟ – حاول تيندیل ان يدينه من فمه . فاجاب خابوغ :

– اردت ان استمع الى سخافاتكم .

– سنفحص الاثر ونتاكد – هدده تيندیل .

– تاكد – رد عليه خابوغ .

كان واثقا ان الثعلب وقع تحت اظلاف البغل الهائج ، ولذا لم يهبط الى الموضع الذى قتل فيه حتى يعثر على آثار اظلاف بغله . هبط الى ذلك الموضع اناس آخرون واكدوا بالفعل وجود آثار البغل جنب الصخرة . وخابت آمال الاهالى بالصياد تيندیل لدرجة لم يعودوا يصدقون بها تمطق الثعلب تحت ضرع البقرة ولا الدب الذى خدعه (ولم يكونوا فى السابق ،

والحق يقال ، يصدقون ذلك تماما) ، بل ولم يعودوا يصدقون بانه مضى ذات مرة الى الغابة بانف سليم وعاد منها بانف اعقف .

– يخيل الى انه كان دوما بانف اعقف – كان سيكو اول من تخلى عنه ، فهو شيخ يمكنه ان يتذكر فتوة تيندیل افضل من الآخرين .

وشعر تيندیل نفسه وعشيرة الصيادين جمعاء بغيظ يكاد يكون وراثيا من هذا الادعاء المهين وطالبوا سيكو بأن يستخدم فى المستقبل تعابير اليق .

– زعلوا ؟ ! – هتف سيكو عندما بلغه هذا الخبر – فلينظروا ، اذن ، الى انوفهم .

والحال فان سيكو ، بوصفه من شهود العيان على حادثة الثعلب ، ومن اوائل رواة هذه الحكاية ، قد تورط فى الامر شخصيا بعد ان انتصرت الرواية الاقرب الى الحقيقة بخصوص مقتل الثعلب تحت اظلاف البغل . وما كان بوسعه ان يسامح الصياد على ذلك ، لاسيما وان سلالة تيندیل تتميز حقا بضخامة الانوف .

وردا على تهجمه الوقح هذا اكد اقرباء الصياد ان الانسان يمكن ان يكون اعقف الانف دون ان يمتلك انفا ضخما بالفطرة ، وانهم سوف يدللون على ذلك بالحجة والبرهان فى القريب العاجل .

وبعد تأمل استغرق ليلة بضحاها رد سيكو على هذا التهديد قائلا ان رصاص بنادقهم ، اذا حكمنا عليه من رماية افضل صياد فى عشيرتهم ، يميل الى الدخول فى الفم والخروج من الدبر ، ولذا اتفق مع كونتا ان يتبعه حاملا معوله لينبش الرصاص من الارض .

لاذ اقرباء تيندیل بالصمت ، وكان ذلك دليل سوء جعل خابوغ يتدخل فى الامر شخصيا . فقد اعلن على الملأ ، بوصفه احد اقدم اهالى القرية ، انه يتذكر تيندیل تماما فى ذلك الزمان عندما كان له انف مقبول (بالنسبة لعشيرته) وسليم حقا . اما بخصوص الثعلب فقد اضاف قائلا انه اذا امكن سحبه وتمطيطه كالمطلوب فيمكن ان تخترقه الرصاصة سواء فى هذا الاتجاه او فى عكسه ، وخصوصا اذا تمدد على منحدر بعد ان قتل تحت اظلاف بغل شديد الغيرة .

وادى تدخل خابوغ الى تهدئة خواطر اقارب الصياد لدرجة ما ، على ما يبدو ، مع انهم لم يكونوا راضين تماما على بعض النعوت التى اطلقها .

وبينما كان اهالى «شيغيم» يقدحون اذهانهم فى تفسير مغزى معجزة شجرة الفداء ويفكرون فى نتائج النزاع بين سيكو وسلالة الصيادين

تواردت من قرية «النهيرات» ، موطن «الكليم» ، اشاعات عن اختفاء محاسب الكولخوز فى ظروف غامضة .

توجه هذا المحاسب حاملا نقود الكولخوز من مركز الناحية الى مكان عمله فى القرية ، لكنه لم يصل الى هناك ولم يعد الى مركز الناحية . وبالمناسبة فلم يكن لديه سبب للعودة الى المركز .

وربما لم يدرك رئيس الكولخوز ضرورة مقارنة بعض الوقائع الغريبة لو لم يهمس سكرتير مجلس القرية فى اذنه ان الناس رأوا ، قبل يوم من حرق شجرة الفداء ، العم ساندرو يستقبل فى خصه شخصا غريب الاطوار ، تصوره الناس كذلك لانه اصلع بينما كان حصانه المربوط جنب الخص ، على العكس منه ، كث الشعر وعفرته كفروة الاسد .

– لا تتفوه لاحد بكلمة – انتعش الرئيس وبعث السكرتير الى قرية «النهيرات» ليتاكد من مظهر الحصان ومظهر المحاسب نفسه ، ويستفسر فى الوقت ذاته هل اخذ المحاسب من بيته قدرا نحاسيا .

عاد السكرتير من هناك وقال :

– الحصان وافر العفرة ، والرجل نفسه اصلع كراحة الكف – اما القدر فلا اعرف عنه شيئا ، لان كل القدور والقزانات موجودة فى مواضعها .

– دس ساندرو هذا القدر متعمدا لكى يشوش الامور علينا – قال الرئيس وبعث الى كينغورسك فى طلب رجال المليشيا .

وكانت روايته كما يلى : ساندرو قتل المحاسب ونهب اموال الكولخوز وعلق الجثة فى جوف الشجرة حتى ينتهز الفرصة الملائمة لينقلها الى الغابة ويدفنها هناك . الا ان اعضاء الكمسمول داهموه فى اليوم التالى على غير انتظار واحرقوا الجثة مع الشجرة .

وفى نفس الليلة امر الرئيس حارس حانوت القرية ان يختبئ بين شجيرات العليق جنب منزل ساندرو ويراقبه كيلا يحمل شيئا من المنزل . فقد تصور ان ساندرو ، بعد ان قتل المحاسب ، اقتاد الحصان الى مكان ما فى الغابة وخبأ السرج فى بيته على الارجح . اما الآن ، وقد سرت الشائعات بخصوص اختفاء المحاسب ، فان ساندرو يخشى التحرى وسوف يحمل السرج من المنزل ليخبئه فى مكان آخر . وفى الصباح الباكر ارتعب الحارس بسبب العيار النارى الذى اطلقه خابوغ فعاد الى ادارة الكولخوز . واتضح ان الشيخ اطلق النار من بندقيته مرتين من شرفة المنزل صائحا

ان الارانب اللعينة افسدت فاصوليته كلها . ويبدو ان الكلاب شعرت بوجود الحارس .

وسأل الرئيس :

– هل حملوا من المنزل شيئا فى الليل ؟

– كلا – اجاب الحارس وكان قد كذب ، لان زوجة خابوغ جاءته بقطعة من لحم الدجاج مع رغيف . وتوسلت اليه ان يقبع فى كمينه بهدوء كيلا يعلم زوجها بأن منزله تحت الحراسة والا ، لا قدر الله ، فلن يسلم احد من غضبته .

– هل يمكننى ان انام ؟ – سألها الحارس .

– تلك افضل وسيلة – قالت المرأة فغفا الحارس فى الحال راضخا لما تعود عليه طوال السنين من قدرة على النوم فى اسوأ الظروف .

فى ذلك اليوم وصل الى ادارة الكولخوز من جهتين وفى وقت واحد تقريبا رجل المليشيا من كونغورسك واثنان من اقارب المحاسب يتقدمهما «الكليم» ، واولهما فلاح كهل يرتدى صديريا لباديا وقلنسوة ، اما الآخر فهو ، كما يقال عادة ، فى ريعان الشباب ، وتدل ثيابه على انه من الرؤساء ، مع انه لا يمت إليهم بصلة . كان فى سترة حريرية وبنطال فضفاض ضيق عند الحزمة . واذا حكمنا عليه من ثيابه يمكننا القول انه يمثل السلطة التشريعية ، ابتداء من الرأس حتى الخصر ، ويمثل السلطة التنفيذية ، من الخصر حتى القدمين .

وما ان رأى رئيس الكولخوز ورئيس مجلس القرية الضيوف حتى تركا الادارة وافترقا ، بعد تردد قصير ، وتقدما من القادمين . مضى الاول صوب رجل المليشيا ، بينما ذهب الآخر الى «الكليم» وقريبى المحاسب .

– طالما احرقوا المحاسب الا ينبغى ان يعيدوا الحصان ؟ – صاح «الكليم» بدلا من التحية وترجل على عجل وشد فرسه فى المربط .

– تمهل يا «كليم» – قال اكبر القريبين سنا وسلم عنان فرسه الى رئيس مجلس القرية .

– القضية ليست فى الحصان – قال رئيس المجلس بلهجة ذات شان وهو يتقدم من الرجال ويصافحهم . ولاحت فى صوته نأمة الأسى والحزن ، وراح يهز رأسه بتلميح سياسى . وهز رجل المليشيا رأسه هو الآخر ، وكأنه يؤيد وجهة الافكار التى يعرف انها صحيحة . وقال «الكليم» مندهشا :

– كيف تقول القضية ليست فى الحصان – فهل احرقه مع محاسبنا ؟

– كلا ، لا اقصد شيئا من هذا القبيل – انكمش وجه تيمور لان «الكليم» خلط بين الرفيع والوضيع – اعضاء كمسمولنا احرقوا الشجرة بقرار من المسؤولين . . .

وهنا عرض روايته لجريمة ساندرو بالشكل الذى يتصوره او يريد تصويره للآخرين . فقال ان ساندرو ، على ما يبدو ، قتل المحاسب وخباه فى جوف الشجرة ليدفنه فى مكان بعيد عندما تحين الفرصة حتى لا تتمكن كلاب القرية او بنات آوى فى الاطراف ان تنبشه . ولكن اعضاء الكمسمول احرقوا شجرة الفداء فى اليوم التالى ، وافتضحت الجريمة .

– واين الحصان ؟ – قاطعه «الكليم» .

– اعتقد انه خبا الحصان فى مكان ما فى الغابة – قال رئيس الكولخوز .

– كلانا نعتقد . . . – صححه مهدى – وكان قد ذكره سابقا بانه هو ايضا يمثل السلطة ، لكن البعض فى «شيغيم» ، كما فى سائر ارجاء البلاد ، ينسى هذه الحقيقة . وقال رجل المليشيا فى الختام :

– لا بد من استجواب ساندرو وتفقد المكان الذى عثر فيه على عظام المحاسب .

– فلنذهب الى الشجرة ، وسنجد ساندرو هناك – قال مهدى .

ودع رئيس الكولخوز الجميع ومضى الى الادارة ، بينما امتطى مهدى حصانه الذى كان يرتع فى حوش مجلس القرية ، وتحرك الخمسة صوب شجرة الفداء .

بعد ساعة وصل الفرسان الخمسة الى الشجرة وترجلوا جنب المربط ، بينما هبط «الكليم» الى النبع ممسكا بلجام فرسه .

– فرسى تريد ماء – اوضح بأنانية مفرطة ، مما يميز ساسة الخيل الكهول .

– هنا تستقر عظامه – مد مهدى يده بالسوط مشيرا الى قاع جوف الشجرة .

تقدم كلا القريبين من جوف الشجرة وامارات الحزن تعلو وجهيهما . خلع القريب الاكبر سنا قلنسوته من على رأسه العرق وضرب جبهته براحة يده ضربات رمزية جاءت ، لهذا السبب ، خفيفة هادئة ، وراح يتمرن على مستلزمات النحيب والعويل المطلوبة فى التأبين المنتظر . واثناء الضرب على الجبين رتل بصوت خافت كلمات الحداد التى بدت ، جزئيا ، كالوعد بالثأر والانتقام .

وبعد دقيقة وضع القريب الاصغر سنا الواقف فى الخلف يده على كتفه

واداره وتنحى به جانبا ، فاشاح هذا بوجهه عن الآخرين ومسح عينيه البليلتين افتراضا ، ثم تمخط بصوت عال وتنفس الصعداء . وبعد ذلك ارتدى قلنسوته بحزم دليلا على الانتقال من عالم الحداد الى عالم الافعال .

– سيأتى الشاهد الآن ويبين كيف وقعت الحادثة – قال مهدى بلهجة مهدئة ليخفف من غلوائه .

– قبل ان يأتى الشاهد لا يحق لنا ان نلمس ولا عظما واحدا – اوضح رجل الميليشيا وهو نفسه مندهش على الدوام لمراسم التحقيق المهيبة ويريد للآخرين ان يندهشوا لها .

– الم يحن الوقت لاحضر ساندرو ؟ – سأل مهدى .

– كلا – قال القريب الاكبر سنا – علينا فى البداية ان نتشاور فى الامر . . . – التفت الى «الكليم» – جئت الى هنا لتسقى الفرس ام لتؤدى الواجب ؟

– فى الحال – اجاب «الكليم» وقاد الفرس الى المربط وشد العنان على طرف غصن .

– ماذا تريدون ان تفعلوا ؟ – سأل رجل الميليشيا .

– هذا ما سنقرره الآن – قال القريب الاصغر .

– تذكروا انى مسؤول عنه – قال رجل الميليشيا .

– قرابة الدم تدعونا – قال القريب الاصغر وهز كتفيه .

ابتعد القريبان مع «الكليم» زهاء عشرين خطوة وبدأوا يتكلمون ، ثم راحوا يتشاجرون ويتطلعون الى رجل الميليشيا بين حين وآخر . كان واضحا ان القريب الاصغر لا يزال يميل الى الشراسة . واخذ رجل الميليشيا يتمشى جنب الشجرة منفعلا ، وهو يتطلع اليهم بين الفينة والفينة .

– اقسم بالله العظيم سيقترفون حماقة – تمتم رجل الميليشيا – وسيهلكون واهلك معهم .

– ربما لن يقترفوها – هدأه مهدى .

استشاط المتجادلون غضبا ، وراح «الكليم» يضرب فخذه بيده السليمة ضربا عاليا دون اعتبار للآخرين الذين يسمعونهم :

– كلا ، هذا لا يجوز ، وخصوصا بحضور رجل الميليشيا .

– اقسم بحياة نسطور لاكوبا * سيفعل هؤلاء الرجال ما يؤدى الى

---

* اول رئيس لحكومة ابخازيا السوفييتية ، اعتقل وقتل فى السجون الستالينية (١٨٩٣–١٩٣٦) . – الناشر .

هلاكى – قال رجل الميليشيا قلقا وهو يستمع الى حديثهم .
– ولكن قرابة الدم تدعونا – كرر القريب الاصغر دون ان يقر له قرار .
وفى آخر المطاف تمكن «الكليم» ان يهدئه ملمحا الى ان الوقت يكفى لقتل ساندرو اذا ثبت جرمه . فقال القريب الاصغر :
– اذا حبسوه لن نقبض عليه .
– طيب ، اذهب واحضره – وافق القريب الاكبر مخاطبا مهدى .
– حالا – اجاب مهدى وغذ فى السير صاعدا على الدرب . فهو ، على آية حال ، يخشى ان يعدل القريبان عن رأيهما .
بعد لحظات احتجب وراء منعطف الدرب ، بينمـــا جلس «الكليم» والقريبان ورجل الميليشيا متربعين على العشب تحت الشجرة .
– هناك شىء واحد يجعلنى ارتاب لصالحه . – قال القريب الاكبر – اذا كان قد قتله فلم لم يهرب ؟
– فعلا – قال رجل الميليشيا – سناخذه الى كينغورسك ونتاكد هناك من كل شىء .
– ناخذه هو ام العظام ؟ – سال القريب الاكبر .
– هو والعظام – اجاب رجل الميليشيا .
– لا نوافق بخصوص العظام – قال القريب الاكبر بعد تفكير .
– اليس كثيرا عليكم ان تاخذوا العظام بالاضافة الى ساندرو ؟ – اضاف القريب الاصغر .
– عادت حليمة الى عادتها القديمة – ضرب رجل الميليشيـــا على ركبته – تسمحون لى ان آخذ ساندرو حيا ، فلماذا ؟
– لاننا غير واثقين بانه هو القاتل – قال القريب الاكبر .
– اذا كنتم غير واثقين بأن ساندرو هو القاتل فما الذى يجعلكم واثقين ان هذه العظام عظام محاسبكم ؟
– صحيح – وافقه القريب الاكبر .
– ماذا لو كان محاسبكم قد فر بالنقود الى مكان ما ؟
– يا ليته فر – قال القريب الاكبر .
– احمق – تنهد «الكليم» ، – طلبت منه ان يبيع الحصان فرفض
– لماذا تجلب الشؤم يا «كليم» ؟ فلربما فر بالفعل – قال القريب الاصغر .

– لن نرى الحصان عندئذ – تنهد «الكليم» – اما اذا كان ساندرو قد قتله فالحصان موجود فى مكان قريب .
– كلا – عاند القريب الاكبر من جديد – سيكون كثيرا عليكم ان تاخذوا ساندرو مع العظام .
– عادت حليمة الى عادتها القديمة – ضرب رجل الميليشيـــا على ركبته – الم نتفق حول الموضوع ؟
– ماذا لو كان هو القاتل ؟
– سنتاكد هناك – قال رجل الميليشيا – فى المدينة الآن اطبـاء ماهرون حالما ينظرون الى جمجمة الانسان يعرفون اسمه ولقبه .
– سمعت بذلك – وافقه القريب الاكبر – لكننى اخشى ان يدنسوا الرفات .
– لن يحدث شىء لعظام محاسبك . – قال رجل الميليشيا .
– يعنى تظن مع ذلك انهـــا عظامه ؟ – انتفض القريب الاكبر .
– انا لله وانا اليه راجعون – تنهد رجل الميليشيا – انا شخصيا لا اظن اطلاقا .
ظهر اشخاص على الدرب . امامهم كونتا حاملا معوله على كتفه ، وخلفه العم ساندرو يلوح بسوطه وخلفه مهدى رئيس مجلس القرية .
– وجدتهما فى الطريق – قال مهدى وهو يحاول ان يحزر تصرف قريبى المحاسب اللذين اتخذا وضعية تدل على عنادهما الشديد حالمـا لمحا ساندرو . وقال كونتا مبتسما بطيبة خاطر :
– ظننت انكم ستحتاجون الى ساندرو فى كل الاحـــوال ، فعرجت عليكم .
– قف ، يا ساندرو فى مكانك ، بيننا دم – قال القريب الاكبر ، بينما دس الاصغر يده فى جيب بنطاله .
– اقسم بقوت ابى – قال العم ساندرو بمهابة – وانتم تعرفـون قيمة قوت ابى . . .
– قيمته تفوق التقدير – اكد القريب الاكبر .
– . . . اقسم بالقوت الا دم بيننا .
خيم الصمت وراح الجميع ينتظرون ما سيقوله القريب الاكبر .
– نحن نصدقك وقتيا – قال ، فاخرج القريب الاصغر يده مـــن جيبه .

– طيب – قال رجل الميليشيا فرحا – سوينا القضية على طريقتنا ، بالاسلوب السوفييتي ، اما انت يا كونتا فحدثنا عن الحادثة .

كان كونتا يتطلع طول الوقت الى «الكليم» وهو يرمش بأهدابه الريشية التى تطوق عينيه الزرقاوين الباهتتين . وقال «الكليم» :

– يخيل الىّ ان كونتا ينوى استبدال حديثه بيدى المعقوفة .

– ذلك من عند الله ولا يمكن تبديله – اجاب كونتا بجد – لكننى لم اعرفك راسا فى البداية .

– لاننى صرت كولخوزيا – صاح «الكليم» – يقولون ان يدى المعقوفة ستستقيم فى الكولخوز ، فما رايك يا كونتا ؟

– الاحوال ستتحسن كما يقولون . وسنرى ان كانوا محقين – اجاب كونتا بنفس الجدية ورفع المعول عن كتفه .

– تحدث فى صلب الموضوع – قاطعه رئيس مجلس القرية .

– جئنا الى هنا – طفق كونتا يتحدث واضعا يده على المعول كما لو كان عصا – لنرى ماذا حصل لشجرتنا العملاقة . كان الدخان لا يزال يتصاعد منها . فجلس داتيكو وقال : «يا كونتا ، ازح الرماد لنرى ماذا حصل للقدر ، هل ذاب ام انفجر ؟» . اما سيكو فقد جلس هناك حيث يقف «الكليم» الآن ، وراح يدخن سجارته وقال : «افضل ما يعجبنى فى الكولخوز هو فرصة التدخين» .

– تكلم فى صلب الموضوع – قاطعه مهدى من جديد .

واصل كونتا حديثه وهو ينبش الرماد فى جوف الشجرة ويلتقط العظام التى يرتطم بها معوله . انحنى رجل الميليشيا وراح يركب بعناية هيكلا من تلك العظام ، وهو يوضح حركاته بصوت مرتفع ويبدل مواضع بعض العظام احيانا . دحرج كونتا الجمجمة بحذر ، فوضعها رجل الميليشيا فى موضعها عند الراس .

– هل يشبهه ؟ – سأل ناهضا وتطلع فى عينى العم ساندرو لسبب ما . صمد العم ساندرو لنظرته وهز كتفيه . كما هز قريبا المحاسب اكتافهما ايضا .

– لا ادرى – قال القريب الاكبر ومطط شفتيه باشمئزاز مشيرا الى ان هذا الهيكل العظمى غريب عليهم ، وعبرت عيناه عن الحزن والحداد تحوطا للطوارىء والاحتمالات . انحنى «الكليم» ورفع الجمجمة . فقال له القريب الاكبر :

– خذ حذرك ، لا تحطمها اكثر .

– وهل ينقصها التحطيم – اجاب «الكليم» وهو يحدق فى الجمجمة بمثقبى عينيه – اقسم بالله العظيم ان هذا لا يشبه محاسبنا الا بالصلعة .

– يا ليت – قال القريب الاكبر .

وهنا ذكر العم ساندرو ، بناء على طلب رجل الميليشيا ، كل ما يعرفه عن المحاسب ، ودعا الجميع الى منزله . مانع القريب الاكبر فى البداية وعاند ، الا ان «الكليم» كسر عناده ثانية . وقال وهو يمتطى فرسه :

– لن ندخل المنزل . سنتناول الطعام فى الحوش ونرتحل .

– واذا غلى الدم فى العروق ؟ – سأل القريب الاكبر .

– سنسمعه ، فلسنا صما والحمد لله – اجاب «الكليم» وهو يرتقى الدرب الصاعد .

وارتقى الجميع الدرب . فى مقدمتهم «الكليم» ، وخلفه العم ساندرو مع رجل الميليشيا الممسك بلجام الحصان ، والباقون وراءهما . ويختتم كونتا الركب ، فى احدى يديه المعول وفى الاخرى معطف رجل الميليشيا وفيه عظام الميت المجهول .

فى الطريق حاول رجل الميليشيا ان يريح ضميره بتشويش الامور على العم ساندرو ، لكن هذا الاخير صمد ورد على كل اسئلته بهدوء وهو يصفع صفحة جزمته بالسوط .

– لا تزعل علىّ يا ساندرو – قال له رجل الميليشيا – فانا ملزم بايصالك الى مركز الناحية . . . رئيس الكولخوز مشتبه بك . . .

– سأذهب بكل سرور – اجاب العم ساندرو – لاسيما وانى انا ايضا مشتبه به .

– فيم ؟ – سأل رجل الميليشيا .

– اعتقد انه هو الذى وضع العظام هناك بنفسه او عن طريق اعضاء كمسموله .

– لماذا تقول مثل هذه الامور عن الرئيس بحضورى ، يا ساندرو ؟ لماذا تحرجنى ؟ – سأل مهدى .

– استطيع ان اقول هذا الكلام بحضوره ايضا – اجاب العم ساندرو واستحث الخطى ليفتح بوابة حوشه . تجمهروا عند البوابة متحاشكين ليفسحوا المجال لاحدهم كى يدخل قبلهم . فدخل الباحة اخيرا القريب الاكبر على ظهر حصانه ، وتبعه «الكليم» ، ثم الباقون . حاول رئيس مجلس

القرية ان يعاند لكنه وافق بعد ذلك ، فقد تفوق عليه ضعفه . احس بأن من غير اللائق ، من وجهة النظر الطبقية ، تناول الطعام الآن فى منزل العم ساندرو ، لكن الجوع الشديد ألم به خلال هذه الفترة ، فى حين اشتهر هذا البيت بحسن الضيافة ، ولذا دفع حصانه لاجتياز البوابة . وفكر : لا يهم ، سأقول لرئيس الكولخوز ، فى اسوأ الاحوال ، اننى اردت ان اعرف نواياهم حتى النهاية .

كان «الكليم» قد دخل الحوش مندفعا بحصانه حتى جعله يشب على قائمتيه من شدة الانفعال . اما القريب الاكبر فقد هز رأسه باكتئاب وهو ينظر اليه ملمحا الى ان هذا نسي بسرعة المقصد الانتقامى ، ان لم نقل المغزى التأبينى لحملتهم المتواضعة .

وتدليلا على الصفة العابرة للوليمة اعدوا المائدة فى الحوش مجردة من الكراسى وتناولوا الطعام والشراب وقوفا .

المثل يقول : الضيف الجالس خير من الضيف الواقف ، وخصوصا اذا كان يحتسى الخمر وقوفا ، فان معدته ، مثل القربة الممطة ، تتسع للمزيد .

كانت الشمس قد غربت وراء الجبل عندما ترك الضيوف المائدة .

زودت ام ساندرو رجل الميليشيا بخرج وضع فيه عظام الميت المجهول بعد ان لف كلا منها بحزمة من القش . وبناء على اقتراح من القريب الاكبر لم يكتفوا بلف الجمجمة بالقش من الخارج بل حشوا داخلها بالكثير منه بغية الحفاظ على سلامتها .

– الا يعنى ذلك – قال «الكليم» قاصدا اسلوب لف الجمجمة وصيانتها – انكم تهينون محاسبنا ؟

– كلا ، ابدا – اجاب القريب الاكبر ، فهو لا يميل الى التنكيت فى هذا الموضوع .

ودّعت ام ساندرو واخواته واخواه الصغيران الضيوف حتى مفترق الدرب ، ومن هناك مضى رجل الميليشيا مع العم ساندرو على الدرب المؤدى الى كينغورسك ، بينما مضى الباقون الى قريتهم «النهيرات» . وقالت الام مودعة :

– لا تنس يا ساندرو ان تجلب الخرج عندما تعود .

– على مهلكما ، ارجوكما – صاح القريب الاكبر وهو يدير وجهة حصانه .

– لا تخش عليه – اجاب رجل الميليشيا وطبطب على الخرج المعلق بالسرج . وهمّ الرجلان بالتحرك عندما التفت اليهما «الكليم» صائحا :

– يا ساندرو ، اذا رأيت شجرة مجوفة فى الطريق اضربها فلعلها تقول شيئا لممثل السلطة .

ضحكوا قليلا وافترقوا . مشهد العم ساندرو الرشيق الفارع القامة فى قفطانه جنب رجل الميليشيا القمىء لا يعبر باى حال عن العلاقات الاجتماعية الفعلية القائمة بينهما . فالعم ساندرو اشبه بضابط من الخيالة ، وربما من «الفرقة البرية» ، يمتطى ظهر الحصان بجنب مراسله او خادمه .

* * *

رغم الاحتجاجات الشفوية زجوا بالعم ساندرو فى سجن مركز الناحية ، وكان قلعة قديمة فى السابق . استدعى محقق الميليشيا العم ساندرو مرارا لاستجوابه ، لكن هذا الاخير لم يتمكن من الادلاء باية معلومات تستحق الذكر . فقد اصر على ان رئيس الكولخوز خرق قرار لجنة الناحية المسؤولة واحرق شجرة الفداء . وقال : لعله وضع تلك العظام فى جوف الشجرة ليلا بنفسه او بواسطة اعضاء كمسموله بعد ان احرقها بصورة غير شرعية .

– اين المحاسب اذن ؟ – حاول المحقق ان يدينه من فمه .

– لا ادرى – اجاب العم ساندرو – كان قد جلس عندى زهاء ساعة ثم ارتحل .

– عم تحدث معك ؟ – سأل المحقق بالحاح .

– قال ان الصلع ألم به اثناء الدراسة ولم ير السعادة – اجاب العم ساندرو .

بهذه الصورة استجوب المحقق العم ساندرو عدة مرات وسجل كل اجوبته وارسله الى السجن من جديد . وعندما ادرك العم ساندرو ان اجربته لا تعود عليه باى نفع ، بل تنفع المحقق وحده ، لاذ بالصمت . ولم يزعل المحقق لرفض العم ساندرو الكلام .

– ابق فى السجن اذن – قال له المحقق – اما انا فسأجمع بهدوء مواد الادانة .

– الا يمكن جمعها بسرعة ؟ – سأل العم ساندرو .

– وما الداعى للاستعجال ؟ – قال المحقق .

– انا شخصيا لست مستعجلا – قال العم ساندرو ، ولكن ذلك غير لائق بحق الاقرباء .

– لماذا ؟ – دهش المحقق .

– تركت عندهم حصانى – اوضح العم ساندرو – وهم لا يعلمون هل ينتظروننى ام يعيدون الحصان .

– طيب – قال المحقق مراوغا – لن اسألك عن المحاسب . . . خبرنى اين حصانه ، وعند ذاك ساقول لك ماذا تفعل بحصانك .

– لا ادرى . – اجاب العم ساندرو متململا .

– ابق فى السجن ، اذن ، فترة اخرى – قال المحقق فى الختام .

كان المكوث فى سجن كينغورسك فى تلك الحقبة ليس بالامر السيىء تماما كما يقول شهود العيان . صحيح ان الاحوال فى السجن تبدلت كثيرا بعد بضع سنين ، لكن البقاء فيه كان ممكنا فى تلك الحقبة . ومع ذلك شعر العم ساندرو بضجر شديد بعد شهر من الزمان ، فالسجن هو السجن رغم اسباب الراحة المتوفرة فى كينغورسك . زد على ذلك ان رفاقه فى الزنزانة اخذوا يقصون للمرة الثانية مشاهد حياتهم غير الغنية ، ولذا ادرك العم ساندرو ان من اللازم ان يفعل شيئا .

لكنه لم يتمكن ان يبتدع شيئا . ففى احد الايام التى شعر فيها بضجر شديد دخل الزنزانة سجان افاد بأن حصان المحاسب عاد الى منزله ، وهو فى المربط عند والدى المحاسب اللذين لا يحيدان ببصرهما عنه .

انفعل العم ساندرو اشد الانفعال لهذا الخبر وطالب بلقاء مع المحقق .

– نعم – اجاب المحقق – نعرف ذلك ، لكنك متهم بقتل المحاسب وليس حصانه .

– طالما جاء الحصان فسيأتى المحاسب ايضا – اجاب العم ساندرو واثقا .

– عندما يأتى سننظر فى الامر – هدأ المحقق من روعه متململا .

واقتادوا العم ساندرو الى الزنزانة من جديد . وفى اليوم التالى جاء نفس السجان بخبر مفرح اكثر . فبعد يومين من مجىء الحصان تعقبه الى القرية راع من الاديغيين وطالب باعادته اليه . استدرجوا الراعى الى ادارة الكولخوز ونزعوا سلاحه هناك وحبسوه ، وبعد ذلك اعترف بانه اشترى هذا الحصان من رجل اصلع ، تشير كل الدلائل الى انه هو محاسب الكولخوز .

– اين محاسبنا اذن ؟ – سألوه .

– فر الى روسيا – اجاب الراعى .

انفعل العم ساندرو ثانية وطالب بأن يأخذوه الى المحقق . لكن هذا الاخير رفض مقابلته ، وطلب من المناوب ان يخبره بأنه يعرف ذلك .

وبعد اسبوع جاء نفس السجان ، والاصح المنادى ، الذى لا يعرف الكلل ، بخبر اروع . فقد تم القبض على المحاسب فى مطعم محطة ستافروبول مع امرأة مجهولة اعترفت بعد التحقيق بأنها عاملة فى فندق «دار الكولخوزيين» فى كراسنودار . وقال السجان :

– كلاهما فى الطريق الى هنا . وقد تقرر مصيرك تماما .

طالب العم ساندرو من جديد بمقابلة المحقق ، لكن طلبه الشرعى رفض ثانية . وعند ذاك قرر ان يستخدم وسيلة شعبية مجربة . فقد بعث الى خارج السجن رجاء بان يخوف احد الاشخاص المحترمين المحقق بشدة .

ووقع الخيار على «الكليم» ، اما لانه شخص محترم حقا ويتمتع بثقة المجتمع واما لان له ضلعا فى مصير العم ساندرو . لا احد يعرف الحقيقة الآن . والارجح ان الامرين التقيا فيه .

فذات صباح ظهر فى مركز الناحية على ظهر حصان المحاسب وقال فى لقاء مع اشخاص يعرفهم انه مكلف بالبحث عن محقق جديد .

– والمحقق القديم ؟ – سأله اولئك الاشخاص .

– بدأت تفوح منه رائحة كريهة – اجاب «الكليم» ونظر الى الشمس شزرا – نريد محققا انظف .

وعندما عرف المحقق بوجود «الكليم» فى مركز الناحية وسمع باقواله الغريبة لوح بيده مستهينا فى بادىء الامر . ولكن عندما اخبره بذلك عدة اشخاص آخرين ، واضافوا ان «الكليم» وصل على ظهر حصان المحاسب الموقوف ، لا على ظهر حصانه ، اضطرب وادرك ان فى ذلك تلميحا واى تلميح .

فسأل من آخر رجل قابل «الكليم» :

– وماذا يقولون فى اللجنة الحزبية فى الناحية ؟

– اعتقد انهم لا يعرفون شيئا بعد – اجاب ذاك .

– واين «الكليم» الآن ؟ – سأل المحقق وهو لا يزال يأمل بأن الامور ستمر بسلام .

– ذهب باتجاه السجن – اجاب ذاك .

يقع السجن فى ضواحى كينغورسك ، ولم يكن المحقق يعرف هل يتعين عليه ان يفرح ام يتخذ اجراءات ما . فهو لا يدرى هل اروى «الكليم» غليله فغادر كينغورسك ام انه ينوى القيام بشىء آخر .

وفى تلك الاثناء تلفن له مدير الميليشيا فامتقع وجهه حالما التقط السماعة . فقد اتضح ان مدير السجن تلفن لمدير الميليشيا وقال له ان «الكليم» مر على ظهر حصانه بالسجن توا وصاح باعلى صوته : «شدوا عزيمتكم يا شبان» ، ثم عاد بالحصان مسرعا الى قريته . ونصح مدير السجن مدير الميليشيا ان يبعث مفرزة من فرسان الميليشيا لتلحق به وتحتجزه وتوضح مقصده . رفض مدير الميليشيا هذا الاقتراح ، لكنه وبخ المحقق على سوء التحقيق ، فقد كان «الكليم» يمتطى ظهر حصان المحاسب .

استدعى المحقق العم ساندرو لاستجوابه فورا .

– لا تقل انك لم تبعث «الكليم» – قال المحقق بمنتهى الانفعال حالما رآه .

– انا لا اقول شيئا – رد عليه ساندرو بهدوء . ولعل «الكليم» هداه بشعاره المحفز او لعله راى المحقق منفعلا ففهم ان الحق يعلو ولا يعلى عليه .

– ما مقصده ؟ – حاول المحقق ان يحصل على الجواب لكن العم ساندرو هادئ فى تصلبه ومتصلب فى هدوئه .

– «تشجعوا» ، هذا هو مقصده – اجاب العم ساندرو .

– ماذا لو اعتبرنا ذلك تحريضا على مقاومة السلطات ؟ – قال المحقق مندهشا لصلابة العم ساندرو وهدوئه .

– ليس ذلك تحريضا – اجاب العم ساندرو بلهجة جافة فادرك المحقق ضرورة الانتقال الى لهجة اكثر مصالحة .

ومن الطريف انه عندما جرت محاكمة «الكليم» بعد سنين طويلة ، ابان الحرب ، لانه نقل من حقل الكولخوز شجرة يتوع وغرسها عند قبره المزعوم ، ذكروه بتلك الحادثة فتظاهر بانه لا يتذكر شيئا .

– انا اعرف انك لم تقتل المحاسب – قال المحقق للعم ساندرو وانتقل الى لهجة مسالمة اكثر – ولكن افهم موقفى .

– انت الذى سجنتنى فكيف افهم موقفك ؟

– لقد عثروا على العظام فى جوف شجرتك ، أليس كذلك ؟

– رئيس الكولخوز وضعها هناك – اصر العم ساندرو على رأيه السابق – وضعها بنفسه او عن طريق اعضاء كمسموله .

– هذا امر يحتاج الى ادلة – قال المحقق .

– اطلق سراحى وساجدها – وعده العم ساندرو .

– المشكلة انى لا استطيع ان اطلق سراحك – تنهد المحقق – بودى ان افعل ، لكن جريدة «تراب كينغورسك» كتبت فى الموضوع . . . جاء مراسل من الجريدة وكتب انك قتلت المحاسب بوصفك ابنا عاصيا لبرجوازى ريفى كف عن العصيان .

– لكن المحاسب حى يرزق . – قال العم ساندرو مندهشا .

– صحيح – تنهد المحقق – وسوف نحاكمه لانه اختلس اموال الكولخوز ، ولكننا اذا اطلقنا سراحك تعتبر الجريدة مخطئة .

لم يفهم العم ساندرو هذه الحيل رغم دهائه . فسأل :

– كم عدد نسخ الجريدة ؟

– عشرة آلاف – اجاب المحقق .

– وهل كتبت الشىء ذاته فى كل تلك الآلاف العشرة ؟ (فيما بعد ، عندما كان العم ساندرو يتحدث عن تلك الحادثة ، ادعى انه تظاهر بالبلاهة ، اما الآن فيصعب القول هل كان صادقا ام لا ، وعلى اية حال فالعم ساندرو لا يبدو الآن ايضا من «المدمنين» على مطالعة الجرائد) .

– نعم فى كل الآلاف العشرة – اجاب المحقق .

– وما ثمن النسخة الواحدة ؟

– كوبيكان .

– ابى مستعد ان يدفع خمسة كوبيكات لكل واحدة . سنشتريها جميعا ونحرقها – قال العم ساندرو فى حماس شديد .

– لا يجوز حرق الجرائد – هز المحقق راسه .

– وهل يجوز حرق شجرة الفداء ؟ – سأل العم ساندرو .

لكن المحقق لم يحر جوابا . ظلا صامتين بعض الوقت . وقام شبح الحقيقة بينهما . لكن الباب صر فى تلك اللحظة ، فاختفى شبح الحقيقة . دس رجل الميليشيا المناوب راسه فى باب المكتب ليذكر بوجوده واغلق الباب من جديد . وكانت تلك هى المرة الثالثة التى يذكر فيها بوجوده اثناء التحقيق . فالعادة المتعارف عليها هى ان الشخص الذى يرافقه رجل الميليشيا الى التحقيق يجب ان يعرج على محل ما فى طريق العودة ليسقى او يطعم ممثل السلطة . ولذا كان رجل الميليشيا يذكر بوجوده .

– ساندرو – قال المحقق بعد تأمل قصير – خفف من حماس «الكليم» وسابذل جهدى من اجلك حالما تنتهي الاقاويل بشأن هذه القضية .

– هذا ممكن بالطبع – اجاب العم ساندرو – اذا كنت تعاملنا بالحسنى لن نجحد فضلك .

بعد هذا الكلام خرج من المكتب الى الرواق حيث استقبله رجل الميليشيا بتنهدة مديدة . ورد العم ساندرو على تلك التنهدة قائلا :

– انا اتعذب وانت تتعذب معى .

– لا يهم . . . المشكلة انهم يمكن ان يغلقوا المحل . – اجاب رجل الميليشيا بتواضع ، ومضيا صوب باب البناية .

* * *

لا احد يعلم بم كانت القضية ستنتهي ، وهل سيطلق سراح العم ساندرو فى القريب العاجل من غياهب سجن كينغورسك المضياف لو لم تساعده الصدفة ، او على الاصح فضول نسطور لاكوبا الذى لا يعرف الكلل .

فى ذلك اليوم وصل نسطور لاكوبا الى مركز الناحية وتفحص قائمة الفلاحين الاثرياء الذين انتسبوا الى الكولخوز هناك . وكان فى القائمة والد ساندرو . فانتبه له نسطور بالذات . وجاء في القائمة ان خابوغ سلم للكولخوز اربعة جمال مع الممتلكات الاخرى . فحاول نسطور ان يعرف من المسؤولين هناك من اين لهذا الابخازى الجبلى بالجمال ؟ ولم يتمكن المسؤولون فى الناحية ان يجيبوا على هذا السؤال بما يشفى الغليل . قالوا انهم شخصيا لم يروا الجمال لانهم لم يتلقوا توجيها بالاهتمام بها ، الا ان قوائم كولخوز «شيغيم» موثقة ومصدقة من قبل رئيس الكولخوز ورئيس مجلس القرية .

لم يكن نسطور لاكوبا يحب الغموض ، ولذا امر بارسال شخص الى «شيغيم» ليستفسر عن مصدر الجمال ويقتادها الى كينغورسك ان امكن ، بغية ارسالها فيما بعد الى موخوس بوصفها حيوانات غير معتادة فى اراضينا .

بعثوا رجل ميليشيا على ظهر حصان ، وهو نفس الرجل الذى احضر العم ساندرو . وكان قد غادر كينغورسك عندما لحق به احد اقارب العم ساندرو راكبا حصان هذا الاخير وقال :

– ارجوك يا اخى ، خذ معك هذا الحصان الى «شيغيم» .

ما كان رجل الميليشيا يريد ان يوصل حصان العم ساندرو اطلاقا ، وعلى العموم ما كان ينوى المرور ببيته . انه ذاهب الى مجلس القرية يستفسر عن الجمال ويعود . اما هذا التكليف الجديد فيبدو فى غير محله . وسيقول قائلون : اقتاد الفارس وحصانه ، واعاد الحصان بدون فارسه . لم يكن راغبا اطلاقا فى تنفيذ هذا التكليف .

– لست ذاهبا الى هناك – قال لقريب العم ساندرو متحايلا وعاد الى دائرة الميليشيا .

عاد الى مدير الميليشيا وقال له ان العم ساندرو فى السجن هنا ولا موجب للرحيل الى «شيغيم» اذ يمكن الاستفسار منه بخصوص الجمال .

تلفن مدير الميليشيا الى اللجنة الحزبية فى الناحية ، فابلغ رفاق من اللجنة نسطور لاكوبا بأن ابن خابوغ موجود هنا فى السجن بتهمة قتل المحاسب الذى اتضح فيما بعد انه حى يرزق وقد اختلس اموال الكولخوز وهو تحت الحراسة حاليا . فقال نسطور :

– احضروه اذن .

احضروا العم ساندرو فى الحال الى مدير الميليشيا وسلموه ثيابا مدنية واخبروه ان نسطور لاكوبا نفسه يريد ان يقابله . ولم يبلغوه بالغرض من المقابلة ، كيلا يجد وقتا للتحجج والتهرب .

– لن اذهب اليه ما لم اغسل رأسى واحلق ذقنى وانظف ثيابى – اصدر العم ساندرو انذار الولاء هذا بكل حزم .

– انت على حق – وافقه مدير الميليشيا والتفت الى معاونه قائلا :

– ساعده .

وساعدوه . غسل العم ساندرو شعره فى مغسل مدير الميليشيا نفسه وكان معاونه يصب الماء الساخن على رأسه . وفى تلك الاثناء استدعى من مركز الناحية افضل حلاق يمتهن حلاقة ذقون وشعور الاحياء من الرؤساء والموتى من الوجهاء فى منازلهم .

بعد ساعة مثل العم ساندرو فى قفطانه وجزمته اللماعة امام نسطور لاكوبا وكله احترام وتحفظ .

فى تلك الاثناء كان نسطور لاكوبا يتناول طعام الغداء مع اصدقائه واشياعه فى القاعة الوحيدة للمطعم الوحيد فى مركز الناحية الذى لم يكن كبيرا آنذاك . ويقال ان مظهر العم ساندرو اعجبه كثيرا ، فقال وهو يتطلع اليه :

– ابخازى حقيقى وهو كالصقر حتى فى السجن .
– وخصوصا اذا سجن بغير حق – اضاف العم ساندرو .
تطلع نسطور لاكوبا الى مدير الميليشيا مستفهما ، فانحنى عليه ذاك بسرعة وهمس فى اذنه .
– الجريدة . . . الجريدة . . . – لم يسمع العم ساندرو سوى هذه الكلمة . لكنه فهم ، من تعابير وجه نسطور لاكوبا وايماءات رأسه التى تدل على جميل العطف ، انهم لن يسيئوا اليه .
– اعتقد – قال نسطور وهو يبعد رأسه عن مدير الميليشيا ويتطلع الى العم ساندرو – اننا سنساعدك اذا اخبرتنا من اين لك تلك الجمال ؟
– اى جمال ؟ – سأل العم ساندرو وهو يحاول ان يفهم عم يدور الكلام .
عبس لاكوبا . فقد بدأت هذه الحكاية تزعجه .
– جاء فى القائمة ان اباك سلم الى الكولخوز خمسمائة رأس من المعز وخمس ابقار واربعة جمال .
– اربعة بغال – تذكر العم ساندرو فرحا – كانت عندنا خمسة بغال . . . ترك والدى واحدا منها لانه تعود على ركوبه .
– فلماذا سجلوا اربعة جمال ؟ – سأل نسطور مندهشا .
– من المحتمل ان الشاب الذى سجل الماشية لم يكن يعرف كلمة «البغل» بالروسية فسجل بدلها جمالا – قال العم ساندرو .
– آ . . . – ندت عن نسطور لاكوبا – بلغ رئيس كولخوزكم انه نفسه بغل ، اما الآن فاجلس معنا وتناول الطعام .
– سابلغه من كل بد – وافق العم ساندرو فرحا واضاف على اية حال – كان الاحرى به ان يتأكد من القوائم والسجلات بدلا من القاء العظام .
لكن نسطور لاكوبا لم ينتبه الى هذه الملاحظة ، وربما لم تبلغ مسامعه ، او ربما مل من مشاكل «شيغيم» فتظاهر بعدم السماع مستفيدا من ضعف سمعه .
فى تلك الامسية افرطوا فى الشراب وانشدوا الكثير من الاغانى الشعبية واناشيد الانصار ، وعندما بدأوا يرقصون تقرر مصير العم ساندرو نهائيا ، فقد دعوه للرقص .
رقص العم ساندرو باروع ما يستطيع تكريما للسلطة السوفييتية العزيزة وللرفيق نسطور لاكوبا وسائر الضيوف المحترمين .

– يجب ان يتمتع الشعب كله ، ولسنا وحدنا ، بهذه الموهبة – قال نسطور لاكوبا وامر العم ساندرو ان يذهب الى منزله لياخذ قسطا من الراحة ثم يرتحل الى موخوس ويأتى اليه راسا هناك . ووعده بتعيينه فى جوقة الرقص والغناء الابخازية .
فى اليوم التالى امتطى العم ساندرو ظهر جواده الذى قتله الملل ، وتوجه الى مبنى مديرية الميليشيا وطرق النافذة على المدير بالسوط . خرج المدير على عجل الى الشرفة ، وكان فيها عدد من رجال الميليشيا ، وطلب من العم ساندرو ان يترجل . فقال هذا الاخير :
– شكرا ، جئت لآخذ الخرج .
– اعطوه اياه – امر مدير الميليشيا بصوت جهورى واضاف مخاطبا ساندرو : – كنت عموما ضد اعتقالك .
– وانا ايضا – وافقه العم ساندرو بتحفظ .
احضر احد رجال الميليشيا الخرج واراد ان يسلمه لصاحبه الا ان المدير اوقفه :
– شدّ الخرج بنفسك على السرج – امره المدير واضاف مخاطبا العم ساندرو – اعذرنى لانى اعيده اليك خاليا .
– لا يهم – قال العم ساندرو – لست ضيفا عليك .
العادات المتبعة فى ابخازيا ترى ان من اللائق اعادة الوعاء او السلة او الكيس الى صاحبها وفيها شىء ما ، واذا انعدم ما يصلح لهذا الغرض فلا بد من الاعتذار . ويمكن ان تنعت هذه العادة بالامتنان على السلة او الاعتذار عن خلوها ، وهى متبعة بين الجيران ، ولذا فقد بالغ مدير الميليشيا بهذا الخصوص ليبدو بمظهر لائق .
– وماذا فعلتم بالعظام ؟ – استفسر منه العم ساندرو وهو يلكز حصانه .
– محفوظة فى الخزانة غير القابلة للاشتعال – اجاب مدير الميليشيا .
– من حسن حظها انها هناك – وافقه العم ساندرو – والا فلن تتحمل حريقا آخر .
لكز حصانه فاندفع به فى خبب خفيف نحو «شيغيم» . بعد اسبوع ارتحل العم ساندرو الى موخوس والتحق بجوقة الرقص والغناء الابخازية التى يديرها بلاتون بانتسولايا ، كما حصل ، اضافة الى وظيفته ، على منصب قومندان فى اللجنة التنفيذية المركزية المحلية . فان نسطور لاكوبا يجيد رعاية الموهوبين الذين يزينون واجهة جمهوريتنا الصغيرة .

* * *

واليكم ما حدث فى «شيغيم» فى ذاك الخريف . ذات يوم عثر خابوغ فى الغابة على شجرة كستناء اتخذها النحل البرى بمثابة قفير له . ففرح الشيخ بالعسل المجانى وصمم ان يأخذه الى منزله ، ولم يكن عنده وعاء لهذا الغرض . وما كان راغبا فى العودة الى المنزل لاحضار وعاء ، فتذكر ان شجرة الفداء اقرب بكثير ، وفى جوفها القدر النحاسى ، ولن يغضب رب الحيوان عليه ان هو استخدمه .

وحينما صعد الشيخ الدرب الى شجرة الفداء واخرج القدر من جوفها كان يتذكر شيئا ، على حد تعبيره ، لكنه لا يدرى ما هو على وجه التحديد . هبط الى النبع واخذ يغسل باطن القدر ، وعندما فرغ من ذلك خيل اليه اكثر انه يجب ان يتذكر شيئا ، لكنه لا يزال عاجزا عن فهمه بالضبط . وفكر بأنه لو صقل القدر بالرمل لربما تذكر بمزيد من الوضوح ما يريد ان يتذكره ، لكنه مل من صقل القدر ، فأراق الماء الذى فيه وعاد الى شجرة العسل . اشعل موقدا فى اسفل الشجرة والقى مزيدا من الحطب الرطب فى النار ليزداد الدخان كثافة وشد القدر والفأس على الحزام وتسلق شجرة الكستناء .

وعندما عمل ثقبا فى الشجرة واخذ يقتلع بالسكين طبقات العسل الطازج الرقيقة ، بينما طرد الدخان النحل من بيوته فراح يحوم حوله بطنين مسعور ، تذكر ان والد كونتا الذى اختفى فى ظروف غامضة قبل عشرين عاما قد ضاعت آثاره فى صيف نعته اهالى «شيغيم» بعام الحرب بين النحل البرى والنسور . ففى ذلك الصيف رأى الاهالى كيف حاربت اسراب النحل التى عششت فى اعلى شجرة الفداء نسورا هاجمت الشجرة بصورة مباغتة .

سقطت عدة نسور قتلى جنب الشجرة ، لكن النحل لم يتحمل فترك جوف الشجرة الى الابد . ومن ذلك الحين اخذ الرعاة يشعلون النار داخل الجوف اذا داهمهم هنا طقس بارد شديد الرياح ، فيتناولون عشاءهم وينبشون الجمر ثم يدسون اقدامهم فى الرماد الدافئ ويغنون .

والآن لم يعد يخامره شك بأن والد كونتا حاول ان يبلغ العسل من خلال الشرخ السفلى لجوف الشجرة ، فلسعه النحل ، على ما يبدو ، حتى قضى نحبه ، وظل هناك الى الابد . وليس بين اهالى «شيغيم» ، فى رأى خابوغ ، احد غير والد كونتا يتطاول على قدسية شجرة الفداء ، فهو

غريب عليهم وليس من صلبهم . ولهذا السبب اختفى دون اثر لانه لم يخبر احدا من اهله بنواياه الاجرامية .

وبعد سنين عديدة تزعزعت عظامه عندما اخذ ساندرو يضرب الشجرة بالمدق ، ولما سخنها اعضاء الكمسمول بنيرانهم الخسيسة تناثرت وهوت كالجوز الناشف .

فى ذلك اليوم ، قبيل المساء ، عرض الشيخ خابوغ على كونتا تصوراته . وهو جالس فى مطبخ منزله يدفئ على نار الموقد يديه الكبيرتين اللتين اشبعهما النحل لسعا . استمع كونتا الى حديثه بنفس الرضوخ الذى تعود عليه ، وهو يتطلع من حين لآخر الى القدر النحاسى المتواجد جنب الموقد وقد غسلته زوجة خابوغ وصقلته . وكانت هى ايضا جالسة فى المطبخ تفرك عرانيس الذرة الصفراء على اذيال ثوبها ثم تنثرها فى الطست كلما ضاقت بها اذيال الثوب .

– لو كنت اعرف فى ذلك اليوم انها عظام والدى لحملتها الى البيت – تنهد كونتا بعد ان استمع الى حديث الشيخ خابوغ .

– طبعا – اومأ الشيخ الى القدر – كان بوسعك ان تضعها فيه وتحملها الى البيت . . . ويبقى ساندرو عندنا بدلا من كسب لقمة العيش بالرقص مثل الغجر .

– وما شأن ساندرو ؟ – سأل كونتا ، فلم يفهم تفكيرات خابوغ .

– بسبب هذه العظام اعتقلوه ، وهناك قابل لاكوبا فأغواه الى المدينة .

– صحيح – اومأ كونتا برأسه دليلا على الموافقة .

تنهدت زوجة خابوغ من شدة حنينها الى ابنها . وخيم سكون لا يعكره سوى هسيس حبات الذرة وبقبقة حساء الفاصوليا فى الوعاء الخزفى على النار .

وقال كونتا وهو يحدق فى اللهيب :

– يدهشنى جدا ان عظام ابى ظلت معلقة عشرين عاما فى هذا الجوف اللعين. . .

– وما الذى يدهشك ؟ – قال خابوغ بشىء من السخرية .

– كنت امر جنب الشجرة كل يوم تقريبا . . . فهل كان صعبا على ربها ان يعطينى بينة او يلمح لى ؟ . .

– دنستم الشجرة وتريد من ربها ان يعطيك بينة ؟

– صحيح – وافقه كونتا – واذا لم تكن عظام ابى ؟

– عظامه – قال خابوغ بثقة واوما الى القدر – القدر قدركم ؟

– نعم – وافقه كونتا على عجل .

– ربما ظلت بقايا الثياب معلقة فى اعلى جوف الشجرة – افترض خابوغ ثم فند هذا الافتراض بعد تفكير قصير – كلا ، احتمـــال غير وارد . . . فالطيور يمكن ان تستلها . . .

– مر على ذلك وقت طويل – تنهد كونتا . وساد الصمت من جديد . نثرت زوجة الشيخ حبات الذرة من اذيال ثوبها على الطست فتناهى منه رنين خفيف . نهضت ونفضت ثوبها واخذت حزمة من العرانيس المعروقة ودستها فى الموقد . وحركت حساء الفاصوليا بملعقة خشبية واخرجت الملعقة ونفخت عليها ولعقتها ثم وضعتها فوق الوعاء الخزفى وجلست فى مقعدها .

– لو كان فى ثيابه شىء حديدى ، كالازرار والابزيمات وسواها ، لامكن البحث عنها فى الرماد . . . – قال خابوغ .

– الرماد هناك طبقة سميكة – هز كونتا كتفيه وتطلع الى الشيخ بعينين ضعيفتين باهتتين .

كفت زوجة خابوغ عن فرك العرانيس . وقالت :

– يمكن نخل الرماد بالغربال .

– صحيح – وافقها زوجها – ولكن فى البداية اذهب الى كينفورسك وخذ منهم العظام . يجب ان ندفن الرفات ، عيب علينا امام الناس .

– تقول انها عند الميليشيا ؟ – استفسر كونتا .

– نعم ، فى الخزانة غير القابلة للاشتعال اذا صدقنا بقول ابنى العاطل .

– من يسمعك قد يتصور ان الكل عاطلـــون ما عداك – تدخلت الزوجة وفركت العرانيس بزعل فامتلأت راحتها بحفنة كبيرة .

لم يلتفت خابوغ الى ما قالت .

– وهل يعطوننى اياها ؟ – سأل كونتا بأمل .

– باعتقادى : نعم – قال خابوغ واضاف : – خذ معك على اية حال زوجا من الدجاج الرومى وكيسا من الجوز . ولكن لا تسلمها راسا . فهم لا يحبون التسليم راسا . اطلب من اقربائنا ان يوصلوها .

– طيب – قال كونتا ونهض – هل آخذ القدر الآن ؟

– طبعا ، خذه – اجاب خابوغ ونهض هو ايضا .

– تمهل – قالت زوجته ورمت العرناس ونثرت حبات الذرة فى الطست برنين .

وضعت له فى القدر عدة كسر من طبقات العسل الطازج (كيلا تسلم القدر خاليا وتضطر الى الاعتذار) .

– هل من موجب ؟ – مانع كونتا .

– نعم ، ربما هذا عسل احفاد النحل الذى لسع اباك . . . – اطلق خابوغ نكتة بايخة .

– ربما ، كل شىء ممكن – قال كونتا ورفع القدر ومضى يعرج عبر الحوش .

وقف خابوغ على العتبة وشيعه بنظراته امدا طويلا .

– يقولون ان السلطة كلها الآن بيده – اوما الشيخ صوب كونتا الذاهب – كلام لا يصدق . . .

– بيد من السلطة كلها ؟ – اشاحت زوجة خابوغ بوجهها عن النار بعد ان ازاحت الجمر وقربته من وعاء الحساء .

– اقصد كونتا – قال الشيخ وكان لا يزال يشيع الرجل بنظراته واقفا على عتبة الباب .

– ظل المسكين ، بحدبته ، على حاله مثلما كان – تنهدت المرأة وجلست تفرك العرانيس من جديد ، وكان خابوغ لا يزال واقفـــا على العتبة ، واضافت : – بدلا من صرف الوقت هنا الافضل لو اخذت بغلك وذهبت لزيارة ابننا . . .

– افليست لى اشغال سوى زيارة زاقصك ؟ – قال خابوغ واضاف :

– سأذهب الى الطاحونة . اعدى الطعام . . .

– كان المفروض ان يذهب كونتا الى الطاحونة ، اما انت فالاجدر بك ان تزور ابننا – كررت الزوجة ، ولكن بلهجة خالية من الثقة والاصرار هذه المرة . ونهضت وانزلت المائدة الصغيرة المثبتة من قوائمها الى عارضة الجمالون .

– يستطيع كونتا الآن ان يبعث ايا كان الى الطاحونـــة ، فهـــو السيد – قال خابوغ ساخرا وجلس الى المائدة .

* * *

والحال فلو استمع خابوغ العجوز لنصيحة زوجته وامسك بغلـــه وامتطاه وزار ابنه لتمكن ان يدلى بدلوه فى بداية الجدال الطويـــل

العريض الذى اثير على صفحات جريدة «المنطقة شبه الاستوائية الحمراء» بصدد عظام الميت المجهول التى عثر عليها فى جوف شجرة الفداء .

المقالة الاولى التى صادفتها ، وانا اتصفح اعداد الجريدة لتلك السنين ، بعنوان «نهاية شجرة الفداء» . وجاء فيها ان شبيبة قرية «شيغيم» احرقت شجرة الفداء بمرح وسط صخب الاغانى (كما كتبت الجريدة) . والآن لا يتوقف الرعاة الصاعدون مع قطعان الكولخوز الى المراعى الجبلية عند هذه الشجرة لينحروا كبش الفداء ويقيموا الولائم وفقا للتقاليد الوثنية ، بل يسيرون قاصدين مواقفهم الصيفية . وورد فى آخر المقالة ان لهذه الشجرة جوفا فريدا يمتد حتى قمتها وله عدة منافذ . عرض الجوف فى اسفل الشجرة يتسع لفارسين يدخلانه على ظهر جواديهما ويخرجان منه دون ان يعيق احدهما الآخر . (وبالمناسبة فقد لاحظت فى كل مكان ، عندما يدور الكلام عن الاجواف النادرة ، اشارة الى ان الفارس ، الواحد على الاقل ، يستطيع ان يدخل الجوف دون ان يترجل . ويخيل للقارئ ان اعز امنية لكل فارس ، ابتداء من دون كيشوت ، ان يعثر على جوف شجرة يدخله دون ان يترجل ويقف هناك برهة ، وربما يقضى حاجته من على ظهر الحصان ، ثم يخرج) .

وفى ختام المقالة ثمة اشارة عابرة الى هيكل عظمى من عهد ما قبل الثورة عثر عليه فى جوف الشجرة . (وافترض ان هذه العبارة تتحدى خفية المقالة التى نشرتها جريدة «تراب كينغورسك» واوصت فيها هيئات التحقيق والتحرى فى ناحية كينغورسك بالا تتعرض للعم ساندرو) .

واليكم العبارة الاخيرة من المقالة : «يبدو اننا لن نعرف ابدا لاى حارث مسكين او راع مظلوم يعود هذا الهيكل العظمى ، ولكننا واثقون من ان تلك جريمة اخرى اقترفها الاقطاعيون المحليون فيما قبل الثورة» .

بعد حين من الوقت ، ربما لا اكثر من اسبوع ، نشرت «المنطقة الحمراء» مقالة لعالم من موسكو مختص بالدراسات الاثنوغرافية ، وكان فى تلك الفترة على راس بعثة اثرية فى ابخازيا بالذات . اجرى حفريات فى قرية ايشيرى على بعد عشرين كيلومترا عن موخوس . ونشرت الجريدة مقالته تحت عنوان محايد فاتر ، كما خيل الى ، هو «رأى عالم اثرى» .

وقد طرح فرضية تقول ان ذاك الهيكل العظمى ربما لم يكن نتيجة لجريمة قتل ، بل واحدة من اكثر عادات القدامى طرافة فى الدفن الجوى للموتى والذى تحدث عنه ببالغ الاهتمام الشاعر اليونانى ابولونيوس

الرودى فى القرن الثانى قبل الميلاد . ويستفاد من هذا الرأى ان اسلاف الابخازيين يعتبرون دفن الرجال فى الارض تدنيسا للقدسيات ، فكانوا ، والعهدة على القائل ، يلفون الرجل الميت فى جلد ثور ويرفعونه الى اعلى الشجرة بواسطة اغصان الكرم ، ولا يفعلون ذلك بالنساء ، حيث يوارونهن التراب .

ويبدو ان جماعة قديمة من اسلاف الابخازيين الحاليين كانت تقيم فى منطقة «شيغيم» ، ومن اللازم اجراء دراسة دقيقة لاقدم الاشجار المعمرة فى هذه الاماكن .

ومن الغريب ان هذه المقالة قوبلت برد غاضب على صفحات الجريدة المذكورة . وجاء الرد على مقالة العالم الاثرى الشهير بعنوان «حفار القبور المتعلم» .

عندما عثرت على هذا الرد فى نسخ الجريدة المصفرة بفعل الزمن احسست ان عينى اغرورقتا بدموع الاعجاب اذ لاحظت فيه ، وان كان لنفسى فقط ، منابع الاسلوب الذى ترسخ كثيرا فى السنوات اللاحقة .

فقد بدا كاتب الرد قائلا ان افتراض العالم الاثرى محاولة خرقاء ، وغريبة على اية حال ، لحماية القاتل الذى اقترف جريمته قبل الثورة . وبعد ذلك غرز الكاتب ريشته بحدة فى جثمان ابولونيوس الرودى نفسه وفى بدن صاحبنا العالم الاثرى الذى وقع فى اسره .

وعندما قرات العبارة الاخيرة بخصوص الاسر اعجبت بالكاتب من جديد وفكرت بأن العلماء وسائر الشخصيات الاجتماعية ، على ما يبدو ، صاروا يقعون فى الاسر من ذلك الحين .

واتذكر ان هذه العبارة كانت سائرة فى سنى الدراسة المبكرة ، وكنت اتصور بوضوح ، كوضوح اللوحات ، هؤلاء العلماء الذين وقعوا فى اسر البرجوازيين . واتخيلهم رجالا ملتحين بأيد مشدودة وراء الظهور يجرجرون اقدامهم باكتئاب ماضين ، تحت الحراسة ، صوب المعسكر البرجوازى . لكننى لم افهم آنذاك لم لا يقوم الانصار بغارة مباغتة لتخليصهم من الحراس واعادتهم الى معسكرنا بدلا من التهجم عليهم .

باختصار فقد رفضت هذه المقالة كتابات ابولونيوس الرودى ودافعت عن تقاليد دفن الموتى المتبعة عند الابخازيين والعديد من الشعوب الاخرى . واكدت خصوصا على رفض الافتراض الاعتباطى القائل بأن جثث الرجال كانت ترفع على الاشجار بينما يهال التراب على جثث النساء بشكل مهين .

وقال الكاتب ان الابخازيين يتميزون دوما بالموقف الفروسى النبيل ازاء النساء ، وخصوصا الآن ، فى ظل السلطة السوفييتية ، حيث يعمل الرجال والنساء جنبا الى جنب ، وعلى قدم المساواة ، فى مشاريع البناء وفى حقول الكولخوزات .

واختتم الرد بعبارة حماسية غير متوقعة بعض الشىء : «طالما نسطور ابولونوفيتش لاكوبا على قيد الحياة لن يتمكن ابولونيوس الرودى ولا غيره من الافتراء على تقاليدنا الشعبية» . كانت تلك هى العبارة الاخيرة فى رد الصحفى الشاب آنذاك الذى ذيل مقالاته باسم مستعار هو ليفان غولبا .

وبالمناسبة فعندما قتل نسطور لاكوبا صار الصحفى الشاب يذيل مقالاته باسم ليفان غولبيدزه ، واحيانا باسم ليفان غولبيا ، وذلك بخاصة عندما صار ممثلو المنغريليين * الكتلة الاقوى فى حكومة جورجيا . الا ان هذا الصحفى ، والحق يقال ، كان يبدل اللقب فقط فى اسمه المستعار الاول .

ولا غرابة فى كون هذا الرجل الذى غير اسمه المستعار مرارا وتكرارا قد غدا فى عام ١٩٤٨ ** من اكبر المختصين فى فك رموز الاسماء المستعارة للآخرين . صحيح انه كتب فى عام ١٩٥٣ مقالة بعنوان «جبليو القوقاس المزيفون» واخفق اشد اخفاق . فقد تم تنضيد المقالة لكنها لم تصدر ، اذ توفى فى تلك الاثناء «والد جميع الشعوب» ، ما عدا المنفيين الى سيبيريا وكازاخستان . وصار الصحفى المذكور من المغضوب عليهم حتى انه اضطر ، لبعض الوقت ، الى العمل فى التعاونيات الصناعية . اما الآن فقد اعيد الى الصحافة ويعمل حتى هذه اللحظة باسمه المستعار الاول .

وبالمناسبة فلنعد الى عهود اسمه المستعار الاول . يجدر بنا ان نعترف بحق العلماء الابخازيين الشباب آنذاك ، فقد ردوا على تلك المقالة المنمقة . وهكذا نرى ان العقل السليم كان حتى فى تلك العهود يشق طريقه الى دنيا الله بين حين وآخر . فان احد علمائنا ، ولا اتذكر اسمه الآن ، كتب فى «المنطقة الحمراء» نفسها ان العالم الاثرى القادم من

* طائفة سلالية من الجورجيين . — **الناشر** .

** المقصود المحاكمات السياسية المدبرة زورا والتى وقع ضحيتها الكثيرون من الابرياء . — **الناشر** .

موسكو ، ناهيك عن ابولونيوس الرودى ، الذى عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ما كانا ينويان الافتراء على عاداتنا الشعبية وواقعنا الراهن .

اما عادة الدفن الجوى عند الكولخيين ، اسلاف الابخازيين الحاليين ، فقد وردت الاشارة اليها بالفعل ليس فقط عند ابولونيوس الرودى بل وعند نيكولاس اليانى الذى كتب فيما بعد الميلاد «ان الكولخيين يدفنون الموتى فى جلود يخيطونها عليهم ويعلقونها على الاشجار» (لا ارى ضيرا فى كون العالم الشاب يتبجح قليلا بسعة معارفه حتى من خلال ترجمتى . ففيما بعد صار العلماء يتبجحون بجهلهم حتى اقتربوا فى ذلك من طبيعتهم الى حد مريب) .

ومما يميز كل هذه المراجع وغيرها ، كما يقول العالم الشاب ، انها تشير صراحة الى ان المقصود هو الدفن الجوى للرجال وليس النساء . ولذا فلا وجود للافتراء بهذا الخصوص ، بل تلك حقيقة علمية مريرة .

ولكن تاكيدات المراجع اليونانية وغيرها من جهة اخرى ، كما يضيف العالم الشاب ، لم تعزز باية ادلة ثبوتية لا اثنوغرافية ولا اثرية ، ما عدا حادثة «شيغيم» المريبة للغاية .

وعلى اية حال ، فان الحفريات التى تجريها البعثة الموسكوبية فى منطقة قرية ايشيرى والتى تنتظر منها الاوساط العلمية عندنا الكثير لا تمت باية صلة للقضية المذكورة اعلاه ، كما اضاف العالم الشاب على غير المتوقع فى ختام مقالته .

فما شان الحفريات هنا ؟ مقالة ليفان غولبا لا تشير الى الحفريات اطلاقا . ولا يبقى لنا سوى الافتراض بأن محاولات ادارية جرت ، بعد نشر تلك المقالة ، لوقف تلك الحفريات .

ومما يؤسف له ان الاستفسار عن ذلك من مؤرخنا النحرير لم يكن بالامر اليسير . فهو الآن يقيم فى موسكو ويعمل فى معهد التاريخ ولا ياتى الينا الا مع البعثات الاثرية .

وفى آخر المطاف تمكنت خلال احدى سفراتى الى موسكو ان التقى به فى معهده . استقبلنى بما جبل عليه الابخازيون من بشاشة وترحاب ، وتجاذبنا اطراف الحديث فى مكتبه زهاء نصف ساعة ، ورايت ان من المناسب ان أسأله عن مقالته القديمة تلك .

— اجل — اوضح قائلا — تمكنا آنذاك من الدفاع عن ضرورة الحفريات . . . فهل تنوى الكتابة عنها ؟

سال وانسحبت على محياه فى الحال مسحة حزينة . فقلت :

– كلا . فلماذا تسأل ؟

– لا موجب للكتابة – نصحنى وتطلع الى التلفون بنظرة مستفهمة قلقة – تلك هى بالطبع انحرافات الماضى البعيد . . .

خيل الى انه قال عبارته الاخيرة ليس من اجلى ، بل من اجل التلفون . وعندما تلقف نظرتى ، او على الاصح عندما فهم من نظرتي بانى فهمت مغزى النظرة التى القاها على التلفون قرر الا يخفى مخاوفه فاومأ بيده الى التلفون ثم رسم اشارة نفى عززها بمسحـــة من التقزز والاشمئزاز انطبعت على وجهه . ولم تترك تلك الاشارة اثرا للريبة فى انه لا يثق اطلاقا بالتلفون ، بل راحت تغويني بأن اشاطره انطلاقـــا من المودة البعيدة المقاصد .

– هل يعقل ان مثل هذا يحصل عندكم ايضا ؟ – سألته مشيرا الى التلفون .

نشر يديه ولسان حاله يقول ان جوا من الغموض الثقيل يخيم على هذه المسألة .

– وعلى العموم ، هل هناك اخبار ؟ – سألته وشعرت بأن التلفون يحتويني ويجتذبني الى ميدان اهتماماته . فقد حصل تلقائيا اننى رغبت ان العب مع «الاصم العظيم» .

– كيف لى ان اقول ؟ – مطط الرجل كلامه لا على التعيين وتطلع الى التلفون من جديد . فقلت :

– عاد ليفان الى الجريدة .

– ليس فى ذلك ما يبشر بخير – قال وانتعش على نحو ما . وخيل الى ان هذا الخبر المقتضب الدقيق قد حرك فى الحال ماكنـــة التخمين التاريخى الجيدة التنظيم بعد ان كانت راكدة صامتة لغياب الوقائع .

انطبع على وجهه تعبير الهياج وفتل بكلتا يديه شاربين لا وجود لهما . ثم اشار بكلتا اليدين الى الاعلى وكأنما يريد ان يخبر عامل الرافعة بامكان رفع الشحنة . وذكّرته قائلا :

– اعادوا ليفان الى الجريدة باسمه المستعار الاول .

– ليس فى ذلك ، على العموم ، ما يسيئ – قال ولاذ بالصمت . وخيل الى ان الماكنة اصدرت تخمينا عكسيا وتوقفت عند الموضع الذى انطلقت منه فى البداية .

– دعك من النكات – قلت عائدا الى مقالته – ما يهمك من مقالة

كتبت قبل ثلاثين عاما ؟ انت بروفسور ، ثم انك تقيم فى موسكو ، فماذا يهمك ؟

– والحفريات ؟ – اعترض قائلا – نحن نستعد لبعثة هامة للغاية فى منطقة سيبيلدا ، ولا اسهل من احباطها راسا . . . صحيح ان شابا غريب الاطوار يمكن ان يدافع عنى ، ولكن . . .

ضحكنا وافترقنا متأثرين بعض الشئ لنزعتنا اللبرالية .

وهنا اراف بنفسى واقطع حكاية شجرة الفداء ، لاستجمع الشجاعة وهدوء البال فاعود اليها فيما بعد . . .

ولائم الكبار

عاش العم ساندرو حياة سارة بعد ان اخذه نسطور لاكوبا الى المدينة وعينه قومندانا للجنة التنفيذية المركزية ونسبه الى جوقة الرقص والغناء الابخازية المشهورة باشراف بلاتون بانتسولايا . فقد تقدم هناك بسرعة وغدا من افضل الراقصين القادرين على منافسة باتا باتارايا نفسه .

ثلاثون روبلا فى الشهر اجرة القومندان ، ومثلها لقاء العمل فى الجوقة ، وذلك مبلغ جيد فى مقاييس ذاك الزمان ، مبلغ جيد وحق الشيطان .

كان من وظائف العم ساندرو ، بوصفه قومندانا للجنة التنفيذية ، ان يتابع عمل الفنيين ويستلم بين الحين والآخر طرودا بريدية من المانيا تحتوى على اجهزة سمعية لاجل نسطور لاكوبا ، كما يشرف على الكراج وعلى سيارة لاكوبا الخصوصية «البيوك» التى يسميها «بيك» تبسيطا للنطق الاجنبى .

بديهى ان «البيوك» تبقى تحت تصرف العم ساندرو عندما يرتحل لاكوبا الى موسكو او غيرها .

وفى تلك الايام يصادف ان يطلب الوزراء وغيرهم من كبار المسؤولين السيارة من العم ساندرو ليرتحلوا الى القرية لدفن اقربائهم او الاحتفال بعيد ميلاد او زفاف احد او ، على الاقل ، بمناسبة قدومهم شخصيا من مكان ما .

فالوصول الى قرية الاهل بسيارة لاكوبا الخصوصية التى يعرفها الجميع مدعاة لسرور مزدوج ، سرور سياسى وسرور بشرى عادى . فالكل يفهمون ان الرجل وصل فى سيارة نسطور لاكوبا ، وبالتالى فهو صاعد فى سلم المراتب ، وربما قربه نسطور لاكوبا نفسه ، بل ربما طبطب على كتفه او عانقه بود ودفعه الى داخل السيارة قائلا : اذهب ، يا شيخ ، حيثما تريد ولكن لا تتقيأ على المقعد فى طريق العودة .

وحصلت ، بالطبع ، مشاكل . ذات مرة توجه رفيق قيادى ، ليس من كبار المسؤولين ، فى تلك السيارة الى قريته . وهناك (عند المائدة) اجاب بمراوغة وتملص عن سؤال احدهم بخصوص «البيوك» قائلا : انه لم يتسلم منصب لاكوبا بعد ، فالجهات الاعلى تنظر فى هذه المسألة ، لكن الشىء الوحيد الذى يستطيع تأكيده انه استلم السيارة .

وما ان نهض من مائدة الوليمة حتى . . . والاصح انه ظل جالسا عند المائدة حتى وصل من القرية المجاورة ثلاثة من ابناء عمومة لاكوبا او الذين يحملون لقبا كلقبه . سحبوه بحذر ، كيلا ينزعج الآخرون ، من وراء المائدة وانهالوا عليه بضرب مبرح فى الباحة .

زد على ذلك انهم ربطوه الى صندوق العفش فى السيارة ليجتازوا به القرية على هذه الصورة . لكنهم لم يتمكنوا من اداء هذه المهمة لانهم عاجزون عن قيادة السيارة ، فى حين فر سائقها الى مزرعة الذرة .

وفى الحقيقة ما كان متوقعا ان يعاملوه بشكل آخر . فهو ، بهذره السخيف ، اهان نسطور لاكوبا وعشيرته كلها . وكان من اندر الامور آنذاك ان تترك اهانة العشيرة بلا عقاب .

بعد تلك الحادثة ظل الذين يتحلون باللياقة مندهشين امدا طويلا من هذا الرفيق الذى تجرأ على التطاول السافر لهذا الحد ، بل على التطاول فى كذب ورياء .

اما هو نفسه فقد ادعى بأن غشاوة نزلت على عقله بسبب السكر ، فى حين اقسم صاحب البيت الذى استضافه بكل الاجداد ان احدا لم ينهض من المائدة ، وليس معروفا حتى الآن من الذى اسرع الى القرية المجاورة بقصد الوشاية .

ومن حسن الحظ ان هذه الحادثة لم تبلغ مسامع نسطور لاكوبا ، والا لتعرض لغضبته ابناء عمومته الثلاثة او الذين يحملون لقبا كلقبه ، وكذلك العم ساندرو نفسه ، بالاضافة الى المتطاول المنحوس الذى كان سيتعرض للعقاب الشديد مرة اخرى .

طبيعى ان العم ساندرو تلقى ثوابا معينا على التصرف الطفيف «بالبيوك» . لا نقول انه حصل على خدمات سافرة ، كلا . ولكنها خدمات من قبيل توفير سرير فى مستشفى جيد لاحد الاقرباء واستلام وثيقة ضرورية بسرعة واعادة النظر فى دعوى قريب يتصور ان عهد القيصر نيكولاى لا يزال قائما فيسرق خيول الغير ، وبدلا من الانكار فى المحكمة

يعترف بصراحة ويتحدث عن ذلك بالتفصيل ويتطلع الى الجمهور بافتخار . . .

قدم العم ساندرو خدمات كثيرة لاقربائه فى ذلك العصر الذهبى ، ولكن بعضهم لم يقابلوا الاحسان بالاحسان ، وانكر الكثيرون منهم الجميل فيما بعد .

ذاع صيت جوقة الرقص والغناء الابخازية فى كافة ارجاء ما وراء القوقاس ، وفيما بعد اشتهرت الجوقة فى موسكو ، وقيل انها اقامت حفلاتها حتى فى لندن ، ولكن لا احد يعرف هل اشتهرت هناك ام لا .

وفى الحقبة التى نحن بصددها كانت الجوقة تستجمع مستلزمات الامجاد التى وفرها لها بالدرجة الاولى بلاتون بانتسولايا وباتا باتارايا والعم ساندرو . وفى الاعياد الثورية ، بعد الحفلات الخطابية ، كانت الجوقة تقدم برامجها الموسيقية على خشبة المسرح الجمهورى . وكانت بالاضافة الى ذلك تحيى حفلاتها فى الكونفرنسات الحزبية واجتماعات طليعيى الصناعة والزراعة ، ولم تتهاون فى القيام بجولات فى ارجاء الجمهورية ، كما قدمت خدماتها الفنية الى اكبر المصحات ودور الاستجمام فى السواحل القوقاسية .

بعد احياء الحفلات فى مناسبات ذات شأن كانوا يدعون افراد الجوقة الى ولائم رسمية يستمرون فيها على الرقص والغناء على مقربة معقولة من الموائد ومن الرفاق القياديين .

كان العم ساندرو ، كما اسلفت ، يكاد يضاهى باتا باتارايا افضل راقص فى الجوقة . وعلى اية حال كان الشخص الوحيد الذى اتقن رقصة باتارايا الشهيرة : ركضة سريعة من وراء الكواليس وركوع وانزلاق على الركبتين من بداية خشبة المسرح حتى نهايتها مع نشر اليدين فى حركة تحليقية .

اجل ، لقد اتقن هذه النقلة لدرجة جعلت الكثيرين يؤكدون انهم عاجزون عن التفريق بين هذا الراقص وذاك .

ذات مرة قال احد افراد الجوقة ، وهو الراقص والمغنى ماخاز ، او سحبنا القلنسوة على جبين مؤدى تلك الرقصة لتعذرت معرفة الذى ينزلق على المسرح ، هل هو باتا باتارايا الشهير ام هو النجم الجديد ساندرو الشيغيمى ؟

ولعل ماخاز ، وهو من ابناء ناحية العم ساندرو اراد ان يتزلف له

بعض الشىء ، لان التمييز بين الرجلين ممكن على اية حال ، وخصوصا اذا كان المتفرج محنكا ، لكن ذلك ليس هو الامر الرئيسى . الامر الرئيسى هو ان كلماته تلك التى جاءت بالصدفة قد اوحت للعم ساندرو بفكرة اجراء تحسين كبير على هذه الرقصة المعقدة اصلا .

فى اليوم التالى شرع العم ساندرو بتدريبات سرية . وقد استفاد من منصبه فراح يتدرب فى قاعة المؤتمرات التابعة للجنة التنفيذية المركزية بعد ان يغلق ابوابها كيلا تتلصص عليه الكناسة .

تدرب العم ساندرو ثلاثة شهور تقريبا ، حتى حل اليوم الذى عزم فيه على عرض تلك الرقصة . وهو نفسه يعتقد بأنها غير مشذبة وغير مصقولة بالكامل بعد ، الا ان الملابسات ارغمته على المجازفة ليلقى بورقته الرابحة السرية على خشبة المسرح .

فى اليوم السابق ارتحل عشرون من افضل افراد الجوقة الى مدينة غاغرى ، وكان مقررا ان تحيى الفرقة بهذا القوام حفلات فى واحد من اكبر المصايف حيث عقد فى تلك الايام اجتماع سكرتيرى لجان النواحى الحزبية فى جورجيا الغربية . ويقال ان ستالين نفسه عقد الاجتماع ، وكان آنذاك يستجم فى غاغرى .

ويبدو ان فكرة عقد اجتماع لسكرتيرى تلك اللجان خطرت على باله هنا ، اثناء الاستجمام . لكن العم ساندرو لم يفهم السبب فى اقتصار الاجتماع على سكرتيرى جورجيا الغربية وحدها .

لعل سكرتيرى لجان النواحى الحزبية فى جورجيا الشرقية اقترفوا جريرة ما ، او لعله اراد لهم ان يدركوا بأنهم لم يبلغوا بعد مستوى هذا الاجتماع الرفيع وان عليهم ان يعملوا فى المستقبل بشكل افضل حتى يتباروا مع سكرتيرى لجان النواحى الحزبية فى جورجيا الغربية .

هكذا فكر العم ساندرو ليشبع فضوله الذهنى ، مع ان ذلك فى الواقع لا يندرج ضمن واجباته بوصفه قومندانا للجنة التنفيذية المركزية ، ناهيك عن مشاركته فى جوقة الرقص والغناء .

سافر افضل افراد الجوقة ، وظل العم ساندرو . ففى تلك الفترة كانت ابنته مريضة جدا ، والجميع يعرفون ذلك . وقبيل رحيل تلك المجموعة طلب العم ساندرو من بانتسولايا ان يبقيه بسبب مرض ابنته . وكان واثقا من ان بانتسولايا سينزعج ويلح عليه بالرحيل مع المجموعة وعند ذاك سيوافق حزينا بعد شىء من التردد .

فهذا التصرف لائق مقبول بالنسبة للاقرباء ، وهو يعنى انه نفسه لم

يرغب فى الرقص ، لكنهم ارغموه ، زد على ذلك ان افراد الجوقة سيدركون مرة اخرى ان الرقص غير مستحيل بغياب ساندرو ، لكنه سيكون منقوصا دون ريب .

الا ان مدير الجوقة وافق راسا على طلب العم ساندرو ، فاسقط فى يد هذا الاخير ولم يبق امامه سوى الانصراف . وفى اليوم ذاته لفت مدير شؤون اللجنة التنفيذية نظره بشكل مهين :

– يخيل الى ان احدا يسرق الحطب منا – قال المدير وهو يشير الى كومة الاحطاب الضخمة المنشورة والمرصوفة فى باحة اللجنة من بداية الصيف .

– الاحطاب تنكمش – اجابه العم ساندرو بلامبالاة وهو يشعر بضجر من الوحدة الفنية التى ألمت به .

– لم اسمع يوما ان الاحطاب تنكمش – قال المدير فى تلميح صريح كما خيل الى العم ساندرو .

– الم تسمع بالغابات التى احترقت فى اطراف «شيغيم» ؟ – سأل العم ساندرو بمراوغة .

ذلك هو التهكم الشهير فى «شيغيم» والذى لا يستطيع اى كان ان يتكيف له .

– ما شأن «شيغيم» وغاباتها ؟ – سأل المدير .

– القضية انى احمل احطاب اللجنة التنفيذية الى هناك ، الى الجبال – اجاب العم ساندرو وابتعد عن المدير . ولم يبق على هذا الاخير الا ان ينشر يديه .

«اجتازوا ايشيرى ولا بد . لعلهم الآن يقتربون من آثون» – فكر العم ساندرو وهو يرتقى السلم فى مبنى اللجنة التنفيذية . خيل اليه ان هبة الريح الباردة التى لفحت وجهه هى نسمة النقمة . وفكر من جديد : «يبدو ان المدير يعرف ما لا اعرفه ، ولعل لاكوبا اشاح بوجهه عنى» ، وراح يقارن بين لهجة المدير المهينة وبين موافقة بلاتون بانتسولايا الاكثر اهانة .

ومما اثار الاسف والمرارة فى نفس العم ساندرو بخاصة ان الرفيق ستالين نفسه من المفروض ان يحضر تلك الوليمة . صحيح ان احدا لا يعرف ذلك على وجه التحديد ، بل ان احدا يجب الا يعرف به ، حتى ان الجهل المطبق بهذا الخصوص يغدو مبعث ارتياح .

فى اليوم التالى كان العم ساندرو جالسا جنب سرير ابنته يتطلع

بذهول الى زوجته وهى تبدل من حين لآخر المنشفة المبللة على راس الصغيرة .

اصيبت البنت بالتهاب الرئتين واشرف على علاجها احد افضل اطباء المدينة . وكان مرتابا فى احتمال الشفاء مع انه يعول ، كما قال ، على متانة طبيعتها الشيغيمية .

وكان فى نفس الغرفة اربعة من اهالى «شيغيم» ، من اقرباء العم ساندرو الابعدين ، وقد وضعوا ايديهم بحذر على المائدة . فى السنوات الاخيرة صاروا يترددون كثيرا على المدينة ، وتجدر الاشارة الى ان العم ساندرو قد مل منهم بعض الشىء .

صار اهالى «شيغيم» يجتازون فترة متسارعة من التطور التاريخى . وقد فعلوا ذلك بصورة عشائرية خرقاء نوعا ما . فمن جهة كانوا يبنون الاشتراكية ، اى يمارسون التسيير الكولخوزى ، فى قريتهم وفقا لسير التاريخ ولقرارات الهيئات الاعلى (وفى الحقيقة كان سير التاريخ نفسه آنذاك متوقفا على قرارات الهيئات الاعلى) . ومن جهة اخرى كانوا ينزلون الى المدينة للمتاجرة فيلتقون لاول مرة بالعلاقات البضاعية النقدية الراسمالية .

ولم يكن هذا الثقل المزدوج ليمر دون اثر . فالبعض منهم دهشوا لامكان استلام النقود مقابل محاصيل بسيطة كالذرة والفاصوليا والجبن ، فانساقوا وراء تطرف عكسى ورفعوا الاسعار لحد لا يصدق وظلوا عدة ايام واقفين بزهو وخيلاء جنب محاصيلهم التى لا يشتريها احد . وفى بعض الاحيان يستاء اهالى «شيغيم» من استهانة المشترين فيعودون بمحاصيلهم الى القرية قائلين : «لا باس ، سنأكلها بانفسنا» . وبالمناسبة فقد تقلص عدد هؤلاء المتكبرين ، لان استبداد السوق اقوى منهم .

الشىء الوحيد الذى لم يتعود عليه اهالى «شيغيم» هو انعدام المواقد فى منازل المدينة . فالمنزل الخالى من اللهيب المشتعل يبدو لاهالى «شيغيم» بمثابة الدائرة او المكتب غير الماهول . وكان من الصعب تجاذب اطراف الحديث فى مثل هذا المنزل لان المتحدث لا يدرى الى اين يوجه انظاره . فقد تعود اهالى «شيغيم» على التطلع الى النار اثناء الحديث او على الاحساس بوجودها من خلال اصابع اليدين المنشورتين ، فى اسوأ الاحوال ، اذا كانوا مضطرين الى التطلع فى وجوه محدثيهم .

ولذا كان الاربعة من اهالى «شيغيم» جالسين صامتين وقد وضعوا ايديهم بحذر على المائدة ، مما اثار انفعال العم ساندرو فوق كل انفعالاته .

«اليوم ربما يرقص رفاقنا امام ستالين نفسه ، بينما انا مضطر للجلوس هنا والاستماع الى صمت اهالى «شيغيم» – فكر العم ساندرو . وكان قد علم بأن البعض فى السوق نصحوهم بالاقامة فى فندق الكولخوزيين ، لكنهم رفضوا هذه النصيحة باشمئزاز متحججين بأن العم ساندرو يقيم فى المدينة ويمكن ان يزعل عليهم بوصفه من «الاقربا» . وليس من الجائز القول طبعا ان التمسك باواصر القربى على هذا النحو يشغل بال العم ساندرو .

– الحمد لله الذى جعل قريبنا ساندرو يحتل مكانه بين المراقبين – قال احد الرجال الاربعة وهو يجد صعوبة فى التعود على غياب النار المشتعلة عن المنزل .

– السلطات تقيّم الآن الركب الحديدية اكثر مما فى اى زمان – اوضح الرجل الثانى ، بعد تأمل طويل ، سبب نجاح العم ساندرو .

– اتذكر ان الامير تترخان كان كذلك يقدر الراقصين الممتازين – اورد الثالث تشبيها من بطون التاريخ .

– ولكن ليس بهذا القدر – اضاف الرابع بعد صمت طويل . كان يفكر ويطيل التفكير رغبة فى قول متفرد اصيل ، وعندما عجز عن العثور على ما اراد صحح ما قاله زميله بقول آخر .

الرجال الاربعة قليلو الكلام ، والزوجة جالسة جنب ابنتها المريضة تنشن عليها بمروحة كبيرة ، وذبابة تطن ناطحة الزجاج ، والعم ساندرو صابر يتحمل .

وفجاة فتح الباب على مصراعيه ودخل مدير شؤون اللجنة التنفيذية . نهض العم ساندرو على عجل واحس بأن محرك الزمن المتوقف قد اشتغل من جديد . فقد حدث شىء ما ، والا لما جاء المدير الى هنا .

حيا المدير الجميع واقترب من سرير البنت المريضة وعبر عن شعور المشاطرة ببضع كلمات قبل ان يدخل فى صلب الموضوع . استمع اليه العم ساندرو شارد الذهن ، وهو ينتظر شيئا اخر من الجمر ما سيقوله عن سبب مجيئه .

– انا لله وانا اليه راجعون – اجاب العم ساندرو على كلمات المشاطرة ، وجاء هذا القول الاسلامى المأثور فى غير محله .

– ما كان فى نيتى ان اقلقك – قال المدير وتنهد واخرج من جيبه وريقة – هذه برقية لك .

– ممن ؟ ! – تلقف ساندرو الورقة المطوية .

– من لاكوبا – قال المدير بدهشة واحترام .

«تعال اذا كنت تستطيع نسطور» – قرأ العم ساندرو الحروف الذائبة فى السعادة .

– «اذا كنت تستطيع» ؟ ! – هتف العم ساندرو وطبع قبلة صائتة على البرقية – هل هناك عمل يمكن ان امتنع عن ادائه من اجل نسطور ؟ ! اين «البيك» ؟ – خاطب المدير بلهجة جاءت سليطة .

– تنتظر فى الشارع – اجاب المدير – لا تنس ان تأخذ هويتك ، فهم متشددون جدا هناك بهذا الخصوص .

– اعرف ذلك – اوما العم ساندرو وقال لزوجته بجفاف : – اعدى القفطان .

بعد زهاء عشرين دقيقة التفت العم ساندرو ، وهو يحمل حقيبته الفنية فى الباب ، الى الباقين وقال بثقة الانبياء :

– اقسم بنسطور ان البنت ستشفى .

– من اين تعلم ؟ – انتعش رجال «شيغيم» ، بينما لاذت الزوجة بالصمت والقت على زوجها نظرة احتقار وظلت تنش على الطفلة .

– قلبى دليلى – قال العم ساندرو واغلق الباب .

– لا يسمحون لاى كان ان يقسم باسم نسطور – سمع العم ساندرو احدا يقول من وراء الباب .

– الذين يقسمون باسمه يعدون على اصابع اليد – اضاف رجل آخر من الاقارب ، لكن ساندرو هرول الى السيارة فلم يسمع هذا القول .

وبالمناسبة ، نستبق الاحداث فنقول ان تنبؤ العم ساندرو الذى لا يستند الى اى اساس ، سوى الخجل من الرحيل المستعجل ، قد تحقق . ففى الصباح التالى طلبت البنت طعاما لاول مرة طول فترة المرض .

. . . بعد ثلاث ساعات من السرعة الهائلة توقفت «البيوك» امام بوابة مصبغ فى احد الازقة الهادئة الخضراء فى غاغارى القديمة .

حل الغسق ، وكان العم ساندرو منفعلا لاحتمال التأخر عن الموعد . هرع الى جناح الترخيصات وبلغ شباكا مضيئا جلست امرأة وراءه ومد هويته فى منفذ الشباك الطويل وقال : – «اعطينى ترخيصا» .

تطلعت المرأة فى الهوية وقارنتها مع قائمة من الاسماء ثم القت عدة نظرات متشددة على العم ساندرو لتجد فى ملامحه سمات غريبة .

وكلما نظرت الى العم ساندرو كان يتجمد ليخفى السمات الغريبة ويحاول ان يحتفظ على وجهه بمظاهر الشبه الطبيعى مع نفسه .

حررت له المراة ترخيصا . وكان يزداد قلقا وانفعالا ، فقد احس بأن هذا التشدد البالغ دليل على فرحة اللقاء المنتظر مع القائد .

سار على عجل حاملا الهوية والترخيص بيد والحقيبة باليد الاخرى ، فاجتاز مسرعا باحة المصح الخالية وتوقف امام المدخل حيث استقبله رجل المليشيا المناوب ، وراح لسبب ما يتفحص ترخيصه بارتياب ويقارنه طويلا بهويته . فقال العم ساندرو : «الجوقة الابخازيـــة» ، ملمحا الى الغرض السلمى من زيارته . لم يرد رجل المليشيا ، لكنه نقل نظرته الى الحقيبة وظلت الهوية فى يده .

اوما العم ساندرو براسه فرحا ليدلل على فهمه التام لخطورة الموقف . فتح الحقيبة بسرعة ووضعها عند قدميه واخرج منها القفطان والجزمـــة الآسيوية والسروال والحزام القوقاسى مع الخنجر . وكان ينفض كـــل حاجة بصدق ونزاهة حتى يسقط منها اى شىء يمكن ان يكون قد علق بها ويتخذ وسيلة لتدبير مكيدة او سواها .

وعندما جاء دور الحزام والخنجر ابتسم العم ساندرو وازاح الخنجر قليلا من قرابه وهو يلمح من بعيد الى عدم صلاحه لاغتيالات الملوك والزعماء حتى وان دارت مثل هذه الفكرة الهوجاء فى راس احد الحمقى والمجانين .

تابع رجل المليشيا حركاته باهتمام واوما ايماءة قصيرة وكانـــه يعترف بواقع عدم صلاح الخنجر لمثل تلك النوايا ويقطع دابر الجدل فى هذا الموضوع .

وضع العم ساندرو كل الحاجيات فى الحقيبة واغلقها وهم بأن يمد يده ليأخذ الهوية والترخيص ، الا ان رجل المليشيا اوقفه من جديد ، وساله :

— انت ساندرو شيغيمبا ؟

— نعم — اجابه العم ساندرو وادرك راسا ان من اللازم ان يضيف :

— ولكننى فى الاعلانات ساندرو من شيغيم .

— الاعلانات لا تعنينى — قال رجل المليشيا دون ان يشير على العم ساندرو بالمرور . اخذ من على الجدار سماعة تلفون جديد وتلفن الى جهة ما .

كاد العم ساندرو يستسلم لليأس والقنوط . فتذكر البرقية كآخر وثيقة منقذة وراح يبحث عنها فى جيوبه .

— بيك ، ل ت م ، لاكوبا — تفوه بهذه الرموز بسبب انفعاله وهو يبحث عن البرقية دون جدوى .

وفجاة راى على السلم العريض المفروش بالسجاد زميله فى الجوقة ماخاز يهبط من فوق . واحس ساندرو ان الاقدار نفسها انزلت ابن ناحيته اليه . قام باشارات وايماءات مستغيثة ليستدعيه مع ان ذاك كان هابطا اصلا وهو يكاد يستبق اذيال قفطانه المرفرفة .

— إسأله — قال العم ساندرو عندما حمل ماخاز نفسه على التوقف جنبهما ناتئ الصدر منتفخا بغير تعمد . لم يلتفت رجـــل المليشيا الى ماخاز ، وظل يستمع الى التلفون . وانتفخت العروق على رقبة ماخاز .

ولو كان العم ساندرو يستمع الى الحوار الجارى بالتلفون لما اضطرب وانفعل الى هذا الحد ، ولما ارهق ابن ناحيته عضلات صدره التى تلزمه للانشاد المنتظر .

فالقضية ان المناوبة فى جناح الترخيصـــات اخطات بكتابة حرف فى اسمه ثم شطبته وصححته . ويبدو ان هذا التصحيح غير جائز فى مثل هذه الاماكن ، وهو الذى اثار ريبة رجل المليشيا . وهو يدقق بالتلفون الآن هذه النقطة وقد تاكد ان المراة هى التى صححت الحرف وليس غيرها .

ومع ان التلفون جديد ، وربما نصب هذا اليوم بالذات ، فقد كان الصوت ضعيفا واضطر رجل المليشيا الى تكرار السؤال بين الفينة والفينة .

— انه احد افراد الجوقة ، الراقص الشهير ساندرو من شيغيم — اعلن ماخاز وابرز الى الامام صدره الناتئ اصلا عندما وضع رجل المليشيـــا السماعة .

— اعرفه — قال الرجل ببساطة — ادخل .

صعد العم ساندرو وماخاز السلم المفروش بسجادة حمراء . واتضح ان مدير الجوقة ارسل ماخاز عدة مرات لاستقباله .

ولم يعد العم ساندرو يشعر باى غيظ على رجل المليشيا . بالعكس ، فقد راى فى هذه الصرامة والتشدد فى دخول المصح ضمانة لعظمة اللقاء المرتقب . ولعل العم ساندرو يوافق على عوائق جديدة بشرط ان يكون متاكدا من تذليلها فى آخر المطاف .

— هل سيحضر ؟ — سأل العم ساندرو بصوت خافت عندما بلغـــا الطابق الثالث وسارا فى رواقه .

– لماذا تقول سيحضر اذا كان حاضرا؟ – اجاب ماخاز بثقة . فهو يتصرف هنا وكأنه فى منزله . فتح احد الابواب فى الرواق وتوقف فاسحا المجال للعم ساندرو كى يتقدم . وتناهى من وراء الكواليس الضجيج الحبيب المعتاد ، فدخل العم ساندرو ، فى منتهى الانفعال ، غرفة منيرة فسيحة .

كان افراد الجوقة يجوبون الغرفة بثياب الحفلة ليمرنوا عضلاتهم . وبعضهم جلوس على المقاعد الوثيرة ياخذون قسطا من الراحة ، وقد مدوا ارجلهم الطويلة بارتخاء .

– وصل ساندرو – تعالت عدة اصوات فرحة .

عانق العم ساندرو رفاقه فقبلوه وقبلهم وعرض عليهم برقية لاكوبا قائلا :

– جاءنى بها مدير شؤون اللجنة التنفيذية .

– ارتد ثيابك على عجل – صاح به بانتسولايا .

انزوى العم ساندرو فى الركن الذى وضع فيه الراقصون حاجياتهم على الكراسى وارتدى ثياب الجوقة وهو ينصت الى آخر توجيهات مديرها . وقال هذا الاخير :

– الاهم ، عندما يدعونكم الى الوليمة لا تهجموا على المزة والنبيذ . تصرفوا بتواضع ، ولكن ليس لحد الوجل الذى يلازم البنات . واذا عرض عليك احد الزعماء ان تشرب فاشرب وامض الى رفاقك . لا تقف جنب الزعيم وخصوصا اذا كنت تمضغ الطعـــام ، وكأنك اقتحمت معه قصر الشتاء .

وكان الراقصون يستمعون الى وصايا بانتسولايا وهم يجوبون الغرفة ذهابا وايابا ، ليمرنوا عضلاتهم ويشدوا احزمتهم . ووقف بعضهم على اطراف الاصابع ، ثم رفعوا قدما ملفوفة بالجزمة الآسيوية الدينة كالقفاز وقاموا بعدة قفزات على قدم واحدة ، وهم يستمعون فى الوقت ذاته الى صوت المدير الهادئ المهدئ .

ركض باتا باتارايا عدة مرات وهو يستعد لرقصته الشهيرة ، لكنه لم يركع على ركبتيه ، بل انزلق على قدميه ليتحسس نوعية الارضية . وكان يتوقف بعد الانزلاق ويستدير بحذر ، ويقيس المسافة بتقريب عقب احدى قدميه من اطراف اصابع القدم الاخرى .

وطفق العم ساندرو يفعل الشيء ذاته . وصار بوسعه ان يوفق بين شدة الركضة وبين مسافة الانزلاق بدقة لا تتجاوز طول راحة قدمـــه . صحيح ان باتا باتارايا يفعل ذلك بدقة لا تتجاوز عرض راحة يده ، لكن

العم ساندرو يحتفظ باحتياطى هو رقصته السرية ، وهذا ما يجعل نار الابتهاج القلق تلسع جوانحه الآن : «فهل سيوفق ؟» .

وقال بانتسولايا وهو يتخطر فى قفطانه الابيض بين تلاميذه :

– تذكروا انكم سترقصون على الارضية مباشرة ، بدون مسرح ، والارضية مثل هذه تماما . المهم الا ترتبكوا . فالزعماء بشر مثلنا ، ولكنهم افضل منا بكثير . . .

وها هو الباب يفتح ويظهر فيه رجل كهل فى بدلة حريرية . انه مدير المصح . اومأ الى بانتسولايا باشارة مهددة وكأنه فى الوقت ذاته خائف من احتمال الفشل . فقال بانتسولايا بصوت خافت :

– اتبعونى فردا فردا . – وانزلق برفق من خلال الباب فى اعقـــاب البدلة الحريرية .

وتحرك ، للحاق بالمدير ، باتا باتارايا وخلفه العم ساندرو ، ثم الآخرون الذين فسح كل منهم المجال تلقائيا لمن هو افضل منه .

اجتازوا الرواق بخطى صامتة كخطى الانقلابيين والمتآمرين ودخلوا ، الواحد تلو الآخر ، غرفة وقف فى بابها رجل بثياب مدنية .

كان مدير المصح قد اومأ له براسه ، فاومأ هذا ردا على المدير وسمح للجميع بالدخول وهو يتفرس فى وجه كل منهم ويحصى عددهم بنظرات عينيه . كانت الغرفة خالية تماما ، وفى طرفها الابعد ، جنب النافذة جلس شخصان فى ثياب مدنية كثياب الرجل الواقف فى الباب . كانا يدخنان ويتجاذبان اطراف الحديث بارتياح . وعندمـــا لاحظا افراد الجوقة اومأ احدهما براسه ، دون ان ينهض ، مشيرا الى امكان المرور .

فتح المدير الباب التالى ، فتناهى فى الحال صخب الوليمة . توقف المدير جنب الباب دون ان يدخل ، وراح يعطى اشارات صامتة مستميتة من يديه ولسان حاله يقول : هيا ، هيا ، وكأنه يحشر الجميع فى صالة الحفلات .

وبلمح البصر دخل افراد الجوقة الصالة واصطفوا فى صفين وقد اذهلتهم الاضواء التى تبهر العيون والمائدة التى تنوء بما لذ وطاب والعدد الهائل من الحاضرين .

كانت المأدبة فى اوجها . وجرى كل شيء بمنتهى السرعة حتى ان احدا لم يلحظ وجودهم راسا . فى البداية جاء تصفيق فردى ، ثم تلته عاصفة من التصفيق البهيج ترحيبا بالعشرين فارسا الذين يشبهون اشجار سرو انبجست من الارض وفى المقدمة بلاتون بانتسولايا .

كان واضحا ان الذين يصفقون قد اكلوا وشربوا ما طاب لهم ، وهم الآن يواصلون اللهو الفنى بارتياح ليعودوا بعد حين ، فى اغلب الظن ، الى لهو المائدة الذى اكتسب نكهة من الطراوة من خلال الفن .

التقط افراد الجوقة انفاسهم وراحت نظراتهم تبحث عن الرفيق ستالين ، لكنها لم تجده فى الحال ، لانها موجهة الى داخل الصالة ، بينما كان هو جالسا على مقربة منهم ، عند طرف المائدة ، فى شبه التفاتة الى جاره ، واتضح ان هذا الاخير هو عميد الاتحاد السوفييتى كالينين * .

واستمر التصفيق ووقف بانتسولايا مطاطئا راسه امام صف «اشجار السرو» كتمثال مرمرى يجسد الشكر والامتنان . وعندما شعر بأن التصفيق لا يريد ان يخفت ، وان صمت الجوقة بالتالى لا يمت الى التواضع بصلة ، رفع راسه والقى نظرة منحرفة على افراد الجوقة وضرب راحة براحة ، مثلما يفعل الفارس عندما يرفع سوطه ويلتفت ليلقى نظرة عابرة على ظهر الحصان قبل ان يسوطه .

صفق افراد الجوقة ليشقوا طريقهم من خلال صخب الحب ، الى معين الحب نفسه ، من خلال صخب الاعجاب الذى قابلتهم به الحكومة . ونهض ستالين على غير المتوقع ، ونهضت الصالة كلها فى اثره بضجيج قصير هادر لتلحق به قبل ان يعدل قامته .

واستمر زهاء دقيقة هذا الصراع السلمى فى الفة متبادلة وكانه مهارشة ودية بين اصدقاء يطبطبون على ظهور بعضهم البعض ، او مناوشة عابثة بين حبيبين يشكر فيها المغلوب الغالب ثم ينتصر عليه فى الحب بعد لحظة ، فيصد موجته الصاخبة بموجة صاخبة اخرى .

استمر الراقصون على التصفيق كالعادة ، وهم يتحدثون فيما بينهم دون ان يلتفت الواحد منهم الى الآخر .

– انظر ، ذاك هو الرفيق ستالين .

– اين ؟ اين هو ؟

– يتحدث مع كالينين .

– يبدو ان فوروشيلوف ** قصير القامة ايضا .

---

* ميخائيل كالينين (١٨٧٥–١٩٤٦) رئيس اللجنة التنفيذية المركزية لعموم الاتحاد السوفييتى . – **الناشر** .

** كليم فوروشيلوف (١٨٨١–١٩٦٩) عضو المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ، وزير الدفاع . – **الناشر** .

– ومن هذه ؟

– زوجة بيريا * .

– زعماء ، وكلهم قصار القامة .

– القصار امتن من غيرهم . . .

– ليتك ، يا ساندرو ، تغدو عريفا فى مثل هذه الوليمة . . .

– عريفها زعيمنا نسطور .

– ربما بيريا ؟

– كلا . الا ترى نسطور جالسا على راس المائدة ؟

– ستالين يفضله دوما . . . فهو محسوبه . . .

اندمج التصفيق المتبادل وتعادل بالتدريج ملتقيا فى مركز مشترك للمودة والحب . فى نقطة ارتكاز تجسد مغزاه . ونقطة الارتكاز المعنوية هذه هى الرفيق ستالين .

والتفت سكرتيرو اللجان الحزبية فى النواحى صوب الرفيق ستالين يصفقون له بعد ان اجتذبهم مركز المودة والحب الرائع . الجميع يضربون راحة براحة ويتطلعون اليه رافعين ايديهم وكانهم يريدون ان يقذفوا اليه بموجاتهم الصوتية الشخصية . وهو يبتسم مدركا هذه الحقيقة ويصفق كالاب الحنون وكانه يعتذر قليلا لخيانة انصاره الذين يصفقون له وليس معه ، ولذا فهو ، لوحده ، عاجز عن الرد على موجة تصفيقهم بالشكل المطلوب .

وهو مسرور لمجىء هؤلاء الراقصين الفارعى القامات فى قفطاناتهم السوداء . وهو فى مثل هذه الاوقات يحب كل ما ينطوى على قيمة لا جدال فيها ولا علاقة لها بالسياسة التى تبعث الملل احيانا . والاصح لا علاقة لها بالسياسة حسب الظاهر ، لانه يجمع ذهنيا بين هذه القيمة الناجزة التى لا جدال فيها وبين الكيان المنتفخ الثقيل الذى يتحول اليه كل نشاط سياسى ، ويعتبرها دليلا ثبوتيا ، وان كان ضئيلا ، على احقيته وصواب رأيه .

فالعشرون راقصا الفارعو القامات تحولوا الى مندوبين زاهرين لسياسته القومية مثلما يتحول الاطفال الراكضون الى الضريح الذى يقف على منصته فى الاعياد الى رسل المستقبل وقبلاته الوردية . وهو

---

* لافرينتى بيريا وزير الداخلية ، مدبر الآلاف المؤلفة من المحاكمات المزورة ، اعدم رميا بالرصاص فى عام ١٩٥٥ ، بعد وفاة ستالين . – **الناشر** .

يقدر ذلك افضل من اى كان . ويدهش الحاضرين برحابة صدره وسعته المنقطعة النظير – من التشدد الشيطانى الذى لا يعرف الرحمة حتى الاعجاب بهذه الافراح والمسرات الضئيلة فى الواقع . وعندما يلاحظ امارات تلك الدهشة منطبعة على وجوه الحاضرين ، يزداد تقديرا لقدرته الشخصية على تقدير تلك الافراح والمسرات الحياتية الضئيلة التى على هامش التاريخ .

وعلى اية حال استمر مندوبو سياسته القومية على الابتهاج والتصفيق ، الا ان احدهم ، وهو العم ساندرو ، شبع من التطلع الى الزعماء فحول نظرته الى المائدة .

كانت المائدة ، او على الاصح الموائد ، تخترق صالة الحفلات حتى نهايتها ، وتنفرج هناك الى فرعين مثقلين بالثمار . الاطباق الطيبة واضحة المعالم على السفرات الباردة الناصعة البياض .

الديكة الرومية تسبح فى صاصة الجوز البنية ، ومن الدجاج المقلى تبرز العجيزات اللذيذة عارية بغير حشمة . والسلطانيات تزدهر بالفاكهة والسكاكر والبسكويت والكعك . والرمان المفلوع بفعل الحمم الباطنية الساخنة يكشف عن جوانب من مغاراته الاجرامية الغاصة بالدرر والمجوهرات .

وتلمع صحون الخضروات كانها اصص غسلتها الامطار توا . والحملان المطبوخة فى اللبن على الطريقة الابخازية القديمة تربض راضخة وادعة تذكرنا بالرقة المفقودة ، بينما تمسك الخنانيص المقلية ، بمرح لا حياء فيه ، فجلا قرمزيا بين انيابها المكشرة .

وجنب كل قنينة نبيذ تنتصب قناني المياه المعدنية كالممرضات الساهرات . قناني النبيذ بدون ملصوقات ، ولعلها من السراديب المحلية . ادرك العم ساندرو من رائحة النبيذ انه معمول من كرم «ايزابيلا» .

كانت الاطعمة فى اغلبها سليمة لم تمسها يد ، وقد برد بعضها من زمان . فالدراج المقلى تجمد فى سمنه . ستالين لا يحب الخدم والحشم عندما يحومون حول المائدة . ولذا قدموا الاطعمة دفعة واحدة ، مع ان الطهاة فى المطبخ كانوا على اهبة الاستعداد لتلبية اى طلب مفاجئ .

كل من على المائدة ياكل ما يشاء وكيفما يشاء ، لكن لا قدر الله ان يخادع ويفوت كاسا لا مناص من احتسائها . فالقائد لا تروق له

مثل هذه التصرفات . وهكذا يجرى على المائدة توازن بين ديمقراطية الطعام واستبداد الشراب .

جلس نسطور لاكوبا على راس المائدة ، وجنبه قرن كبير قاتم بخطوط فاتحة ، وهو بمثابة صولجان سلطة المآدب .

وجلس ستالين على يمينه ويأتى بعده كالينين . وعلى يسار لاكوبا جلست زوجته ثريا السمراء ، وجنبها الحسناء نينا ، زوجة بيريا ويأتى بعدها زوجها بنظاراته اللماعة العتيقة الطراز . وشغل فوروشيلوف مقعده جنب بيريا متميزا عن الآخرين بقصلته الناصعة البياض والحمالة والمسدس يتدليان من الحزام . وجلس جنب فوروشيلوف وكالينين على كلا جانبى المائدة زعماء اوطا مرتبة لا يعرفهم ساندرو من الصور المنشورة .

وشغل بقية المقاعد سكرتيرو اللجان الحزبية فى نواحى جورجيا الغربية ، وحواجبهم مرفوعة متجمدة فى دهشة واستغراب . وتناثر بينهم ، فى بعض المقاعد ، رفاق من دوائر الامن عرفهم العم ساندرو راسا لانهم ، خلافا لسكرتيرى النواحى ، لم يستغربوا لشىء ، ولم يرفعوا حواجبهم ، بالاحرى .

التفت نسطور لاكوبا ، باستدارة حادة ، الى الجوقة وراح يصفق باخف من الآخرين ، فهو صاحب البيت ولا بد ان يراعى اصول اللياقة .

وعندما خفض ستالين يديه وجلس انتهى التصفيق ولكن ليس راسا ، فالجالسون بعيدا لم يلاحظوا ذلك . انتهى التصفيق كما ينتهى نسيم داعب اوراق شجرة وارفة .

– قائدنا الحبيب ، الضيوف الاعزاء – تفوه بانتسولايا – جوقتنا الابخازية المتواضعة التى تاسست بمبادرة شخصية من الرفيق نسطور لاكوبا . . .

لاحظ العم ساندرو ان ستالين تطلع فى تلك اللحظة الى لاكوبا ولاحت ابتسامة ماكرة بين شاربيه ، فرد عليه ذاك بان هز كتفيه باستحياء .

– . . . تؤدى امامكم عدة رقصات واغان ابخازية ، بالاضافة الى رقصات واغانى اسرة الشعوب القوقاسية المتحابة .

طاطا بانتسولايا راسه واطنا وكانما يعتذر مسبقا لانه سيستدير بظهره للضيوف الكبار . ثم قام بتلك الاستدارة العميقة المغزى فى

حركة متموجة دون ان يرفع راسه ، وهـو يحاول ان يتفادى آثار المفاجاة المهينة على الاقل فى وقفته هذه (طالما هى ضرورية فى كل الاحوال) ويعبر فى الوقت ذاته عن أسفه لانه يستدير بظهره ، وبعد ذلك رفع راسه ولوح بيديه المجنحتين بردنى القفطان الابيض وتعلقت اليدان فى الهواء .

– آه يا ليل ، يا ليل – تناهى صوت ماخاز كانه منبعث من فج عميق .

وبتلويحة الردنيـن المجنحين تلقفت الجوقة مطلع الاغنية القديمة التى تقول : لم يعد الجميع من الغزوات ، ولم يقدر للجميع ان يروا اللهيب فى وجاق الديار . . . وعندما يدخل الحصان الحوش وعلى ظهره جثة فارسه يرتعش من صراخ الام ويهتـز الميت على ظهره . لكن اباه لا ينتحب ، ولا يبكى اخوه ، فالرجل لا يمتلك الحق فى البكـاء الا بعد ان يأخذ بالثأر .

وبالتدريج تحول النغم الى طاقـة ايقاعية ، وانكمشت الاغنية ، وخلعت النافل من الثياب مثلما يخلعها المصارع قبيل الاشتباك .

شعر العم ساندرو بالنشوة تتسلل اليه ، واحس بالاغنية تصب فى دمه وتريد ان تتحول الى رقصة ، وتبتغى اداء القسَم الذى تنطوى عليه .

اخذ افراد الجوقة يضربون راحة براحة مع انهم لا يزالون ينشدون الابيات المضغوطة الى اقصى حد . وصارت كل الطاقات مركزة على ايقاع تصفيق راحات الايدى ، لكن الرقصة لا تزال تنتظر الطهى والنضوج ، ولذا ظلوا يسخنونها على لهيب الانغام الخفيف .

وكررت الجوقة :

– آه يا ليل ، يا ليل .

وصفقت الراحـات : تاش – توش ، تاش – توش ، وهى تستل الرقصة من صلب الاغنية .

لم يتحمـل احد المتفرجين فأخذ يصفق فى محاولة للتعجيل بميلاد الرقصة . وصفقت القاعة كلهـا مع الرفيق ستالين : تاش – توش ، تاش – توش .

وهنا انطلق باتا باتارايا ، كحصان جامح افلت من عقاله ، وتوقف فجاة بلا حراك . . . تمطط وشد قامتـه كالوتر القائم على اطراف الاصابع ، وهو على اهبة الاستعداد للانطلاق كالسهم حتى ينغرز فى

صفوف الاعداء لكنه يعدل عن رأيه فى آخر لحظة فيحوم ويدور بشكل مسعور ليشفى غليلـه ويروى عطش المحارب التـواق الى بلـوغ الهدف .

ويقتحم الحلبة ساندرو الشيغيمـى ، وتنخرط فى الرقصة كـل القفطانات السوداء المحومة كالاعصار اشارة الى استعداد الرجل منـذ القدم ليكون محاربا ، واستعداد المحارب للانطلاق والاختراق . . . وفى آخر لحظة يتضح ان الامر لم يصدر بعد للانطلاق والاختراق .

ويستشاط الراقصون غضبا ويضربون الارض باقدامهم مهددين ، ويحوّمون فى دوران سريع .

واثناء الدوران يغدون اكثر نحافة وانشطارا ويتحـولون فى آخر المطاف الى كيانات شبه شفافة كالمراوح . ويتضح للمتفرج ان المرء عندما يدور حول نفسه يمكن ان يشفى غليلـه ويروى التعطش الى القتال .

– آه ، يا ليل ، يا ليل ! تاش – توش ، تاش – توش .

راح الراقصون يندفعون الى الحلبة بمهارة ويحل بعضهم محل الآخر فى الوقت المناسب ، وبدا وكان الدوامـة الراقصة تحوم من تلقـاء نفسها ، وفقا لمخطط قديم يتلخص مغزاه ، فيما يتلخص ، فى النزوع الى صعق العدو غير المرئى (فى الازمـان السالفة عندما كان الامراء يدعون بعضهم البعض الى الولائم كان العدو مرئيا) ، على كل حال ، صعقه بالطاقة المسعورة التى لا تنضب .

وادت الجوقة رقصات ابخازية وجورجية ومنغريلية واجارية تتخللها فترات قصيرة للاغانى .

وها قد حان موعد الرقصة الاساسيـة ، رقصة الزفاف . وحلت اللحظة التى طال انتظارها . هتف باتا باتارايا على حين غرة واندفع فى قفزة محلقة ثنى ساقيه خلالها ثم ارتطم بالارض على ركبتيـه وانزلق ناشرا يديه حتى بلغ قدمى الرفيق ستالين وتجمد عندهما بلا حراك .

جرى ذلك بالنسبة للضيوف فى نقلة مباغتة جعلت بعضهـم ، وخصوصا الجالسين بعيدا ، يقفزون ناهضين دون ان يفهموا ما حدث . وقفز بيريا قبل الجميع وتجمد واقفا عند المائدة ونظاراته تلمع .

ابتسم الرفيق ستالين ، فلا اثر هناك لسوء النية ، وفى الحـار دوت عاصفة من التصفيق ، وانطلق باتـا باتارايا عائدا الى حلقـة الراقصين وكان تلك العاصفة قذفته الى هناك .

وجاء دور العم ساندرو . تلقف الايقاعات الموسيقية المناسبة فزعق وقفز من وراء ظهور الراقصين المصفقين وكرر رقصة باتا باتارايا الشهيرة ، لكنه توقف اقرب منه بكثير حتى حاذى قدمى الرفيق ستالين . نقل العم ساندرو نظرته من جزمة القائد الصقيلة اللماعة الى وجهه فدهش اشد الدهشة للتشابه بين لمع الجزمة الزيتى واللمع الزيتى الاخاذ فى عينيه السوداوين .

ودوت عاصفة التصفيق من جديد .

– يتباريان فيما بينهما – صاح لاكوبا مخاطبا ستالين حتى يعلو صوته على الصخب العام وعلى صممه الخاص . اوما ستالين برأسه وابتسم دليلا على الاستحسان .

وزعق باتا باتارايا من جديد ، كمن لدغته افعى وهوى على ركبتيه ثم انزلق وتجمد منشور اليدين ، عند قدمى الرفيق ستالين فى وضعية الولاء الجرىء .

– فى ذلك تطاول – هز بيريا رأسه باستياء .

– اعتقد ، رقصة رائعة – هتف كالينين وهو يتطلع من فوق كتف الرفيق ستالين .

ودوت عاصفة التصفيق ، فتراجع باتا باتارايا عائدا الى دوامة الراقصين . وكان توقفه على بعد شبر لا اكثر من قدمى القائد قد امن له الفوز تقريبا .

ولكن ليس من عادات العم ساندرو ان يستسلم دون قتال . فالآن يتقرر مصير افضل راقص فى الجوقة ، وقد احتفظ باحتياطى معين لهذه المناسبة . راح يحدق فى الفضاء بين جزمة الرفيق ستالين والموضع الذى يقف فيه ليتحسس اللحظة التى لا يبدل فيها ستالين ولاكوبا وضعية جلوسهما ، فقام بحركة كحركة فارس يقى وجهه بحافة خوذته ، فازاح قبعته حتى حجبت عينيه وزعق بلهجة «شيغيم» وقفز صوب الرفيق ستالين .

لم يتوقع هذه النقلة حتى الراقصون . فكفت الجوقة فجأة عن التصفيق وتوقف عن الحركة كل الراقصين ما عدا الشخص الذى يرقص فى الطرف المقابل . وبعد عدة طرقات عقيمة توقفت قدما هذا الراقص فى خوف وهلع .

ووسط هذا الصمت اجتاز العم ساندرو بلمح البصر الفسحة على

وكبتيه بيدين منشورتين والقبعة تحجب عينيه حتى توقف بلا حراك عند قدمى الرفيق ستالين .

قطب ستالين حاجبيه بسبب المفاجأة ، حتى انه لوح قليلا بالغليون المضغوط فى قبضته ، الا ان وضعية العم ساندرو المعبرة عن الولاء الجرىء ، ويديه المنشورتين العاجزتين المؤثرتين والرأس المعصوب العينين المائل الى الوراء باعتزاز ، بالاضافة الى العناد الخفى الملازم للقامة كلها والذى كأنما يقول للقائد : لن انهض ما لم تباركنى – كل ذلك حمل ستالين على الابتسام .

وبالفعل ، وضع القائد الغليون على المائدة باسما وفك عصابة القبعة التى تغطى وجه العم ساندرو وكأنه يشبع الفضول المعتاد فى حفلات التنكر .

وعندما انزلقت العصابة عن وجه العم ساندرو وشاهد الجميع هذا الوجه وكان تبريك القائد اناره دوى اعصار من تصفيق منقطع النظير . اما سكرتيرو نواحى جورجيا الغربية فقد رفعوا حواجبهم بمزيد من الاندهاش .

ظل ستالين ممسكا بقبعة العم ساندرو يعرضها على الجميع باسما وكأنه يريد لهم ان يتأكدوا بأن الرقصة تمت بمنتهى النزاهة بدون اية بهلوانيات . اهاب بالعم ساندرو ان ينهض ، فنهض ، بينما اخذ كالينين القبعة من يد ستالين وراح يتفحصها . وفجأة مال فوروشيلوف على المائدة بخفة واختطف القبعة من يدى كالينين . وراح يحدق فيها وسط قهقهة الحاضرين مؤكدا انها غير شفافة ولا يرى من خلالها شىء .

– من انت ، يا شاطر ؟– سأل ستالين وسلط على العم ساندرو نظرة من عينيه المتألقتين .

– انا ساندرو من «شيغيم» – اجابه الرجل وغض بصره . فقد كانت نظرة القائد متألقة لحد بعيد . ولم تكن تلك النظرة وحدها هى التى اثرت فيه . فقد لاحت فيها ظلال قلقة تركت صدى من الهلع والرعب فى نفس العم ساندرو .

– شيغيم . . . – كرر القائد متأملا ، ودس القبعة فى يد العم ساندرو فانصرف هذا مبتعدا .

– رقصة دقيقة للغاية – بلغ مسامعه صوت كالينين الذى اوما صوبه برقة وهو يمسد لحيته .

– الشمس ترى من خلال القبعة – قال فوروشيلوف برزانة وهو

يقتطع اذن الخنوص المقلى . وفى اثناء ذلك سقطت حبة الفجل من بين الانياب المكشرة فتدحرجت على المائدة ، مما اثار دهشة فوروشيلوف لحد كبير . ولشدة دهشته ترك الشوكة فى اذن الخنوص قبل ان يقتطعها وراح يبحث عن حبة الفجل بين الصحون والقنانى .

وهنا لاحظ العم ساندرو ان السكر الشديد ألمّ بالجالسين الى المائدة . وراح يتطلع اليهم هذه المرة بنظرته الثاقبة وقرر ان الواحد منهم احتسى ما لا يقل عن دزينة من الكؤوس .

يقول العم ساندرو انه يستطيع ان يحدد عدد الكؤوس التى احتساها الشخص بمنتهى الدقة لمجرد ان يلقى نظرة على مظهره الخارجى . ويؤكد ان درجة دقة التحديد تزداد كلما ازداد عدد الحاضرين فى الوليمة وكمية ما احتسوه من شراب . ولا يقتصر الامر على ذلك . فان درجة دقة التحديد تزداد بزيادة كمية النبيذ المحتسى ليس الى ما لا نهاية . فبعد احتساء ثلاثة التار تنخفض تلك الدرجة ، كما يؤكد العم ساندرو .

. . . وقف بلاتون بانتسولايا امام صفين من أفراد جوقته المنتصبين كاشجار السرو ، وهم يتاهبون لانشاد اغنية «كيراز» عن الانصار الحمر . كل الامور تسير على خير ما يرام ، ولم يكن بانتسولايا فى عجلة . كان يريد للراقصين ان يلتقطوا انفاسهم .

– حالك افضل . ستؤمن حياتك مدى العمر – قال ماخاز للعم ساندرو .

– لا تبالغ يا ماخاز – اجاب العم ساندرو بتواضع .

– كيف لا ؟ – احتد ماخاز دون ان ينظر اليه – تنزلق حتى قدمى ستالين نفسه معصوب العينين . حتى الالمان لا يتمكنون على شىء من هذا القبيل .

اجل ، العم ساندرو يفهم تماما ان هذه الرقصة الباهرة سترشحه للمرتبة الاولى فى الجوقة ، بل وستعزز نهائيا صلاحياته القومندانية . ولن يتجرأ مدير شؤون اللجنة التنفيذية من الآن فصاعدا ان يعذبه باسئلته الحمقاء عن الاحطاب .

عندما شرعوا بانشاد اغنية الانصار تظاهر العم ساندرو بانه يغنى لكنه لم يغن . كان يفتح فمه قليلا ويغلقه وفقا للانغام . وكان ذلك اول اعتراف زهيد بقيمة مأثرته . واثناء الانشاد انحنى لاكوبا على ستالين وحدثه بشىء ما . ولما كان الاثنان قد تطلعا عدة مرات الى

العم ساندرو فقد احس بانهما يتحدثان عنه ، فتوقف قلبه عن الخفقان فى سرور غامر .

وعندما مد نسطور لاكوبا قبضته مشيرا الى اعلى ادرك العم ساندرو ان الحديث يدور عن شجرة الفداء وان لاكوبا يشير الى ضرب الشجرة حتى تنطق بكلمة «كومخوز» . وعلى اية حال فان ستالين ، فى ذلك الموضع من الحديث ، مال على ظهر مقعده وراح يقهقه ، فلمسه كالينين لمسة خفيفة ملمحا الى انه يشوش على الجوقة . كف ستالين عن الضحك ومال على كالينين وقص عليه هذه الحكاية ، كما تصور العم ساندرو . وعندما بلغ الموضع الذى يجب ان يقول فيه انهم ضربوا الشجرة قام بحركة نشيطة متكررة من يده الممسكة بالغليون . ولم يتحمل كالينين فراح يقهقه هو الآخر ولحيته تهتز ، وبعد ذلك نبهه ستالين هذه المرة الى انه يشوش على الجوقة .

اخذ ستالين القرن بيد وقنينة النبيذ باليد الاخرى ونهض ومضى الى الراقصين .

همس نسطور لاكوبا لزوجته بشىء ، فالتقطت من المائدة صحنا بدجاج مقلى واسرعت فى اعقاب ستالين . وما ان اقترب ستالين من الراقصين حتى ظهر مدير المصح هناك . حاول ان يساعد القائد ، لكن هذا الاخير ازاحه بكتفه وملأ القرن بالنبيذ وقدمه بنفسه الى ماخاز .

وضع ماخاز يدا على الصدر واخذ القرن باليد الاخرى وقربه من شفتيه بحرص وعناية . وعندما كان يرتشف النبيذ من القرن تابعه ستالين بارتياح وكرر قائلا : – اشرب ، اشرب . – وشق الهواء براحته المنتفخة الصغيرة .

كان القرن يتسع للتر كامل من النبيذ . تلقف المدير القنينة الفارغة من ستالين ووضعها على المائدة واسرع عائدا بقنينة اخرى . واخذ من ثريا صحن الدجاج ليمسكه حتى تنتهى من تقطيع اللحم . ووجدت ثريا صعوبة فى تقطيع لحم الدجاج بالشوكة والسكين اما بسبب الارتباك او لان الصحن كان يهتز فى يدى المدير . وتوردت وجنتاها السمراوان ، واخذت انفاس المدير تتعسر .

فى تلك الاثناء افرغ ماخاز قرن النبيذ فى جوفه ، وقلبه ليثبت «نزاهته» ثم سلمه الى العم ساندرو . لاحظ ستالين تأخر المزة فلوح بيده باستهانة ثم اخذ الدجاجة من فخذيها وشطرها شطرين بتلذذ

وارتياح ، كما لاحظ العم ساندرو ، ثم شطر كل شطر منهما . وسال السمن من بين اصابعه ، لكنه لم يعبأ به . . .

وخيل للعم ساندرو ان يد القائد اليسرى لا تتحرك بمرونة . وفكر فيما اذا كانت يابسة بعض الشيء ، فتطلع اليها بحذر ووجدها كذلك . وفكر ، دون سبب ظاهر ، حبذا لو التقيا ، القائد و«الكليم» المعقوف اليد . وعلى العموم احس العم ساندرو بأن هذا العطل الطفيف اضعف على نحو ما صورة الزعيم . اضعفها بعض الشيء ، لكن ذلك هو الواقع على اية حال .

اخذ ستالين فخذ الدجاجة بيده البليلة وقدمه الى ماخاز . فانحنى هذا من جديد ، وهو ياخذ الفخذ ، وقضمه بحشمة .

حاول مدير المصح ان يصب النبيذ فى القرن ، الا ان ستالين اخذ القنينة منه هذه المرة ايضا ، باصابعه المنزلقة بسبب شحم الدجاج ، وافرغها فى القرن واعادها الى المدير الذى هرع لاحضار قنينة اخرى .

– اشرب ، اشرب – سمع العم ساندرو هذا الصوت يأتى اليه من فوق حالما رفع القرن . فشرب وهو يفرغ القرن برفق وبالمهارة الفنية التى يتعين على عريف الحفل البارع ان يشرب بها ، فكانه لا يشرب ، بل يصب السائل الثمين من وعاء فى وعاء آخر .

– انت تشرب بمهارة مثلما ترقص – قال ستالين وسلمه فخذ الدجاجة وراح يتطلع فى عينيه بنظرته الانثوية المتالقة – يخيل الى انى سبق ورايتك ، يا شاطر .

وفجاة توقفت اليد التى قدم بها ستالين فخذ الدجاجة ، ولاح فى عينيه تعبير الحذر الرهيب . وشعر العم ساندرو بقلق مميت مع انه لا يعرف سببه اطلاقا . ادرك ان ستالين اخطا ، فلو كان العم ساندرو قد التقاه فى مكان ما لتذكره من كل بد .

تجمدت الفرقة الصامتة اصلا . وسمع العم ساندرو فكى ماخاز يتوقفان عن مضغ الدجاج . وكان على ساندرو ان يجيب ، ولكن لا يجوز له ان ينفى احتمال لقاء ستالين ، الا ان الافظع من ذلك هو الموافقة على هذا الاحتمال ، وليس ذلك لان العم ساندرو لا يتذكره ، بل ، وبالاساس ، لان ستالين دعاه للمشاركة فى ذكريات لا تبعث على السرور . هذا ما احس به العم ساندرو رأسا .

وفى غضون ثانية او ثانيتين تصفح جهاز الحفاظ على النفس ، وهو

الجهاز الجبار الذى جربه العم ساندرو فى الكثير من المخاطر ، كل الاجوبة المحتملة وسحب منها اقلها خطرا :

– صورونا فى السينما – قال العم ساندرو على غير ما يتوقع هو نفسه – ويحتمل انك رايتنى فى السينما يا رفيق ستالين .

– آ . . . السينما – تفوه القائد ببطء وانطفا ألق عينيه . وقدم فخذ الدجاج : – خذ ، انت تستحق .

بقبق النبيذ من جديد وهو يسيل من القنينة فى القرن . وجاء الصوت من قريب :

– اشرب ، اشرب .

قضم العم ساندرو فخذ الدجاج وحرك رقبته قليلا ، فقد احس بانها تخشبت ، ومن خلال تخشبها ادرك ان ثقلا رهيبا ازيح عن كاهله . عفارم على ، فكر العم ساندرو ، كيف تذكرت انهم صورونا فى السينما ؟ عفارم عليك يا ساندرو – فكر منتشيا من الفرح ومعتزا بنفسه . كلا ، ليس من السهل ان يعض احد ابن «شيغيم» . هل يعقل اننى التقيت به مرة ؟ يبدو ان الامر اختلط عليه . لا قدر الله ان اجد نفسى فى مكان ذاك الذى خلط بينى وبينه – فكر العم ساندرو فرحا .

كان ستالين يقدم القرن لآخر راقص فى الصف الاول عندما اقترب منه نسطور لاكوبا وسأل :

– الا ندعوهم الى المائدة ؟

– كما تشاء يا عزيزى نسطور . فانا مجرد ضيف – اجاب ستالين واخذ الفوطة من ثريا وراح يمسح يديه ببطء واهتمام مثلما يفعل المصلح الميكانيكى بعد انجاز العمل . رمى بالفوطة فى الصحن الخالى ومضى جنب لاكوبا الى المائدة بمشية خفيفة مرنة .

وزعوا افراد الجوقة على مائدة الوليمة . اجلسوا افضلهم جنب الزعماء ، واجلسوا ابسطهم جنب سكرتيرى لجان النواحى فى جورجيا الغربية . وتعالى فوق المائدة صخب كبير . وراحت جزائر الاحاديث المتنوعة تعيش حياتها المستقلة .

وفجاة نهض الرفيق ستالين رافعا كاسه . خيم الصمت وتطهر الجو فى الحال من قاذورات الاصوات . وقال الزعيم بصوته الهادئ المؤثر :

– ارفع نخب هذه الجمهورية الحائزة على الاوسمة السامية ونخب صحة زعيمها الاوحد . . .

وتوقف برهة طويلة وكانما يريد ان يزن للمرة الاخيرة السجايا

الرفيعة التى يتحلى بها زعيم الجمهورية والتى تصبه بفضلها زعيما اوحد ذات مرة . ومع ان الجميع يعرفون بانه لن يذكر الآن اسما غير لاكوبا ، فان هذا التوقف الطويل اثار فى نفوسهم حماسا فضوليا قلقا : ماذا لو ذكر اسما آخر ؟

— . . . صديقى المفضل نسطور لاكوبا — اختتم ستالين عبارته ، ورسمت يده ايماءة تأكيد جاءت اقصر من المعتاد بسبب ثقل الكاس الملينة .

— قال : صديقى «المفضل» ، «المفضل» ، — همس سكرتيرو النواحى وهم يقدرون ذهنيا تأثيرات هذا القول على قيادة منظمة الحزب فى تبليسى ، وانعكاساتها المحتملة من هناك على كل واحد منهم . علما بأن حواجبهم ظلت مرفوعة فى دهشة واستغراب .

— . . . فى هذه الجمهورية يجيدون العمل ويجيدون التسلية . . .

— يعيش الرفيق ستالين — هتف احد سكرتيرى النواحى فجاة ونهض . الا ان ستالين التفت نحوه بسرعة معبرا عن احتقاره الرهيب ، مما جعل هذا الرجل الطويل البدين يهبط ويتقلص ببطء . واشاح ستالين بوجهه واثقا من غياب الرجل .

— بعض الرفاق . . . — واصل كلامه ببطء ، ولاحت فى صوته نامات الانفعال . وفهم الجميع انه غاضب على هذا السكرتير الذى هتف بتمجيده دون مناسبة .

تململ بيريا وخلع نظارته لحظة ، والقى على السكرتير نظرته الخضراء العكرة الشهيرة التى جعلته يجفل ، وكانه يتملص من ضربة . سكرتيرو اللجان الجالسون جنبه تزحزحوا مبتعدين بشكل غير ملحوظ فنشا بينهم وبينه خلاء ذو صبغة ايديولوجية . وتطلع اليه جميع السكرتيرين بحواجب مرفوعة مندهشة وكانهم يبذلون جهدا ليعرفوا من هو ومن اين جاء على العموم ؟

بينما ظل ذاك ، معتمدا بيديه على المائدة ، ينظر الى بيريا ويهبط ببطء فى محاولة للانخراط فى الوليمة دون ان يلاحظه احد ، ويتلكا فى الوقت ذاته تحوطا لما اذا كانوا سيامرونه بالانصراف .

— . . . بعض اشباه المتعلمين هناك ، فى موسكو . . . — واصل ستالين بعد توقف اطول ، ولاحت فى صوته بمزيد من الوضوح نامة تهديد وانفعال . وادرك الجميع راسا انه يبت مع نفسه فى مسالة هامة للغاية وقد نسى ذلك السكرتير الاخرق من زمان .

صرف بيريا النظر عنه ، فكاد ذاك يغوص فى هيكله العظمى المهشم وهوى على مقعده مسرورا ، فقد مرت الزوبعة بسلام .

— . . . يقصد بوخارين . . . — سمع العم ساندرو همس احد الزعماء الاوطا مرتبة ممن لا يعرفهم من الصور .

— . . . بوخارين ، بوخارين . . . — تناهى الهمس فى صفوف سكرتيرى لجان النواحى .

حقا ، فقد كان معروفا فى الاوساط الحزبية ان ستالين يسمى بوخارين بهذه الصورة : «صاحبنا المتعلم» فى ايام المودة ، و«هذا المتعلم» فى الوقت الحاضر .

— . . . يعتقدون ان القيادة على الطريقة اللينينية — واصل ستالين — هى تنظيم مجادلات لا نهاية لها وتهرب جبان من اتخاذ التدابير الحازمة . . .

وراح ستالين يتامل من جديد . بدا وكانه ينصت الى ذاك الهمس من بعيد وهو مسرور له . فهو يحب هذا النوع من التلميحات الغامضة . وخيال المستمعين يضفى عليها من كل بد مغزى موسعا من خلال الحدود غير الواضحة للموضع الموبوء . وفى مثل هذه الاحوال يبتعد كل واحد منهم عن ذاك الموضع مسافة احتياطية كافية . وفيما بعد يمكن فى سير الحملات السياسية اتهام المسافة الاحتياطية بالتذبذب والتردد .

— . . . ولكن القيادة على الطريقة اللينينية تعنى ، اولا ، عدم الخوف من التدابير الحازمة ، وثانيا ، العثور على الكوادر وتوزيعها بالشكل اللازم . . . واليكم مثالا صغيرا .

تطلع ستالين فجاة الى العم ساندرو ، فاحس هذا بان روحه هبطت برفق الى تحت ، لكنه ظل ينظر الى القائد دون ان يرمش له جفن .

— . . . عثر نسطور على هذا الشاطر فى قرية جبلية نائية وجعل موهبته ملكا للجميع — واصل ستالين كلامه — فى السابق كان يرقص لشلة محدودة ، اما الآن فهو يرقص ليفرح الجمهورية كلها ويفرحنا معكم يا رفاق .

— . . . فلنشرب اذن نخب صديقى العزيز صاحب الوليمة نسطور لاكوبا — اختتم الرفيق ستالين كلمته وافرغ الكاس واقفا ثم اضاف : — الرفيق لافرينتى يرفع النخب التالى . . .

كان ستالين يعلم علم اليقين ان لافرينتى بيريا لا يحب نسطور

لاكوبا ، وهذا لا يحبه ايضا ، ولذا راح يتسلى الآن بارغام بيريا على شرب نخب لاكوبا اولا .

غرز السكين فى وعاء عجينة التوابل القرمزية واخذ شيئا من العجينة وضعه فى صحنه ثم تبل بها قطعة من لحم الحمل دسها فى فمه وراح يمضغها والفضاريف اللبنية تطقطق بين فكيه .

– اليست متبلة جدا ؟ – سأل كالينين وكان يتابع ستالين بتهيب وهو يتبل قطعة اللحم بالعجينة الفلفلية .

– كلا – قال ستالين وهز رأسه – اعتقد ان لهذه العجينة الابخازية مستقبلا كبيرا .

مد الكثيرون ممن سمعوا هذا الكلام ايديهم الى عجينة التوابل . وفيما بعد تحقق تنبؤ القائد هذا ، بخلاف الكثير من تنبؤاته الاخرى ، فقد انتشرت عجينة التوابل على نطاق واسع خارج ابخازيا .

فى تلك الاثناء رفع بيريا نخب لاكوبا وشرب دون ان يكشف عن مشاعره . وكان لاكوبا قد استمع الى النخب الذى رفعه ستالين من خلال الجهاز السمعى ، اما الآن فقد خلع الجهاز وانصت الى كلمات بيريا مكورا راحته جنب اذنه . وهو الآخر لم يكشف عن مشاعره ، بل راح يومئ براسه بين الحين والآخر تعبيرا عن الامتنان وتدليلا على انه سمع الكلمات .

بعد بيريا تكلم كالينين ورفع نخب لاكوبا وقال بضع كلمات عن اشباه المتعلمين الذين انفصلوا عن الشعب من زمان . اعجب ستالين بكلماته فمال عليه ليقبله ، لكن كالينين جفل على غير المتوقع ليتفادى تلك القبلة .

قطب ستالين حاجبيه ، فدهش العم ساندرو ثانية لسرعة تبدل مزاجه . كان قبل لحظات ينظر الى كالينين بعينين متألقتين ، وفى الحال انطفأت تلك النظرة وانكمش صاحبها . ولمعت نظارات بيريا بانتعاش ، بينما حدق سكرتيرو النواحى فى وجه كالينين مرفوعى الحواجب .

وفكر ستالين : «يعنى انه معهم وليس معى ، فكيف فوتته ؟» . لقد ارتعب ليس من خيانة كالينين ، اذ ان سحقه من ابسط الامور ، بل من هاجس الخطر او الحدس الشخصى الذى خانه وكان يثق به ، وهذا افظع شىء بالنسبة له .

– لماذا اقبّل نمشك – قال كالينين وهو يتطلع الى ستالين بابتسامة جريئة – لو كنت مثلا فتاة فى السادسة عشرة لقبلتك . . .

(جمع اصابع يده اليمنى فى حفنة مترددة واشار بها ملوحا وكأنه ينصت الى ناقوس النضارة والفتوة) .

نوّر وجه ستالين ، وتنفست الصالة الصعداء . وفكر القائد : كلا ، لم يخنى حدسى .

– آه منك يا عميدى . . . – قال ستالين وهو يعانق كالينين ويقبله ، لكنه فى الواقع يعانق حدسه الشخصى ويقبله .

– ها ، ها ، ها – قهقه سكرتيرو النواحى فرحين لتبادل النكات بين الزعيمين . وانضم اليهم لاكوبا بشىء من التأخير ، فقد قص عليه العم ساندرو ، وهو جالس جنبه الآن ، النكتة التى لم يسمعها بالكامل . ودوت قهقهة لاكوبا المتأخرة بشكل غريب بعض الشىء ، فلم يتحمل بيريا واطلق ضحكة قصيرة تحتمل معنيين ، مع انها قد تعتبر صدى لقهقهة الجميع .

لكن ستالين شعر بنبرة الاهانة فى ضحكته . واستاء من تلك الضحكة فتطلع الى بيريا وقال :

– يا لافرينتى قل لزوجتك ان ترقص . . .

– حسب امرك يا رفيق ستالين – قال بيريا والقى نظرة على زوجته . فقالت محتقنة :

– انا لا اجيد الرقص يا رفيق ستالين .

ستالين يعرف انها لا تجيد الرقص .

– القائد يرجوك – همس لها بيريا مهددا .

– لماذا تقول القائد ؟ كلنا نرجوها – قال ستالين واحتوى الجوقة بنظرته واضاف : – هيا يا شباب .

راح افراد الجوقة يصفقون وينشدون فشكلوا نصف دائرة مكشوفة امام القسم الاساسى من المائدة .

– انا لا اتصنع ولا امانع ، لكنى لا اجيد الرقص حقا – قالت زوجة بيريا وهى تريد لصوتها ان يعلو على التصفيق . لكن الجميع توسلوا اليها . دفعها زوجها بخفة فمضت الى الدائرة وجلة مترددة . ولاحظ العم ساندرو برهة ان بيريا عندما ادار ظهره للمائدة همس لزوجته ، بشفتين مزمومتين ، شتيمة مقذعة .

نشرت يديها وحومت فى دورتين بصورة خرقاء وتوقفت لا تدرى ماذا تفعل . وكان واضحا انها لا تجيد الرقص بالفعل .

– عفارم عليك – قال ستالين باسما وصفق لها . وصفق الجميع لعقيلة بيريا .

– فلترقص ثريا ، نرجوك يا ثريـــا – صاحت بعض الاصوات . وكانت زوجة لاكوبا جالســـة بينه وبين العم ساندرو . تطلعت الى زوجها وبرقت عيناها السوداوان .

– اذهبي – قال لها لاكوبا بالابخازيـــة . فنظرت الى ستالين . فابتسم لها برقة . كل شيء يجرى كما اراد .

مضت ثريا السمـــراء الى الدائرة . حومت فى عدة دورات متموجة وراسها المثقل بعقدة كثيفة من الشعر مائل الى الوراء بعض الشيء . ثم توقفت فجاة جنب باتا باتارايا تدعوه الى الرقص . وسبح باتا جنبها تعلو وجهه ابتسامة متحفظة .

جلس بيريا الى المائدة مركزا ثقل راسه على يده دون ان ينظر الى الراقصين . ووقفت زوجته متحيرة جنب افراد الجوقة ، ولعلها كانت مترددة فى العودة الى مقعدها .

– يا لافرينتى – قال ستالين بصوت خافت . فتطلـــع بيريا الى القائد وعدل قامته – يبدو ان اختيارات الاطرش الجيدة لا تقتصر على الكوادر . . .

نشر بيريا يديه ولسان حاله يقول : لا حيلة لنا فى الامر ، ذلك هو المصير . وشعر العـــم ساندرو بالامتعاض ، فقد توجس خيفة على لاكوبا . وفكر : آه ، ما كـــان ينبغى للقائد ان يؤلب بيريـــا بهذه الصورة .

فى تلك الاثناء قفزت ثريا من الدائرة وعانقت زوجة بيريا وقبلتها فى عينيها . ولاحظ الجميع فى فورتها هذه تبلا خفيا ورغبة فى التخفيف من الاخفاق وتحويل الارتباك الى نكتة . صفق الجميع فرحين ، ومضت المراتان متعانقتين الى المائدة .

– فيما بعد اذكر لى عمّ دار الكلام بينهما – همس لاكوبا للعـــم ساندرو عندما دوت آخر عاصفة من التصفيق وتطلعوا جميعا الى ثريا وهى تعانق زوجة بيريا . ولاحظ لاكوبا ان ستالين قال شيئا لبيريا فنشر هذا الاخير يديه . وتصور لاكوبـــا ان الكلام ربما كان يدور حوله .

فى تلك اللحظة دوت ثلاث طلقات من مسدس . نط العم ساندرو بلمح البصر ، بينما دس فوروشيلوف مسدســـه فى القراب قبل ان

يتبدد دخانه . اثرت فيه رقصة ثريا ، وفورتها النبيلة بخاصة ، فلـــم يتمالك نفسه واطلق الرصاص بمثابة تحية قصيرة . وضج الجميـــع فرحين وراحوا يتطلعون الى السقف حيث لاحت جنب الثريا ثلاث ثقوب صغيرة يربط بينها شرخ كوميض البرق .

تساقط ملاط السقف بعـــد اطلاق الرصاص وغطى الديك الرومى البارد بنثار ابيض . القى ستالين نظرة على الديك فبدا وكانه مزين بمسحوق التجميل ، ورفع راسه وتطلع الى الثقوب السوداء فى السقف ثم نقل نظرته الى فوروشيلوف وقال :

– لمست السماء باصبعك .

احتقن وجه فوروشيلوف حتى غدا قرمزيـــا وغض بصره . فقال ستالين :

– بيننا قناص شعبى حقيقى ، دعونا نرجوه . . .

تطلع الى لاكوبا ووضع الغليون على المائدة وشرع يصفق . وصفق الجميع مؤيدين القائد مع ان احدا لم يكن يعرف حقيقة ما يريده على وجه التحديد .

فهم لاكوبا ما يراد منه ، وخفض راسه وهز كتفيه متحيرا .

– هل من موجب ؟ – قال لاكوبا وتطلع الى ستالين . وكان هذا الاخير يشعل غليونه .

– نعم ، نعم – صاح الآخرون . توقف ستالين ، وهـــو يشعل الغليون ، واومأ الى الحاضرين ولسان حاله يقول : لا حيلة فى الامر ، هذا صوت الشعب .

نشر نسطور لاكوبا يديه مرتبكا ، وراح يبحث بنظراته عن مدير المصنع ، لكن هذا هرع نحوه بنفسه فى ركضة سريعة .

– احضره – اومأ لاكوبا الى المدير المنحنى امامه .

– هل نغير ثيابه ؟ – سال المدير وكان لا يزال منحنيا .

– كلا ، احضره كما هو ، برداته . . . – انكمش وجه لاكوبا .

ملأ كاسه بالنبيذ واشـــار بيده للجميع كى يملأوا كؤوسهـــم ، ففعلوا .

– اريد ان ارفع هذا النخب ليس من اجل القائد – بدا بصوتـــه المتهدج – بل ارفع نخب تواضع القائد .

وبهذه المناسبة تحدث لاكوبا عن الحادث التالى . فى العام الفائت تلقى رسالة من الرفيق ستالين يطلب فيها ارسال كمية من اليوسفى وامر

بأن ترفق الرزمة من كل بد بفاتورة الحساب حتى يسددها حالما يستلم مرتبه .

كان ستالين يدخن غليونه متأملا ويستمع الى حديث لاكوبا . وفكر : كل ذلك حقيقة . الاطرش لا يتزلف الى ، فقد بعثت النقود من المرتب فعلا . . . وفى ذلك عبرة لكل هؤلاء السكرتيرين الذين لا يعرفون سوى رفع حواجبهم طول الحفلة .

لقد سر لان كل ما قاله نسطور حقيقة ، ولكنه نظر الى اعماق نفسه فوجد مصدرا آخر لفرحة اكثر خفاء ، وارق فى نفس الوقت . ويتلخص مصدر هذه الفرحة انه يتذكر منذ ان كتب تلك الرسالة انها ستطفو على السطح وتلعب دورها التاريخى الصغير آجلا ام عاجلا . . . فمن الذى يجيد التكهن بالمستقبل يا ترى ؟ هو ام اشباه المتعلمين ؟

وواصل نسطور لاكوبا :

— . . . هل يعقل ان جمهوريتنا تغدو فقيرة اذا بعثنا الى الرفيق ستالين حبات اليوسفى المتواضعة ؟

— لم نغرس هذا اليوسفى لا انا ولا انت يا عزيزى نسطور . الشعب هو الذى غرسه — صوب ستالين غليونه نحوه .

— الشعب غرسه — كررت صفوف الحاضرين همسا .

الشعب غرسه — كرر ستالين فى نفسه وهو يتحسس بغير وضوح التلاعب الخطير بالالفاظ والذى ينطوى عليه هذا التعبير البرئ . وفيما بعد ، عندما صقلت صيغته الرائعة «عدو الشعب» حاول البعض ان ينسبها الى اصل يعود للثورة الفرنسية الكبرى . وربما كان عند الفرنسيين شىء من هذا القبيل ، لكنه شخصيا يعرف تماما انه هو الذى استحدث هذه الصيغة ورعاها هنا ، فى روسيا ، وهيأ لها مستلزمات الحياة .

وكما هو شأن الشاعر الذى يتحسس ابعاد القصيدة المرتقبة حالما يتسنى له فجأة ان يوفق بين الكلمات ، كذلك غدت هذه الكلمات التى جاءت بالصدفة جنينا للصيغة التى ابتدعها ستالين فيما بعد .

ومن افظع الامور التفكير بأن آلية بلورة الافكار يمكن ان تكون متماثلة عند الشاعر والجلاد ، مثلما تتقبل معدة آكل لحوم البشر ومعدة الانسان السوى الطعام بنفس القدر من النزاهة . ولكن اذا امعنا الفكر نجد ان ما نتصوره لاابالية فى طبيعة الانسان هو نتيجة لاعلى درجة من الحكمة عندها .

فالامكانية متوفرة للانسان ان يغدو جلادا ، مثلما هى متوفرة له كيلا يغدو جلادا . والخيار لنا فى آخر المطاف .

ولو كانت معدة آكل لحوم البشر لا تتقبل تلك اللحوم لكان ذلك طريقا مبسطا وخطرا لأنسنته . فلا احد يعرف الى اين كانت ستتجه ميوله تلك .

لا وجود للنزعة الانسانية بدون تذليل الدناءة ، ولا وجود للدناءة بدون تذليل النزعة الانسانية . وفى كل مرة يبقى الخيار لنا ، وكذلك مسؤولية ذاك الخيار . وعندما نقول : لا خيار لنا ، يعنى ذلك اننا مارسنا الخيار . اذ اننا نقول لا خيار لنا لاننا نتحسس عبء الذنب عن الخيار الذى مارسناه .

اجهز لاكوبا على كأسه وسط عاصفة من التصفيق ، وما ان خفت التصفيق تمجيدا لتواضع القائد حتى ظهر فى الباب طباخ فى رداء ابيض وخلفه مدير المصح حاملا صحنا .

همّ الطباخ بالنكوص عندما هبت عاصفة التصفيق ، لكن المدير ابعده عن الباب بدفعة خفيفة .

كان رجلا كهلا متوسط القامة يميل الى البدانة بشعر كثيف اجعد ووجه تعوزه نضارة العافية ، كما يصادف كثيرا عند الطباخين . . .

اوقفه مدير المصح بايماءة ومضى نحو لاكوبا متشبثا بالصحن كيلا يهتز :

— الطباخ حاضر يا رفيق لاكوبا — قال المدير ومال اليه ليريه محتويات الصحن . وفيه خمس او ست بيضات تتململ .

— طيب — قال لاكوبا والقى على الصحن نظرة شزراء .

وفى تلك اللحظة فقط ادرك العم ساندرو ان نسطور لاكوبا سيهدّف على البيض . ولم يكن قد راى من قبل مثل هذا المشهد .

— بيضات دجاج رومى ؟ — سأل بيريا فجأة ومد يده والتقط بيضة من الصحن .

— كلا ، بيضات دجاج عادى — اجاب المدير وهو يقرّب الصحن منه .

— فلماذا هى كبيرة الى هذا الحد اذن ؟ — سأل بيريا وهو يتفحص البيضة بفضول . كانت البيضات كبيرة بالفعل .

— اختارها بنفسه — اطلق المدير ضحكة مبتورة واوما برأسه صوب الطباخ ليلفت نظر بيريا الى هذا الموقف الكوميدى المبيت ، لكن

بيريا لم يعر بالا للموقف الكوميدى المبيت ، وظل يتفحص البيضة . فانتاب القلق المدير وسأل :

– هل نستبدلها يا رفيق بيريا ؟

– كلا ، انا لا اقصد شيئا – انتبه بيريا على نفسه ووضع البيضة فى الصحن على عجل .

– يشعر بالغيرة من الاطرش – همس ستالين فى اذن كالينين واطلق ضحكة صامتة من بين شاربيه . واهتزت لحية كالينين فى الرد عليه .

– اعتقد ، هذا الركن افضل – قال لاكوبا وهو يتطلع الى الثريا ويومئ الى الركن المقابل لمكان وقوف الطباخ ، مثلما يحاول المصور ان يجد افضل موضع للانارة قبيل البدء بالتصوير .

– بالفعل ، افضل – اكد المدير .

– يشعر بالقلق ؟– اوما لاكوبا صوب الطباخ .

– بعض الشيء – اجاب المدير منحنيا على اذن لاكوبا .

– هدئه – قال نسطور وابتعد قليلا عن المدير ، فان انحناءته تفضح صمم الرجل .

كان الطباخ لا يزال واقفا عند الباب وعلى وجهه لاابالية كلاابالية ارانب التجريب . ولاحظ العم ساندرو فى تلك اللحظة ان اصابع يده التى تضغط على قلنسوته ترتعش طول الوقت .

اقترب مدير المصح من الطباخ وهمس فى اذنه شيئا فمضى الاثنان الى الركن المقابل ، والمدير يحمل صحن البيض بزهو وخيلاء .

وخيم الصمت . فقد اتضح الامر للجميع . توقف الطباخ فى الركن واستدار صوب الصالة ورداؤه المنشى يخشخش .

– لو كنت تعلمين ما اشد كرهى لهذا المشهد – همست ثريا ملتفتة الى نينا ، زوجة بيريا ، ولم تحر الاخيرة جوابا . كانت تنظر الى الركن بعينين متسعتين . اما ثريا فلم تنظر مطلقا الى الجهة التى يتطلع فيها الجميع .

وقف الطباخ ملتصقا بالجدار ، والمدير يكلمه طول الوقت ، فيومئ برأسه ردا عليه . وانسحب على وجهه لون العجين . التقط المدير بيضة من الصحن ، بينما راح الطباخ يتابع حركاته بعينين بيضاوين كانما تسبحان لوحدهما خارج وجهه الساكن بلا حراك . حاول

المدير ان يضع البيضة على رأس الطباخ ، لكنها تمانع ولا تريد ان تقف عموديا ، اما لان المدير نفسه منفعل واما لانها غير ثابتة تماما .

قطب نسطور لاكوبا حاجبيه . وفجأة رفع الطباخ يده دون ان يتحرك من مكانه ولمس البيضة وضيق جفون عينيه البيضاوين السابحتين لوحدهما وعثر على نقطة التوازن فثبت البيضة فيها ودلى يده برفق .

البيضة ثابتة على رأسه . تجمد منتصبا فى الركن ، ولولا تعبير عينيه لكان شبيها بمجند يتأهب للالتحاق بالخدمة العسكرية فيقيسون له طوله بهذه الوضعية .

تطلع المدير حواليه يبحث بنظرات سريعة عن مكان يضع فيه صحن البيض ، ثم دس الصحن فى يد الطباخ وابتعد على عجل الى الباب وكانه يخشى ان يبدأ اطلاق النار قبل ان يتمكن من الابتعاد عن الطباخ .

اخرج لاكوبا مسدسه من القراب ودلى فوهته الى الاسفل بحذر ورفع الزناد . التفت الى ستالين وكالينين ليقف فى موضع يمكنهما من الرؤية . فاضطر العم ساندرو ان يترك مكانه فنهض ووقف خلف ثريا وامسك ظهر مقعدها بكلتا يديه . كان العم ساندرو منفعلا جدا .

مد لاكوبا يده بالمسدس المرفوع قليلا وراح يدلى كفه ببطء حتى توقفت بلا حراك ، ولاحظ العم ساندرو فجأة كيف تحول وجه لاكوبا الشاحب الى قطعة من الحجر .

امتقع وجه الطباخ رأسا ، وتناهى عبر الصمت تصلصل البيضات على الصحن فى يده المرتعشة . ولمع العم ساندرو بغتة سائلا اصفر يطرطش على وجه الطباخ ، وبعد ذلك بلغ مسامعه صوت الاطلاقة .

– عفارم ، نسطور . – صاح ستالين وصفق بشدة . ودوى هدير التصفيق كانفجار يبشر بالفرج . وهرع المدير الى الطباخ وسحب القلنسوة من يده ومسح خده الملوث بصفار البيض ثم دس القلنسوة فى جيب ردائه .

التفت المدير الى لاكوبا ، كما يلتفت المراقب فى ميدان الرماية ليبين موضع الاصابة او يسأل عن لزوم اعداد الهدف لاطلاقة جديدة .

– هيا – قال لاكوبا . فوضع مدير المصح البيضة على راس الطباخ بسرعة هذه المرة وابتعد عائدا الى الباب ودهس فى طريقه قشور البيضة المكسورة . وتحول وجه لاكوبا من جديد الى قطعة من الحجر ، وتخشبت يده الممدودة ما عدا الكف التى هبطت على مهل كرقعة ساعة بعقرب غير مدبب .

وهذه المرة ايضا راى العم ساندرو نافورة صغيرة تنفث صفار البيض الى اعلى ، وبعد ذلك سمع اطلاقة المسدس .

– عفارم – واهتزت صالة الولائم بعاصفة من التصفيق . وانطبعت على وجه لاكوبا ابتسامة سعيدة شاحبة ، فخبا المسدس ، لكن الطباخ ظل واقفا فى الركن ينتظر عودة الروح .

– اجلسيه الى المائدة – امر لاكوبا زوجته بالابخازية .

التقطت ثريا فوطة وهرعت الى الطباخ . وتبعها المدير راكضا ، فدس الطباخ صحن البيض فى يده غاضبا هذه المرة . وقفت ثريا امامه تمسح وجهه بالفوطة وتكلمه ، وهو يومئ براسه فى شعور من الكرامة الشخصية . جلس مدير المصح القرفصاء ووضع صحن البيض جنبه وراح يجمع فيه القشور المنثورة .

حاولت ثريا ان توصل الطباخ الى مكانه ، وبالفعل سار معها قليلا ثم توقف فجاة وخلع الرداء ورماه الى مدير المصح . ولعل ما حدث يمنحه لبعض الوقت حقوقا من هذا النوع ، فاراد بذلك ان يقول للحاضرين ان مجازفته ليست مجانية ، بل هى تعود عليه بمنافع غير قليلة .

وعندما مرق مدير المصح الى الباب والرداء على كتفه وصحن البيض فى يده فكر العم ساندرو مندهشا ان الطباخ والمدير كان يمكن ان يحلا محل بعضهما البعض ، وان المصادفات تلعب دورا كبيرا فى الحياة .

اجلست ثريا الطباخ جنب آخر الزعماء الاوطا مرتبة واول سكرتيرى لجان النواحى ، وملأت له كاسا من الكونياك وقدمت له صحنا ووضعت فيه قطعة من لحم الدجاج الرومى ورشتها بصلصة الجوز .

احتسى الطباخ الكونياك فى الحال وراح يتفحص المائدة ويومئ براسه ايماءات ذات شأن وهو يستمع الى ثريا .

وفكر العم ساندرو : مسكينة ثريا ، انها تحاول التكفير عن خطيئة الرماية التى لا تحبها اطلاقا ، لا سيما وانها انتهت ذات مرة بأذى كبير .

حدث ذلك فى احدى القرى الابخازية ، حيث بدأت الرماية على هدف بعد وليمة كبرى . ولعل لاكوبا لم يكن منتبها بالقدر اللازم والرماية سارية على مجرد هدف ، او ربما لسبب آخر ، الا انه اصاب احد فتيان القرية بجراح ، وكان هذا الفتى يتراكض بين حين وآخر ليتاكد من اصابة الهدف . واتضح ان الجرح ليس خطيرا ، فنقلوا الفتى فى الحال ، بسيارة لاكوبا «البيوك» ، الى مستشفى الناحية .

وعاد لاكوبا فى السيارة الثانية مع سائر اعضاء الحكومة . وفى طريق العودة تشاجر احد اعضاء الحكومة مع لاكوبا حتى انزله من السيارة فى منتصف الطريق .

ويقال ان الوزير خاطبه آنذاك قائلا : «مللت من افراحك العشائرية» . ويصعب التاكد الآن مما جعل لاكوبا يوافق على النزول من السيارة . ربما لانه كان متأثرا لما حدث لدرجة لم ير فيها امكان مقاومة مثل هذه الاهانة . اما انا فاعتقد ان الشخص الذى انهال عليه بالتقريع كان اكبر منه سنا . واذا كان ذاك الشخص قد قال له شيئا من قبيل التحدى : اما ان تنزل انت من السيارة او انزل انا ، فان لاكوبا ، بصفته ابخازيا حقيقيا ، ما كان بوسعه ان يقبل هذا التحدى فنزل من السيارة فى اغلب الظن .

. . . عندما خبا نسطور لاكوبا المسدس واستدار صوب المائدة استقبله ستالين واقفا بيدين مفتوحتين . اقترب منه نسطور باسما باستحياء فعانقه ستالين وطبع قبلة على جبينه .

– يا عزيزى وليم تل – قال له وتذكر شيئا ما فجاة فالتفت الى فوروشيلوف – وانت ، من ؟

– انا فوروشيلوف – اجابه الرجل بشىء من الصلابة .

– اقصد من منكما الافضل فى الرماية ؟ – سأل ستالين ، فشعر العم ساندرو بالارتباك من جديد . وفكر : لا موجب لتاليب فوروشيلوف على صاحبنا لاكوبا .

– نسطور افضل منى بالطبع – اجاب فوروشيلوف بلهجة مصالحة .

– فلماذا تتخطر وكانك حائز على وسام الرماية الفخرى ؟ – سأله ستالين وجلس متلذذا بما ستتركه تلك الاهانة السافرة من آثار طويلة الامد .

اخذ سكرتيرو النواحى ينصتون مستغربين وقد صاروا يواجهون صعوبة فى رفع حواجبهم الثقيلة . اما لاكوبا فقد انسحب بهدوء وجلس فى مقعده .

– كفاية يا يوسف – قال فوروشيلوف وتناثرت على وجهه بقع قرمزية وهو يتطلع الى ستالين بعينين متوسلتين .

– كفاية يا يوسف . . . – قال ستالين والقى على فوروشيلوف نظرة عتاب – هذا ما يقوله انتهازيو العالم كله . فهل بدأت انت ايضا ؟

طاطا فوروشيلوف راسه واحتقن وجهه وانتفخت اوداجه .

– خبريهم ان ينشدوا اغنيته المحببة – همس نسطور فى اذن

زوجته . فنهضت ثريا بهدوء وأقتربت من ماخاز الجالس فـــى منتصف المائدة . لاكوبا يعرف ان تلك هى احدى الوسائل الناجعة لوقف تقلبات الزعيم السوداوية المفاجئة .

طفق ماخاز ينشد اغنية الولائم الجورجية القديمة «حلقى يا سنونوتى السوداء» . وفى تلك الاثناء رفـع فوروشيلوف راسه ليقول شيئـــا لستالين ، لكن هذا الاخير رفع يده فجاة فى حركة متوسلة ولسان حاله يقول : اتركنى وشأنى ، اريد ان استمع الى الاغنية .

جلس ستالين مسندا راسه الثقيل باحدى يديه ، بينما تقبض الاخرى على الغليون المنطفئ .

لم يكن يشعر بمثل هذه اللذة البالغة لا من السلطة ولا من دمـــاء الاعداء ولا من النبيذ . فهذه الاغنية تخلص روحه دوما من عقال التوجس الابدى برقتها التى تذوب الحديد وببسالة الاذعان التى لا يعرف مذاقها ابدا . لكن مفعولها لا يشبه مفعول الهياج والصراع ، فما ان ينتهى مفعول الهياج بهلاك العدو حتى تبدأ النشوة ، ويقطر النصر عندئذ بسم جثث المغلوبين .

كلا ، فالاغنية تخلص روحه بطريقة اخرى . انها تصبغ حياته كلها بلون المصير الخيالى الذى تتحول فيه اموره الشخصية الى قضية مصيرية لا وجود فيها للجلادين والضحايا ، لكن فيها حركة المصير والتاريـــخ والضرورة الفاجعة التى تطالبه بأن يشغل مكانه فى هذا الموكب التأبينى . ولا يهم ان يشغل فى هذا الموكب افظع مكان ، لكنه اعظم مكان .

حلقى ، يا سنونوتى السوداء ، حلقى . . .

وبالتدريج يبتعد موكب المصير التأبينى هذا ويغدو خلفية بعيـدة للوحة اسطورية . . .

ويخطر على باله يوم خريفى دافئ ، يوم جنى الاعناب . يغـــادر بستان الكرم فى عربة تغص بسلال العنب . ينقل العنب الى البيت ، الى المعصرة . العربة تبعث صريرها والشمس تدفئ ، ومن الكروم فى الخلف تتناهى اصوات الاهل وصيحات الاطفال وضحكاتهم .

جنب السياج فى شارع القرية توقف فارس لا يعرفه ، لكنه لسبب ما يدرك انه ضيف من كاخيتيا . الفارس يحتسى الماء من قدح معدنـى قدمه له ، عبر السياج ، احد فلاحى القرية . فالبئر جنب السياج ، ولذا توقف الفارس هنا بالذات .

مرت العربة جنب الفارس والفلاح فاومأ لهما براسه محييا وابتسم

ابتسامة عابرة للفارس الذى راح يتفرس فى وجهه ويستشف من خـلال ملامح الكرمى المتواضعة ماهيته العظيمة . وقد ابتسم ابتسامته العابرة لهذا الاستشفاف بالذات ملمحا للفارس بانه شخصيا لا يعير اهتمامـا كبيرا لماهيته العظيمة .

مرت العربة ، لكنه يشعر بأن الفارس الكاخيتى لا يزال يشيعـــه بنظراته ، حتى انه سمع الحوار الذى دار بينه وبين الفلاح .

– من هذا الرجل ؟ – سأل الضيف القادم من كاخيتيا وهو يصب بقية الماء من القدح ويعيده الى صاحبه .

– جوغاشفيلى الشهير – قال له الفلاح بسرور .

– هل يعقل انه نفسه ؟ – دهش الفارس الكاخيتى – تصورت انـه يشبهه ، ولكن من غير المعقول . . .

– نعم – اكد الفلاح – انه جوغاشفيلى نفسه . وقد رفض ان يكون حاكما لروسيا باسم ستالين .

– عجيب ، لماذا رفض ؟ – دهش الضيف الكاخيتى .

– المشاكل كثيرة – اوضح الفلاح – ولا بد من اراقة دماء غزيرة ، كما يقول .

– عجيب – قال الضيف مستغربا – انا لا استطيع ان اتخلى عـن فسيل كرم واحد ، بينما هو يتخلى عن روسيا كلها .

– وما حاجته الى روسيا – اوضح الفلاح – عنده مزرعـة رائعـة وعائلة رائعة واطفال رائعون . . .

– يا له من رجل غريب الاطوار – ظل الضيف مندهشا وهو يتابع العربة التى استدارت صوب المنزل – تخلى عن بلد باكمله . . .

نعم ، تخلى عنه – اكد الفلاح – لانه يشفق على الفلاحين ، كمـــا يقول . فهو مضطر ، فى تلك الحالة ، الى توحيدهم جميعا . امـا الآن فيريد لهم ان يعيشوا كما يحلو لهم ، وليكن لكل منهم ، كما يقـــول ، خبزه ونبيذه . . .

– الله يعطيه العافية – هتف الفارس – ولكن من اين يعرف مـا سيحصل للفلاحين ؟

– انه من العرافين ، يرى كل شىء مسبقا – قال الفلاح .

– الله يعطيه العافية – قال الضيف – ربنا يخليه . . .

رفض يوسف جوغاشفيلى ان يشغل منصب ستالين ، وها هو فـــى عربته يترنم باغنية السنونوة السوداء . الشمس تدفىء وجهه ، والعجلات

تصر ، وهو يستمع بابتسامة هادئة الى حديث الفلاح الساذج ، والصادق فى الواقع .

ها هو يدخل بوابة حوشه المفتوحة ، حيث ينتظره احد الفلاحين فى ظل شجرة التفاح ، ويبدو ان الفلاح جاء اليه ينشد النصح . نهض الفلاح وانحنى له باحترام . لا حيلة فى الامر : انه مضطر للتحدث معه وتزويده بنصح رشيد . الكثيرون يترددون عليه لهذا الغرض . . . اليس الافضل ان يستلم زمام السلطة ليقدم النصح لهم جميعا دفعة واحدة ؟

الدجاجات الثملى من حثالات العنب المعصور تتخطر فى الحوش مستغربة من حالتها العجيبة ، والفلاح الذى انتظره ينحنى باحترام ، وامه تتطلع من المطبخ بعد ان سمعت صرير العربة وتبتسم لابنها ، امه الطيبة العجوز المتغضنة الوجه ، الحمد لله الذى منحها الاحترام والتقدير فى الشيخوخة ، والنعمة فى آخر المطاف . . . امه الطيبة . . .

حلقى ، يا سنونوتى السوداء ، حلقى . . .

رفع راسه ، وتطلع الى سكرتيرى النواحى ، وكانوا ينشدون ، فعاد اليه الهدوء بالتدريج . كل موجة جديدة من الاغنية تغسل وجوههم وترفع الاقنعة المزرية بحواجبها المندهشة المرفوعة ، وتظهر من تحتها وجوه الفلاحين والصيادين والرعاة بمزيد من الوضوح والاعتماد على النفس (طالما هم يغنون فالاعتماد على النس ممكن) .

حلقى ، يا سنونوتى السوداء ، حلقى . . .

يتصورون السلطة عسلا – فكر ستالين . كلا ، السلطة تجعلك لا تحب احدا على الاطلاق . تلك هى السلطة . فالانسان يمكن ان يعيش حياته كلها دون ان يحب احدا ، لكنه يشعر بالتعاسة عندما يعرف بانه لا يستطيع ان يحب .

انا ، مثلا ، احببت الاطرش ، وانا اعرف ان بيريا سياكله بعظامه وجلده ، لكننى لا استطيع ان انقذه ، لانه يعجبنى . السلطة هى ان يتعذر عليك ان تحب احدا . فما ان تحب احدا حتى تبدأ تثق به ، وطالما بدأت تثق به فلا بد ان يطعنك فى ظهرك آجلا ام عاجلا . اجل ، انه يعرف ذلك . فقد احبوه وتلقوا جزاء ذلك الحب آجلا ام عاجلا . الحياة لعينة ، طبيعة الانسان لعينة . يا ليتنا نستطيع ان نحب ولا نثق بمن نحب فى وقت معا . هيهات ، ذلك مستحيل .

واذا كنت مضطرا لقتل من تحب فالعدالة نفسها تتطلب الانتقام ممن لا تحب ، من اعداء القضية .

نعم ، القضية – فكر ستالين – طبعا ، القضية . كل شىء يجرى فى سبيل القضية – فكر وهو ينصت مندهشا الى صوت هذه الفكرة الخاوى . وخطر على باله : ذلك بفعل الاغنية . يجب ، عموما ، منع هذه الاغنية ، فهى خطرة ، لاننى احبها جدا . وفكر ستالين : سخافة ، ستكون الاغنية خطرة لو استطاع الآخرون ان يتحسسوها بنفس العمق الذى اتحسسها به . . . لكن احدا ، سواي ، لا يستطيع ان يتحسسها بمثل هذا العمق . . .

صب لنفسه كاسا من النبيذ ، وهو يستمع الى الاغنية ، وشربه صامتا دون ان ينظر الى احد . وضع الكاس والتقط من على المائدة غليونه الذى انطفأ من زمان ، وحاول عدة مرات ان ياخذ نفسا دون جدوى . لاحظ ان الغليون منطفئ ، لكنه ظل يمصه عمدا وكانه لا يزال غارقا فى تاملاته . علبة الثقاب تستقر جنبه ، لكنه ينتظر ان ينتبه احد ويقدم له الثقاب .

فاشفق على نفسه وفكر : تموت بهذه الصورة ولا احد يقدم لك جرعة ماء . لكن كالينين اشعل عود الثقاب وقربه من الغليون .

ظل ستالين غارقا فى تاملاته ينتظر حتى يبلغ لهيب الثقاب اصابع كالينين ، وعندما قرب وجهه من عود الثقاب واشعل غليونه لاحظ اللهيب الخفيف يمس اصابع الرجل المرتجفة . لا يهم – فكر ستالين – فهل من العدالة ان اتعذب لوحدى ؟

اخذ نفسا بارتياح ومال على ظهر المقعد . ووقع بصره على فوروشيلوف . كان هذا الاخير لا يزال جالسا الى المائدة مطاطئ الراس مقطب الحاجبين ، كطفل مغتاظ . وفجأة شعر ستالين باشفاق شديد عليه ، وفكر : اهلك نفسه هو ايضا . وخاطبه بصوت مكتوم من شدة الانفعال .

– يا كليم ، اين تساريتسين * واين نحن ، يا كليم ؟

---

* المقصود معركة تساريتسين (فولغوغراد حاليا) ١٩١٨–١٩١٩ ، ابان الحرب الاهلية ضد قوات الحرس الابيض . قاد القوات السوفييتية فيها ستالين وفوروشيلوف ، ثم يفوروف . – **الناشر** .

– لماذا اهنتنى يا يوسف ؟ – رفع كليم فوروشيلوف رأسه والقى على ستالين نظرة موالية مريرة .

– اعذرنى ، يا كليم ، اذا كنت اهنتك – قال ستالين معتذرا ومعجبا باعتذاره – لكنهم يهينوننى واياك اكثر . . .

– لا تهتم ، يا يوسف ، ستاخـــذ حيفك منهم . . . – هتـــف فوروشيلوف متاثرا جدا لان القائد لا يفهم اهاناته فحسب ، بل يضعها فى خانة واحدة مع الاهانات التى يتعرض لها هو نفسه .

– اعتقد ، سآخذ حيفى – قال ستالين بلهجة متواضعة ونفث دخان التبغ . وانتهت الاغنية ، وانبجس من ذهنه الصافى سيل مـــن الافكار الغائمة المترددة .

«هل يجوز الزعل عليه ؟» – فكر فوروشيلوف منشرح الصدر وراح يتطلع الى الزعماء الآخرين بصورة غير ملحوظة ليتاكد مما اذا كانوا قد سمعوا ثناء ستالين عليه . واستمر فوروشيلوف فى تفكيره معجبا : ما ادق فهمه لاعدائى فى قيادة الجيش ، فهو يعتبرهم استمرارا للخط المعادى للستالينية فى قيادة جهاز الدولة .

– يا رفيق ستالين ، ماذا نفعل مع سولوكيدزه ؟ – سأل بيريا وكان قد استمع بكل اهتمام لكلام ستالين . كان يريد ان يسأل عـن ذلك من زمان ، فتصور ان اللحظة المناسبة حانت .

والقضية ان هذا البلشفى القديم من الرعيل اللينينى قد نحى عـن كافة الشؤون من زمان ، لكنه ظل ينغز ويثلب فى كل المناسبات . فهو الذى طرح الفكرة التى تلقفها شيوعيو جورجيـــا والقائلة بأن بيريـــا يتوق ، والموزر بيده ، الى الهيمنة على القيادة الحزبية فى مـــا وراء القوقاس («هل يتوجب على ، يا سفلة ، ان اتوق الى القيادة وفقا لبرنامج ايرفورت ؟ الم تغوصوا مع هذا البرنامج فى الادران ؟») .

لو كان قائل هذا الكلام شخصا آخر (بعد ان وصل بيريا الى القيادة) لشنقه وعلقه من لسانه من زمان ، لكنه يخشى ان يمس هذا الرجل . فان قضيته ليست واضحة بالتمام والكمال . ستالين نفسه اباد الكثيرين من البلاشفة القدامى ، لكنه لسبب ما احتفظ ببعضهم وقلدهم الاوسمة .

– وماذا فعل ؟ – سأل ستالين وتطلع فى عينى بيريا .

– مخرف يثرثر بما لا يليق . – قال بيريا وهو يحاول ان يكتنه افكار ستالين بهذا الخصوص قبل ان يعرضها هو نفسه .

– يا لافرينتى ، جئت الى هنا لاتمتع باجازتى المشروعة فلمـاذا

توجه الى مثل هذه الاسئلة ؟ – قال ستالين متجهما لانه لـــم يعثر على القرار اللازم .

– كلا ، يا رفيق ستالين ، اردت ان استشيرك لا اكثر – اجـاب بيريا على عجل ، وهو يحاول ان يستبق تجهم ستالين ويبين له ، مـن نبرات صوته ، انه يعتذر ولا يعير هذا السؤال اهتماما كبيرا . وخطرت فى باله فكرة سارة : من حسن الحظ اننى لم ابعثه الى القبر .

– . . . لينين ايضا لم يكن يحب الثرثاريـن . – قال ستاليـــن متأملا .

– اليس الافضل ان نفصله من الحزب ، وليذهب الى الجحيم ؟ – سأل بيريا منتعشا . فقد خيل اليـه ان ستالين لا يمانع مع ذلك فـــى معاقبة ابن الكلب هذا .

– لا نستطيع ان نفصله – قال ستالين ، واضاف موضحـــا : – لسنا نحن الذين قبلناه فى الحزب ، لينين قبله . . .

– فما العمل ؟ – سأل بيريا وقد اسقط فى يده .

– عنده اخ ، على ما اعتقد ، فاين هو الآن ؟ – سأل ستالين .

– حى يرزق يا رفيق ستالين – قال بيريا واقشعرا بدنه – يعمـل مديرا لمصنع الليمونات فى باطوم .

غرق ستالين فى تأملاته ، بينما اقشعر بدن بيريا لانه لم يكن يعرف سابقا بوجود شقيق سولوكيدزه . وعندما جمع فى العام الفائت المواد اللازمة ضد هذا البلشفى البارز فى السابق عرف لاول مرة بوجود اخيه . طلب بيريا مراد عن هذا الاخير . فوصلت من باطوم لكنها لا تنطوى على شىء يستحق الذكر . فهذا الرجل لم يسرق مرة فى معمل الليمونات . لكن علم بيريا بوجود هذا الشخص وعمله وحياته نفعه الآن . فتلك امـور تعجب ستالين .

– كيف يعمل ؟ – سأل القائد بصرامة .

– جيدا – قال بيريا بثقة ملمحا الى ان نفوره من الثرثار لا يشمل اقاربه اطلاقا ، وان معرفة الخصال العملية لدى مدير معمل الليمـونات نتيجة بسيطة لمعرفة المسؤول الحزبى القيادى بالكوادر .

– فليأسف هذا الثرثار مدى العمر – غرز ستالين غليونه فى الثرثار الغائب – لانه اهلك اخاه .

– فكرة عبقرية – هتف بيريا .

– لا سيما وان اواصر القربى لا تزال متينة جداً عندكم فى القوقاس

– اوضح ستالين سير افكاره – فليأخذ باقى الثرثارين عبرة من ديالكتيك العقاب .

ادرك بعض سكرتيرى النواحى ان ستالين عزل نفسه عن القوقاس باقواله هذه فتطلعوا اليه بملامة كئيبة ولسان حالهم يقول : «لماذا يتمتنا ؟» .

– اتعلم طول عمرى – قال بيريا ونشر يديه .

– ولكن ليس على حساب اجازتى يا لافرينتى – اطلق ستالين هذه النكتة الصارمة التى اثلجت صدر لاكوبا . فهو يرى من غير اللائق ان يستجدى بيريا من ستالين هنا ، اثناء الوليمة فى ابخازيا ، سماحا بالتنكيل بخصومه . وفكر لاكوبا : بيريا يحشر نفسه ويستبق الاحداث دوما ، وانا المذنب لانى عرفته على ستالين . الوقت مناسب الآن لارفع نخب الشقيق الاكبر ، الشعب الروسى العظيم . وليس من قبيل الصدفة ان قال ستالين : عندكم فى القوقاس . . . يعنى انه صار يعتبر نفسه روسيًا . . .

اوما بالاشارات الى الطرف الثانى من المائدة ليصبوا للجميع .

– ارفع هذه الكاس – قال لاكوبا بعد ان نهض شاحبا عنيدا لا يقوى عليه السكر فى آخر الليل – نخب شقيقنا الاكبر . . .

وعادت الروح الى ليل الوليمة . وشربوا من جديد ، واكلوا ورقصوا ، حتى الم الدوار بعض الشىء براس العم ساندرو اعظم عريف لمحافل جميع العصور والشعوب . فان ما رآه خلال ليلة واحدة من امور رهيبة ورائعة كثير حتى عليه .

ارخى عريف الحفل لاكوبا عنان الوليمة الذى كان يشده ، فقد احس بان القائد بدأ يمل من صرامة نظام المآدب القوقاسية .

– نتوسل الى ثريا الحسناء ، نرجوك – صاح كالينين وهو يصفق ويحنى بود راسه المتلحى .

– «العمر الطويل» – صاح الجالسون عند الطرف الثانى من المائدة وايدهم آخرون طالبين اغنية الولائم القوقاسية هذه .

– انت فارس القوم الآن – صاح ماخاز من ذاك الطرف والتقت نظراته بنظرات العم ساندرو – هبط عليك النعيم بغتة .

– شعرى اجعد كالسرخس – قال الطباخ لاحد السكرتيرين وجعله يلمس شعره – والبيضة تستقر فيه كما فى العش .

– هناك مجازفة على اية حال – قال السكرتير وهو يلمس شعر الطباخ عابسا .

– زوجات الآخرين . . . – تمتم بيريا ودلى راسه ثقيلا على يديه .

– يا عزيزى ، افهمنى . . . شعرت بالخجل ، ثم انه لم يزعل اطلاقا . – اجابته زوجته .

– سنتناقش الموضوع فى البيت . . .

– يا عزيزى . . .

– لست عزيزك بعد الآن . . .

– يا عزيزى . . .

– زوجات الآخرين . . .

– اى مجازفة يا اخى ؟ شعرى مرتفع عن راسى ثلاثة اصابع – قال الطباخ فرحا ليصرف سكرتير اللجنة المحلية عن اعتقاده ، لا سيما وانه نظر الى راسه بارتياب .

– الم يصب الراس ؟

– كلا ، بالطبع – قال الطباخ مسرورا لسذاجة السكرتير – المجازفة قليلة لكن الخوف كثير .

– مجازفة على اية حال ، فهو ثمل . . . – ظل السكرتير متمسكا برايه فى عبوس .

– يقول «عندكم فى القوقاس» – هز سكرتير آخر راسه – هل اسأنا اليه ؟

– ارجوك يا اخى شوتا لا تزعل على الزعيم – هدأ رفيقه من روعه .

– انا مستعد للتضحية بالنفس من اجله ، لكن روحى تتعذب – اجاب ذاك والقى نظرة متيتمة على الطرف الثانى من المائدة .

– ارجوك يا اخى شوتا لا تزعل على الزعيم . .

– يا محظوظ – صاح ماخاز الثمل عندما التقت نظراته بنظرات العم ساندرو – ابخازيا كلها فى جيبك الآن .

هز العم ساندرو راسه بملامة ملمحا الى خشونة هذه الصيحات ، لا سيما وانه جالس بين اعضاء الحكومة . لكن ماخاز لم يفهم تلميحات العم ساندرو .

– لا تتظاهر بانها ليست فى جيبك ، لا تتظاهر يا محظوظ – صاح ماخاز .

– لماذا يصيح طول الوقت ؟ – حتى لاكوبا التفت صوب ماخاز .

– سخافات – قال العم ساندرو وفكر : «من حسن الحظ انه يصيح بالابخازية وليس بالروسية» .

– تلك قضية بسيطة – حاول الطباخ ان يسلى السكرتير المتجهم – كنت فى عهد الامير اولدينبورغ اتعلم فن الطهاة هنا فى غاغرى . وكان الامير يتعكز على عصا مثل القيصر بطرس الاكبر ، ويتذوق طعام العمال بنفسه ، ويصادف ان يضرب الطباخين بالعصا ، ولكن ليس بدون سبب .

– مجازفة مع ذلك – هز السكرتير راسه متجهما . وقد شعر بأنه افرط فى الشراب وتلكأت افكاره وتوقفت عند رماية البيض .

– تلك قضية بسيطة – حاول الطباخ ان يسليه بذكريات مدهشة – وصل الى هنا صاحب الجلالة الامبراطور . . .

– لماذا تكذب ؟ – خرج السكرتير عن الموضوع على مضض .

– اقسم بالمسيح ، وصل فى طراد . توقف الطراد فى عرض البحر . . . ونقلوا القيصر بقارب الى رصيف المرسى ، اما الامبراطورة فلم ترغب فى النزول ، واغتاظ الامير .

– دسائس البلاط – قاطعه السكرتير بتجهم .

. . . فى الصباح الباكر ، عندما امر لاكوبا مدير المصح بأن يزيح الستائر الثقيلة واطل فجر اغسطس الوردى الرقيق على صالة الحفلات راى هذا الفجر (الوردى الرقيق) كثيرا من سكرتيرى لجان النواحى نائمين وراء الموائد ، بعضهم فى مقاعدهم ، وبعضهم على الموائد مباشرة .

دس الاصدقاء حبة فجل فى فم احد النائمين على المقاعد ، مما حيّر الفجر الوردى الرقيق وادهشه ، فلم تبق على المائدة خنانيص بين اسنانها حبات فجل ، ولا احد ، سوى العارفين ، يفهم المقارنة المازحة بين الظاهرتين .

تقدم افراد الجوقة من ستالين الواحد تلو الآخر ، وكان هو يأخذ من المائدة حفنات من الحلوى والبسكويت واللحوم والدجاج المقلى والمخبوزات وغيرها ، والراقصون يرفعون اذيال قفطاناتهم او يقدمون قبعاتهم ليضع القائد الهدايا والنعم فيها ثم يشكرونه وينصرفون .

– اذهب – كان ستالين يقول للراقص بعد ان يسلمه حصته . وقد حاول ان يوزع الهدايا بالتساوى ، فيلقى نظرة على قطع اللحم

والدجاج المقلى ، واذا راى القطعة المقدمة لاحدهم صغيرة يعطيه كمية اكبر من طعام آخر . بهذه الصورة تعود عمدة القرية او رب المنزل على توزيع ارزاق الطريق والجيرة على الضيوف بعد الولائم الفخمة .

– سيسجلون فاتورة الحساب على ستالين فى كل الاحوال – اطلق القائد نكتة وهو يضع الاطعمة فى اذيال القفطانات المنشورة امامه – سيقولون فى كل الاحوال ان ستالين اكل هذا الطعام باجمعه . . .

وطالما الامر كذلك والمزة فى الجيب ، تغامز بعض افراد الجوقة واخذوا قناني النبيذ من المائدة .

* * *

عادت الجوقة الى موخوس فى ثلاث سيارات مكتظة . وقد حدثت بلبلة عندما استقلوا السيارات . جلس مدير الجوقة بلاتون بانتسولايا ، بالطبع ، جنب سائق السيارة الاولى . والمفروض ان يجلس جنب سائق السيارة الثانية ، كالعادة باتا باتارايا . دس راسه فى الباب المفتوح لكنه سحبه وعرض على العم ساندرو ان يصعد . وكان هذا واقفا جنبه بالصدفة (على ما نظن) .

رفض العم ساندرو ، لكنه بعد مماحكة مؤدبة رضخ لاصرار باتا باتارايا وجلس جنب سائق السيارة الثانية .

وقرروا ان يتوقفوا عند نهر غوميستا ليختاروا موضعا جميلا هناك ويتناولوا طعام الفطور على العشب . كانوا مرحين ينشدون الاغانى فى الطريق . وصادفوا صبية فالقوا لهم بالحلوى والبسكويت ، وتراكض الصبية لجمع هبات الخالق . وابتسم الراقصون متعبين :

– آه لو كانوا يعلمون من اى مائدة .

وراء قرية ايشيرى ، حيث يمر الطريق وسط خمائل السرخس والعليق والجوز البرى ، اعترض السيارات فجاة قطيع صغير من الماعز . فرملت السيارات فاجتازت الماعز الطريق وهى تنخر وتهز لحاها . ولم يكن الراعى معها ، لكن صوته يتناهى من وراء الشجيرات ، اذ تاخرت معزى هناك وراح يستحثها :

– هيا ، هيا – صاح الصبى ، وانفعل العم ساندرو لصوته الذى تحسس فيه نبرة من القلق الغريب . كان الصبى يرمى المعزى بالحصى بين حين وآخر فتقع على الارض برنين مكبوت بعد ان تمس الشجيرات

الكثيفة المتشابكة . وعندما اصابت احدى الحصى المعزى المتخفية خيل للعم ساندرو بانه حدس قبل لحظة من ذلك ان هذه الحصاة بالذات ستصيبها . وعندما خرجت المعزى ثاغية من بين الشجيرات وظهر الصبى فى اعقابها ورأى السيارات الثلاث وتوقف مرتبكا تذكر العم ساندرو كل شىء واقشعر بدنه من شدة الانفعال .

اجل ، حدث ذلك بهذه الصورة تقريبا . كان الصبى يقتاد الماعز الى سابيد ، وتخلفت معزى ، مثل هذه ، بين الشجيرات . وكان هو ايضا يرميها بالحصى ويصيح ومثلما اصابها الصبى الآن بالحصاة قفزت من بين الشجيرات ثاغية ، وفى اعقابها ظهر الصبى نفسه وتجمد من هول المفاجأة . على بعد خطوات منه مر شخص على الدرب يقتاد خيولا محملة . عندما سمع الرجل طقطقة الشجيرات انتفض والقى على الصبى ذى العينين الزرقاوين نظرة حاقدة لم ينظر اليه احد بمثلها ابدا .

خيل للصبى للوهلة الاولى ان الرجل غضب بسبب اللقاء المفاجئ ، لكن ذاك ادرك ان امامه صبيا ومعزى ولا احد سواهما ، فالقى عليه نظرة اخرى وكأنه يريد ان يبت فى لمح البصر : ماذا يفعل له ؟ أيقتله ام يتركه وشأنه ؟ مضى فى طريقه دون ان يبت فى هذه المسألة . انتفض وعدل البندقية التى انزلقت من على كتفه المائلة .

كان الرجل يسير بسرعة بالغة ، وخيل للصبى انه تركه على قيد الحياة لضيق الوقت لا اكثر . ولم تكن فى يد الرجل عصا او سوط ، فاستغرب الصبى لان الخيول تسير بتلك السرعة بدون زجر .

وبعد لحظات ضاع الدرب فى الاجمة ، واختفى الرجل مع خيوله . لكنه فى اللحظة الاخيرة ، قبل ان يختفى وراء الشجيرات بخطوة واحدة ، عدل من جديد بندقيته التى انزلقت من كتفه المائلة ، والتفت فاحتوى الصبى بنظرته . وخيل للصبى انه سمع همسا واضحا فى صيوان الاذن :

— اذا ابلغت سأعود واقتلك . . .

ابتعد القطيع مسافة كبيرة تحت . ركض الصبى على المنحدر الاخضر ليلحق بماعزه . وهو يعرف ان الاجمة التى دخلها الرجل مع خيوله ستنتهى قريبا وان الدرب يؤدى الى منحدر مكشوف على الطرف الآخر من منخفض «سابيد» .

عندما بلغ الصبى قطيعه راكضا وتطلع الى اعلى رأى الخيول المحملة تظهر الواحدة تلو الاخرى على المنحدر الاخضر هناك . ثمانى خيول ورجل

واحد ، واضحة المعالم على الخلفية الخضراء للمنحدر المعشوشب ، اجتازت الخلاء بسرعة واختفت فى الغابة . ولا يزال الصبى يلاحظ من مسافة كيلومتر تقريبا ان الخيول وصاحبها تسير بسرعة بالغة . وهنا ادرك الصبى ان هذا الرجل ليس بحاجة الى العصا او السوط ، فهو من اولئك الذين تخشاهم الخيول حتى بدون زجر .

قبل ان يختفى الرجل فى الغابة التفت من جديد ونفض كتفه ليعدل من جديد وضعية البندقية المنزلقة . ومع ان الصبى لم يعد يرى وجهه بوضوح فهو واثق من ان الرجل التفت بغيظ شديد .

بعد يوم وليلة بلغت «شيغيم» اشاعات تقول ان اشخاصا نهبوا سفينة قادمة من اوديسا الى باطوم . وقد عمل اللصوص بدقة وبلا رحمة . تمكنوا من استمالة اربعة بحارة للمشاركة فى السرقة ، ناهيك عن رجل آخر كان ينتظرهم قرب كينغورسك مع الخيول التى اشتروها مسبقا . فى الليل ربطوا ربان السفينة وملاح دفتها وعددا من البحارة وحبسوهم فى قمرة الربان . وانزلوا القوارب وشحنوها بالمسروقات وتوجهوا الى الساحل .

وفى مساء اليوم التالى وجدت جثث البحارة الاربعة فى مستنقع قرب بلدة تاميش . وبعد يوم عثر على جثتين اخريين نهشتهما بنات آوى حتى تعذر التعرف على هويتهما . وتصور الناس ان اللصوص تشاجروا ، فنقل الاثنان اللذان ظلا على قيد الحياة الشحنة الى جهة غير معروفة ، وربما هلكا فى المستنقعات . ومع ذلك عثر بعد بضعة ايام ، على مقربة من «شيغيم» ، على جثة اخرى لرجل قتل برصاصة فى الظهر والقى به من طريق رعوى شديد الانحدار حتى كاد يهوى على رؤوس اهالى قرية نا الواقعة تحت هذه المنحدرات الشديدة مباشرة . لم تكن الجثة مشوهة ، واتضح انها لرجل اشترى قبل شهر خيولا من قرية جغيردى .

قابل اهالى «شيغيم» هذه الحادثة بهدوء نسبيا ، لان مشاكل الوادى غريبة عليهم ، وخصوصا اذا كانت تتعلق بالسفن . لكن الصبى هو الوحيد الذى ادرك مرتعبا انه رأى ذلك الرجل فى منخفض «سابيد» .

بعد زهاء عشرة ايام من ذاك اللقاء جاء الى منزلهم فارس فى عباءة ابخازية ، لكنه يرتدى طاقية رسمية تشير من بعيد الى انه يعتاش على حساب السلطات لانها بحاجة اليه .

توقف الفارس جنب السياج دون ان يترجل ، وظل ينتظر والد الصبى . ثم اخرج رجله من الركاب ووضعها على السياج وراح يتحدث

مع والد الصبى . وكان الصغير يطرد الكلاب ويحوم حول السياج منصتا لكلام الرجلين .

– الم ير احد منكم شخصا مع خيول محملة فى طريق «شيغيم» العلوى ؟

فاجاب الأب :

– سمعت بالقضية ، لكننى لم ار الرجل .

«فى الطريق السفلى وليس العلوى» – كاد الصبى يصيح لكنه امسك لسانه فى اللحظة اللازمة .

ظل الرجل يتكلم ، ثم دس رجله فى الركاب ومضى .

– من هذا يا بابا ؟ – سأل الصبى .

– رئيس العرفاء – اجاب الاب ودخل المنزل صامتا .

وفى اواخر الخريف كان الصبى مع ابيه يرتقيان الدرب الصاعد من منخفض «سابيد» بعد ان حمّلا الحمار باكياس الكستناء ، ثم جلسا لياخذا قسطا من الراحة فى نفس ذاك الطريق السفلى ، وفى نفس المكان تقريبا ، لم يتحمل الصبى وحدث اباه بالقضية . فقال الاب ساخرا :

– لهذا لم تعد تقتاد الماعز الى هنا ؟

– كلا – انفجر الصبى ، فقد اصاب الاب عين الحقيقة .

– لماذا صمتت حتى الآن ؟ – سأله الأب .

– ليتك ترى كيف نظر الى – اعترف الصبى – لا ازال اخاف ان يعود . . .

– لن يعود الى هنا حتى بالقوة – قال الاب ونهض يستحث الحمار بحطبة – لو كنت قد بلّغت حالا لكان بالامكان القبض عليه .

– ما ادراك يا بابا ؟ – سأل الصبى وهو يجهد للحاق بابيه . فمنذ ان قابل ذاك الشخص لم يعد يحب هذه الانحاء ولا يثق بها .

– الشخص الذى يقود خيولا محملة لا يستطيع ان يسير اكثر من يوم واحد – قال الاب ولوح بالحطبة ، فالحمار يتوقف بين الفينة والفينة ، والطريق الصاعد شديد الانحدار .

– انت لا تدرى كم كان مسرعا – قال الصبى .

– ليس بوسعه ان يسير اسرع من خيوله – اعترض الاب ثم فكر واضاف : نعم ، هو الذى قتل الاخير ، فلم يبق سوى شوط واحد .

– لماذا يا بابا ؟ – سأل الصبى وكان لا يزال يغذ فى السير كيلا يتخلف عن ابيه .

– الاصح انه ابقاه على قيد الحياة – واصل الأب تأملاته بصوت مسموع – ليساعده فى تحميل الخيول لاجتياز الشوط الاخير ، وبعد ذلك اطلق عليه الرصاص .

– من اين عرفت ؟ – سأل الصبى ولم يعد يلحق بأبيه لانهما ارتقيا التلة ولاح منها منزلهم .

– انا اعرف هؤلاء الكفار وعاداتهم – قال الاب – فهم لا يرغبون فى العمل اطلاقا . لا اريد ان اتذكرهم .

– وانا ايضا – قال الصبى – لكننى اتذكر ذاك الرجل طول الوقت .

– ستنساه – قال الاب .

وبالفعل ، نسيه . وبمر السنين ابتعدت ذكراه لدرجة جعلت العم ساندرو احيانا يشك فيما اذا كان ذلك قد حدث بالفعل ام خيل اليه وهو الصبى اليافع بعد ان انتشرت الاقاويل عن نهب الباخرة على مقربة من كينغورسك .

اما فى تلك اللحظات ، بعد المأدبة الشهيرة العالقة فى الذاكرة مدى الحياة ، والتى اقيمت فى احدى ليالى اغسطس عام ١٩٣٥ او عاما قبله ، وليس بعده ، تذكر ذلك كله بمنتهى الوضوح ، ودهش بشكل وسواسى لذاكرته الرهيبة وحمد الله وشكره على فطنته .

حدّث العم ساندرو اصدقاءه مرارا بوليمة تلك الليلة . وبعد المؤتمر العشرين صار يتحدث عنها لاناس يعرفهم مجرد معرفة ويضيف اليها رؤاه او ذكرياته فى عهد الفتوة . ويقول :

– لا ازال حتى الآن ارى بندقيته تنزلق من كتفه باستمرار وهو يعدل وضعيتها على الماشى . كانت كتف ذاك الرجل شديدة الميلان . . .

وفى تلك الاثناء ينظر العم ساندرو الى محدثه بعينين واسعتين فيهما شىء من السحر الغيبى . وكان واضحا من نظرته انه لو اخبر اباه فى الوقت المناسب بذاك الرجل الذى سار مع خيوله فى طريق «شيغيم» السفلى لسار التاريخ العالمى كله فى طريق آخر ، غير طريق «شيغيم» السفلى على اية حال .

ومع ذلك ما كان بالامكان الجزم من نظرته هل هو آسف على صمته القديم ام انه ينتظر المكافأة من الاحفاد الذين لا يفرطون فى الاعتراف بالجميل . والارجح ان نظرته تلك تدل على انه آسف لعدم اخبار والده ، لكنه فى الوقت ذاته لا يمانع فى استلام المكافأة .

وبالمناسبة فان بعض الازدواجية فى نظرته ينطوى على جرعة من

التهكم الشيطانى الذى كأنما يجسد الغموض والتردد لدى قضاة الدنيا فى الحكم على شخصيته .

ان واقع وفاته بموت ابيض ، اذا كان قد توفى هكذا حقا ، يدفعنى للاعتقاد بأن الخالق عز وجل طلب ملفه الشخصى ليحكم عليه بنفسه فى محكمته العليا ويوقع به عقوبته القصوى .

صدر للمترجم

ايفان تورغينيف ، الآباء والبنون (رواية) ط ٢ . . . . . ١٩٨٥

الكسندر فادييف ، الهزيمة (رواية) ط ٢ . . . . . ١٩٨٨

الكسى تولستوى ، الامير الاعرج ، طفولة نيكيتا (قصتان) ط ٢ . ١٩٨٩

نيكولاى ليسكوف ، الجوّاب المسحور (بالاشتراك مع غالب طعمة فرمان) ١٩٨٨

فالنتين راسبوتين ، الهارب (قصة) ١٩٨٢

الحريق (قصة) ١٩٩٠

فاسيلى شوكشين ، العناقيد الحمراء وقصص اخرى ١٩٨٤

فاسيلى بيكوف ، النصب . الذئاب (قصتان) ١٩٨٤

اندرى بلاتونوف ، الاشباح (بالاشتراك مع د . ابو بكر يوسف) . ١٩٨٦

الحفرة . بحر الصبا (قصتان) ١٩٩١

آليس ادامويتش ، السفاحون (قصة) ١٩٨٧

قسطنطين سيمونوف ، الاحياء والاموات . رحى الحرب . الصيف الاخير (ثلاثية بخمسة مجلدات) . . . ١٩٨٥–١٩٨٩

اناتولى جيفولين ، الاحجار السوداء (قصة) ١٩٩١

فاسيليف ، تاريخ العربية السعودية (بالاشتراك مع جلال الماشطة) ١٩٨٦

عزيز خودابيرديف ، الاستعمار البريطانى وتقسيم اليمن . . . ١٩٩٠

بوغانوف ، حياة بطرس الاكبر ١٩٩٠

تحت الطبع

اناتولى بريستافكين ، المنبوذون (قصة)

محتويات

الارانب والثعابيـــن ٣
العم ساندرو ١٤٩
شجرة الفـداء ١٥٠
ولائم الكبـــار ٢٠٢